المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

حرب غرناطة

تأليف
أورتادو دى مندوثا

ترجمة
إيمان عبد الحليم
سلوى محمود

مراجعة وتقديم
جمال عبد الرحمن

1238

حرب غرناطة

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: ١٢٣٨
- حرب غرناطة
- أورتادو دى مندوثا
- إيمان عبد الحليم وسلوى محمود
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨

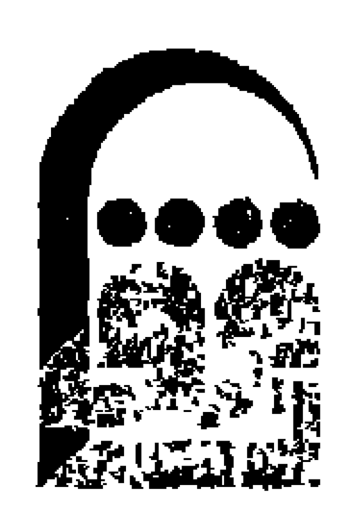
هذه ترجمة لكتاب:

Guerra de Granada
Por : Hurtado de Mendoza

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ – ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524-2735426 Fax: 27354554

حرب غرناطة

تأليف : أورتــــادو دى مــندوثـــــــــا
ترجمة : إيمان عبد الحليم وسلوى محمود
مراجعة وتقديم: جمـــــال عبد الرحـــمن



2008

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

دى مندوثا ، أورتادو
حرب غرناطة / تأليف : أورتادو ، دى مندوثا ؛ ترجمة : إيمان عبد الحليم ، سلوى محمود ؛ مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن – ط١ – القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠٠٨
٢٢٨ ص ، ٢٤ سم
١ – غرناطة – تاريخ .
(أ) عبد الحليم ، إيمان (مترجم) .
(ب) محمود ، سلوى (مترجم مشارك) .
(جـ) عبد الرحمن ، جمال (مراجع ومقدم) .
(د) العنوان ٩٤٦,٨٢

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١٩٢٢٧
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 437 - 896 - 2
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

تقديم المراجع

يقول الكاتب الإسبانى أنطونيو غالا فى رواية "المخطوطات الحمراء": "إن التاريخ لا يتكرر، بل إن الذين يتكررون هم المؤرخون، فالتاريخ يكتبه المنتصرون بحكم العادة، أما المهزومون فإما أنهم يموتون وإما أنهم يفضلون النسيان".

الحرب التى دارت رحاها فى الجنوب الإسبانى بين الإمبراطورية الإسبانية الفتية والأقلية المسلمة خلال أعوام ١٥٦٨–١٥٧٠ انتهت بهزيمة المسلمين، ولم تكن تلك مفاجأة لأحد، فقد كانت الأقلية المسلمة تحارب أقوى إمبراطورية فى ذلك الحين، بأسلحة بدائية وبأعداد ضئيلة، ولم يأتها عون من العالم الإسلامى كثيرا ما أرسلت فى طلبه. وقد تعددت كتابات مسيحيى إسبانيا عن تلك الحرب (مندوثا، وبيريث دى إيتا، وكارباخال، وغيرهم).

تاريخ "حرب غرناطة" – أو حرب البشرات – الذى نقدم له، كتبه المنتصرون إذن، لكن هل كان المنتصرون على قلب رجل واحد؟ هل كان ما كتبه مندوثا مشابها لما كتبه مارمول كارباخال مثلا؟

لم يكن المنتصرون – أعنى هنا المؤرخين المسيحيين– على قلب رجل واحد، بل تبنوا مواقف مختلفة. كيف تتحد مواقف "المؤرخين" الإسبان إذا كان بعضهم يشطح به الخيال، فيتحدث عن ذهب وفير ملقى على الأرض لكى يغرى الملك الإسبانى بغزو فاس، بينما يحاول الآخر أن يحذو حذو العمالقة الإغريق ويكون لهم ندا؟

كان الفرق بين مؤلف وآخر، يكمن فى أن أحدهما شهد الحرب وعاصر ويلاتها وعرف غريمه عن قرب فاحترمه، أما الثانى فكان همه الإشادة بانتصار

الوطن فألحق بالمهزومين –ناسيا أنهم أبناء الوطن نفسه أيضا وإن اختلفوا فى العقيدة– كل المثالب. باختصار: موضوعية أحدهما وتخلى الآخر عن الموضوعية.

مؤلف الكتاب:

لنبدأ بتقديم المؤلف، لعل ذلك يساعدنا على فهم الكتاب بشكل أيسر. كاتبنا اسمه دييغو أورتادو دى مندوثا، ولد بغرناطة عام ١٥٠٣، أى بعد أن غزاها فيرناندو الكاثوليكى بنحو أحد عشر عامًا. وكان أبوه قد حقق المجد لحسن بلائه فى حصار غرناطة، فعين حاكمًا للمدينة بعد سقوطها. ويبدو أن عائلة مندوثا كانت أكثر تفهما لأوضاع الموريسكيين، إذ كان والد مندوثا يحظى بثقة المسلمين، بل كان هو نفسه يثق فى أخلاق المسلمين، ففى أثناء ثورة البيازين بعد سقوط غرناطة بسنوات ذهب مندوثا الأب بمفرده دون حراسة ليفاوض الثوار هناك. وكان مندوثا يحذر الملك الإسبانى من المساس بعادات الموريسكيين.

فى كنف هذه العائلة النبيلة نشأ دييغو أورتادو دى مندوثا، وتلقى الفتى علومه فى سلمنكا، وبولونيا، وبادوا، فحصّل ثقافة عريضة فى اللاتينية واليونانية والعربية، وفى الفلسفة والقانون، وراح يجمع النصوص الكلاسيكية بحماسة أمير من أمراء عصر النهضة.

وقد حظى بمكانة مرموقة خلال خدمته الدبلوماسية لكارلوس الخامس فى البندقية وروما ومجمع ترنت، وذات مرة وبّخه البابا بولس الثالث على حمله رسالة جافة إليه من كارلوس، ونبهه إلى ألا يتجاوز حدوده لأنه فى بيت البابا ومقره، لكن مندوثا أجاب بكبرياء النبيل الإسبانى: "إننى فارس، وكان أبى فارسًا قبلى، وبهذا الوصف أرى أن واجبى يقتضينى أن أصدع بأوامر سيدى الملك وأبلغ رسالته كما هى، دون أن يساورنى أى خوف من قداستكم، ما دمت أراعى واجب التبجيل لنائب المسيح. إننى خادم لملك إسبانيا، وما دمت ممثلا له فإننى حيثما شئت أن أضع قدمى أكون فى بيتى".

في يونية عام ١٥٦٨ حدث أن جرّد مندوثا سلاحه لمنازلة غريم – دييغو دى ليبيا– داخل القصر الملكى. لذلك تغير وضعه خلال حكم فيليبى الثانى، الذى نفاه إلى غرناطة بعد أن كان موقعه داخل القصر. بعد تلك الواقعة بثمانية أشهر استدعاه الملك فيليبى الثانى وأرسله إلى غرناطة، حيث كان ابن أخيه ماركيز مونديخار قد فشل فى إخماد ثورة الموريسكيين، فعزل وتولى خوان دى أوستريا المهمة بدلا منه. لم تكن مشاركة مندوثا فى الحرب فعالة بطبيعة الحال – كان عمره خمسة وستين عاما– لكنه كان يتلقى الأخبار عن شهود عيان ومن تقارير رسمية ومن أحاديث الناس فى مدينة غرناطة.

بعد واقعة القصر التى أشرنا إليها عفا عنه الملك فى مقابل تنازل مندوثا عن مكتبته الخاصة التى كانت لها شهرة واسعة منذ عقود، والتى تشكل اليوم – بالإضافة إلى كتب مولاى زيدان– جزءا من مكتبة الاسكوريال.

مندوثا أديبا:

كان مندوثا أديبا بارزا، وهو يعتبر بالفعل – فى إنتاجه الشعرى والنثرى– من أكثر المؤلفين الإسبان تأثرا بعصر النهضة الإيطالى. من ناحية أخرى فقد جمع مندوثا – على غرار مؤلفى عصر النهضة – بين الأدب وحمل السلاح.

ربما لا يعلم غير المتخصصين أن رواية الصعاليك الأولى "لاثاريو دى تورميس" قد نسبت إليه، لكن البحث العلمى الجاد أثبت أنه لم يؤلفها، وإن كان ميل مندوثا إلى الإنصاف يجعل من نسبتها إليه عملا مشروعا ما دمنا لم نعثر حتى الآن على اسم المؤلف. ولعل موقف مندوثا من البابا الذى ذكرناه للتو يؤيد أن يكون هو مؤلف تلك الصفحات التى تنتقد رجال الدين، مع أنه هو نفسه قد ربى فى صباه لكى يكون قسيسا.

صاحبنا له حكايات تطول مع الرقابة. إن صحت نسبة رواية الصعاليك إليه فستشكل أحد المواقف، فقد حظرت محكمة التفتيش نشر الرواية إلا بعد تنقيتها من

الهجوم اللاذع على رجال الدين. إن الصبى بطل الرواية يعمل فترة من الزمن لدى أحد بائعى صكوك الغفران فيقول له فى النهاية "يجب أن أعترف أنني – مثل كثيرين غيري – كنت مخدوعًا وقتها، فحسبت سيدى آية فى القداسة"، ثم حدث أن اعتكف مندوثا فى غرناطة بعد أن نفاه فيليبى الثانى؛ لأنه جرد سيفه داخل القصر الملكى أثناء جدل بينه وبين غريم، وهناك نظم أشعارًا خفيفة فيها من التحرر ما حال دون طبعها وهو حى.. أما هذا الكتاب الذى نقدم له فيمثل حكاية أخرى للمؤلف مع الرقابة. لو أن قارئ هذه الرواية للأحداث كان على دراية بالمحظورات آنذاك، فسيدرك على الفور أن مؤلفنا كان متمردا على الأوضاع وأن كتابه تجاوز عدة خطوط حمراء، ومن ثم لم يكن بالإمكان نشره إلا بعد سنوات كثيرة من وفاته ووفاة الشخصيات البارزة فى الأحداث والتى كان مندوثا قد وجه إليها انتقادات عنيفة. يشير إلى ذلك مؤلف من عصرنا الحالى –متمرد آخر– هو خوليو كارو باروخا فى كتابه الذى ترجمناه منذ سنوات فى إطار المشروع القومى للترجمة.

كتاب "حرب غرناطة":

يتناول الكتاب –كما ذكرنا– تطورات الحرب التى خاضها الثوار المسلمون بين عامى ١٥٦٨–١٥٧٠ دفاعا عن هويتهم. هناك رواية تقول إن حرب البشرات قد نشبت إثر تفتيش نبيل مسلم وتجريده من سلاحه، لكننا لا نعتقد أن حادثة عابرة يمكن أن تؤدى إلى حرب تستمر سنوات. بإمكاننا أن نتحدث عن القشة التى قصمت ظهر البعير، أو عن نقطة الماء التى ملأت الكوب، ونقول إن وضع مسلمى إسبانيا لم يكن يحتمل المزيد من إجراءات القمع ولم يكن ينتظر سوى شرارة تشعل نار الحرب.

القضية الأولى التى ينبغى تناولها هى تاريخ تأليف الكتاب. من المعلوم أن الكتاب لم ينشر قبل عام ١٦٢٧م. فمتى انتهى المؤلف من كتابته؟ ذكرنا أن مندوثا قد نفى إلى غرناطة عام ١٥٦٨. نضيف هنا أنه بدأ تأليف الكتاب "حرب غرناطة" خلال فترة المنفى. والراجح أن الكتاب قد وضع بين عامى ١٥٦٨ و ١٥٧٤، أى

قبل وفاة المؤلف بعام واحد. لكن الكتاب كان معروفا قبل طبعه، إذ إن مارمول كارباخال كان على علم بمضمونه حين نشر كتابه عام ١٦٠٠، والشيء نفسه ينطبق على مؤلفين آخرين.

القضية الثانية هي تأثر المؤلف بالتراث القديم، ففي هذا الكتاب يقلد مندوثا المؤلفين الإغريق واللاتينيين حيث يتحدث بلسان الشخصيات البارزة (انظر مثلا الشكوى التي يبثها القائد الموريسكي) ويصف أخلاق الشخصيات (ابن أمية الذي حوله مندوثا إلى أسطورة، وبدرو دى ديثا، رئيس المحكمة المتشدد، وماركيز بيليث المغرور)، ويصف مدنا كثيرة بطريقة تظهر معها ثقافته الواسعة حيث وصف عادات الشعوب القديمة وأشار إلى الأصل اللغوى لكلمات عربية وإسبانية، وذكر مقتطفات لمؤلفين إغريق. كان تأثر مندوثا بكتاب المسرح اليونانى القديم واضحا في روايته لقصة عثور قوات ألونسو دى أغيلار على رفات جده الذى كان قد قتل في مواجهة مع الموريسكيين منذ سبعين عاما. ويسلك مندوثا نهجا محمودا في رواية الأحداث فهو يصف أرض المعركة (انظر مثلا وصف البونيبلاس وغرناطة)، وهكذا يكون القارئ أكثر استعدادا لفهم تطورات المعارك.

القضية الثالثة تتعلق بحيادية المؤلف. يحدد مندوثا موقفه منذ بداية الكتاب. إنه يستخدم ألفاظا مثل "قواتنا" و"الأعداء"، لكن هذا الموقف المحدد لا يدعوه إلى الانحياز إلى فريقه عند إصدار الأحكام. إنه يسير على خطى المؤرخين القدامى العظماء؛ فيثنى على بطولات قام بها الثوار المسلمون وينتقد أخطاء أخلاقية وقع فيها الجيش المسيحي. كانت انتقادات المؤلف حادة ضد كل من رئيس المحكمة وماركيز بيليث ومستشارى خوان دى أوستريا. انتقد مندوثا كذلك قمع الموريسكيين وطمع الجنود وحرصهم على نهب ممتلكات الموريسكيين، وفساد القادة.

على أن هذه الانتقادات – طبقا لمن لا يحسن الظن بالمؤلف – قد يكون مبعثها شعور بالحسرة على سلطة تذهب بعيدا بعد أن مارستها الأسرة جيلا بعد جيل. إن سلطة عائلة مندوثا الآن – زمن الحرب – قد أصبحت من نصيب رئيس

المحكمة، وهو أمر لا يستطيع مندوثا أن يتجاوزه بسهولة. من ناحية أخرى فإن وقت تحرير الكتاب يعضد رأى من لا يحسن الظن بالمؤلف، فقد كتب مندوثا هذا الكتاب وهو فى منفاه بعد واقعة القصر الملكى الشهيرة. إذن فالأحداث يرويها شخص يظن أن الملك غاضب عليه بعد أن كان موضع ثقة أسلافه.

قلنا إن الكتاب لم ينشر إلا بعد وفاة المؤلف وبعد وفاة الشخصيات التى تعرضت للنقد، ونضيف هنا سببا آخر حال دون نشر الكتاب بعد تأليفه مباشرة. بعد سقوط غرناطة الإسلامية تحت حكم الملكين الكاثوليكيين انطلقت عملية تنصير واسعة النطاق داخل إسبانيا وخارجها (فى بلاد العالم الجديد). كان هناك اتجاه رسمى يؤيد الحرب ضد من يعترض على التنصير بالداخل، وكان على المؤرخين أن يساندوا ذلك الاتجاه الرسمى وأن يمتدحوا القوات المسيحية وأن يصبوا اللعنات على الأعداء وألا يتحدثوا عن هزائم. لكن مؤلف الكتاب الذى نقدم له خرج عن الإجماع وكتب –وهو شاهد عيان تقريبا– ما أملاه عليه ضميره، فتحدث عن أخطاء ارتكبها الجيش الرسمى، وعن انتصارات حققتها الأقلية المسلمة. لهذا ظل الكتاب حبيس الأدراج حتى تغيرت الظروف فتمكن ورثته من نشره.

يعيب بعض النقاد على مندوثا أسلوبه الغامض أحيانا، والجمل غير المكتملة، والتكرار وقلة عدد المفردات المستخدمة، وعدم مراعاة الترتيب الزمنى فى رواية بعض الأحداث.

كل هذه الانتقادات لا تقلل من أهمية الكتاب، فقد كان مندوثا من أبرز المؤلفين من حيث الموضوعية، ذلك أنه إن لم يكن شاهد عيان على الحرب فقد كان قريبا منها، وكان على دراية بالأسباب الحقيقية التى أدت إلى الثورة.

نضع بين يدى القارئ إذن كتابا موضوعيا عن حرب غرناطة التى أشعلها مسلمو الأندلس دفاعا عن هويتهم، كتبه نبيل إسبانى معاصر للأحداث ومتمرد

بطبعه، ولا يتردد فى توجيه النقد للأعداء وللأصدقاء إن لزم الأمر، نتمنى أن يعين الباحث العربى على قراءة أخرى لتاريخ الأندلس.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

جمال عبد الرحمن

القاهرة فى أول مارس ٢٠٠٨

مقدمة أغسطين ديل ساث

من المؤكد أن المؤرخين فى إسبانيا لم يبلغوا المكانة نفسها التى حظى بها أدباؤنا وشعراؤنا العباقرة، إلا أن ذلك لا يعنى أننا لا نستطيع تقديم شخصيات بارزة من المؤرخين فلدينا أسماء متميزة أمثال الأب خوان دى ماريانا Juan de Mariana وميلو Melo ودياث ديل كاستييو del Castillo Diaz وسوليس Solis وغيرهم كثيرون، فنذكر على سبيل المثال كلا من السيد موديستو لافونيتى Modasto La Fuente من القرن الماضى والسيد رفائيل ألتاميرا Rafael Altamira من عصرنا الحاضر.

ونستطيع القول: إن مؤلف كتاب "الحرب ضد موريسكيى غرناطة" قد قام – مع الفارق – بدور مماثل للدور الذى لعبه فى اليونان هيروديت وطوسيديدس Tucīdides وخنوفونتى Jenofonte أو تاسيتو Tacito أو قيصر Cesar فى تاريخ روما.

ولقد نظر السيد دييغو أورتادو دى مندوثا – الذى كان سفيرًا للإمبراطور كارلوس الخامس فى مجمع تورنتو الدينى، إلى الكلاسيكيين وبصفة خاصة إلى سالوستيو Salustio وتاسيتو Tacito .

ولد دييغو أورتادو فى غرناطة فى السنة الثالثة من القرن السادس عشر، وهو ابن لكونت تنديا، وكان أول ماركيز لمونديخار Mondéjar.

وقد أشار ثربانتس إلى أن مسقط رأسه هو مدينة طليطلة الإمبراطورية، لكن من المؤكد أن ميلاده كان فى مدينة غرناطة، مدينة الشعر التى طالما داعبها وحى الفنانين، وأيقظت فيهم أكثر جوانب الإبداع إشراقًا وبهاءً. وهى حافظة مقدسة للتاريخ، وشاهدة على حضارة من أروع الحضارات على الإطلاق، طالما أمتعت ناظريها دون توقف، فالمطل عليها من أية نافذة يستطيع أن يلمح تلك الحمية

العربية وكأن صورة أحد فرسان غرناطة المنتمين إلى عائلات بنى سراج Abencerrajes، وغوميل Gomeles النبيلة – والتى كانت تتسم بالحكمة والشجاعة فى حروبها الدموية مع الملوك المسيحيين – تظهر لنا على الجدران. وكأن هؤلاء الفرسان قد بُعثوا مرة أخرى وها هم يجولون ويصولون فى الغوطة بملابسهم العربية الأنيقة يقضون الأوقات التى تهدأ فيها الحرب.

لقد اختفى هؤلاء الفرسان الأرستقراطيون من غرناطة، ولكن لاتزال حضارتهم قائمة، ولا تزال تضفى لونها على جموع أبراج المسلمين التى تتربع على سهول غرناطة.

إن ما عاناه العرب الذين مكثوا فى غرناطة، أدى إلى حركة التمرد التى قام بها الموريسكيون خلال حرب غرناطة التى أعلنها الملك فيليبى الثانى Felipe II ضد الموريسكيين فى تلك الفترة. ويروى لنا دون دييغو أورتادو دى مندوثا قصة تلك الحرب[1]، ويعلق قائلاً: « لقد شهدت جزءًا من هذه الحرب، والجزء الآخر أخذته عمّنْ شاركوا فيها بشخصهم وبفكرهم». ونظرًا لمشاركة أورتادو فى الحياة الحربية والسياسية والأدبية، فقد كانت لديه قدرات عالية جعلت منه مؤرخًا جيدًا.

إنه لم ينقل فحسب بسرعة فائقة أحداث وإنجازات المحاربين، ولكنه تمكن من رسم ملامح شخصياتهم ونفسياتهم ومقاصدهم، وانطلاقًا من ذلك تمكن من الوصول إلى الأسباب التى أدت إلى الحرب، وقام بتحليلها وتفصيلها ببراعة حتى توصل إلى حقيقة أن الأحداث لم يكن من الممكن أن تأخذ مسارًا آخر غير الذى أخذته.

---

(1) برشلونة ١٨٤٢. قام بنشرها خوان أوليفيريس Juan Oliveres وهى مطابقة للنسخة التى ظهرت فى ١٧٧٦. وفى هذه الطبعة أدرج أوليفيريس مقدمة الناشر الأول للكتاب وهو لويس تريبالدوس Luis Tribaldos.

ويُعَد السيد دييغو دى مندوثا مؤرخًا صادقًا ومُنصفًا لم يبخل بمدح أو ذم، وقد تحدث عن أعداء ومحاربى فيليبى الثانى بنفس المستوى والطريقة، وكان منصفًا لدرجة أنه لم يجد حَرَجًا فى أن يقوم بذم أخيه.

وفى كتاب « أخبار عن حياة السيد دييغو دى مندوثا » نقرأ ما لم أجد أحدًا استطاع أن يقلد ببراعة سالوستيو وتاسيتو مثله، فهو يحاكيهما فى عباراتهما وأساليبهما: فالجمل انعكاس لقصة تاسيتو، والجمل على لسان الملك الموريسكى الصغير el Zaguer فى قمة البلاغة والدقة والحساسية، وهى مقسمة على نحو أسلوب ديموستينيس Demostenes.

وقد تمت طباعة هذا الكتاب عدة طبعات من أهمها الطبعة المنشورة فى الجزء الحادى والعشرين من مكتبة الكُتَّاب الإسبان، والطبعة المنشورة فى الجزء الثانى عشر من المكتبة الكلاسيكية، بالإضافة إلى طبعة فالنسيا لسنة ١٧٦٦.

وعن سيرة حياة هذا الكاتب يحدثنا لوبيث دى أيالا López de Ayala فى تكملة لكتاب "مستودع الثمار الأدبية" Almacén de frutos literarios ، كما حدثنا أيضًا السيد ألوى سينان ألونسو Eloy Señan Alonso الذى عمل أستاذًا ورئيسًا لجامعة غرناطة(٢).

وقد قام بدراسة "حروب غرناطة " الأستاذ الفرنسى فولشيه دلبوسك Foulchē Delbosc فى مجلة Revue Hispanique (٣).

وقد شكك السيد لوكاس دى تورى Lucas de Torre حول ما إذا كان دييغو أورتادو دى مندوثا، هو الكاتب الحقيقى لحرب غرناطة، وذلك فى مقاله

---

(٢) دون دييغو دى مندوثا " ملامح نقدية لسيرته الذاتية "، غرناطة، ١٨٨٦.
(٣) "دراسات حول حرب غرناطة ". المجلة الإسبانية، ١٨٩٤، الجزء الأول، ص. 165-101، 338

الذى نُشر بمجلة أكاديمية التاريخ[٤]، ثم قام بعدها الأستاذ لوكاس الفرنسى بالرد عليه فى المقال الذى ذكرناه سالفًا.[٥]

لقد كتب خينيس بيريث دى إيتاGinés Pérez de Hita تاريخ حروب غرناطة الأهلية باحثًا عن متعة القارئ فأبدع رواية تاريخية شيقة*، أما دييغو أورتادو دى مندوثا فقد تمكن بأصالته الفنية وثقافته الواسعة من كتابة واحدة من معارك الموريسكيين لها طابع كلاسيكى لا يخلو من المتعة والظُرف.

لذا، فإننا نقدم هذا الكتاب للقارئ وكلنا قناعة بأن هذه القصة ستُقرأ بإعجاب وشغف أمام آخر محاولة لصمود تلك الحضارة التى اختفت ولكنها لم تمت.

أغسطين ديل ساث Agustīn Del Saz

مــدريــد ٨ أبريل ١٩٢٩

---

(٤) لوكاس دى توررى: "دون دييغو أورتادو دى مندوثا ليس هو الكاتب الحقيقى لكتاب "حرب غرناطة". نشرة أكاديمية التاريخ الملكية، ١٩١٤، LXIV، LXV

(٥) فولتسيه دل بوسك: أصالة حرب غرناطة، المجلة الإسبانية، ١٩١٥، الجزء الثلاثون ص: ٤٧٦-٥٣٨.

(*) هذا الوصف ينطبق على الجزء الأول فقط، أما الجزء الثانى من كتاب دى إيتا فهو تاريخ محض (المراجع).

مقدمة الناشر القديم

إلى القارئ

وجدت أنه من غير اللائق أن أقوم بوصف مطوّل للسيد دييغو دى مندوثا؛ نظرًا لأنه يُعَدّ من الشخصيات الإسبانية المعروفة في أوروبا وخاصة لأن السيد بلتسار دى ثونيغا Baltasar de Zuñiga تحدث عنه بإطراء شديد فى عدة مواضع.

لن أتوقف لمدح هذا الكتاب حول تاريخ حرب غرناطة، ولن أبرهن على أنه أفضل ما كُتِبَ على الإطلاق بلغتنا الإسبانية، فليس هناك أى عالم يستطيع أن يُنكر ذلك [ص١].

سأتحدث فقط عن الأسباب التى أخرت نشر هذا الكتاب والدوافع وراء نشره الآن، وما هى النسخة والهوامش التى اتبعتها لنشر هذه الطبعة.

أما عن أسباب تأخر نشر الكتاب، فنحن نعلم جيدًا أنه منذ القِدَم وهناك كراهية لكشف الحقائق(*)، ومن المألوف أن منْ يقول الحقيقة دائمًا ما يُعانى مشقة وتناقضات وبصفة خاصة منْ يقوم بكتابتها. وانطلاقًا من هذا المبدأ عادة ما يعالج المؤرخون قضايا حدثت فى العهود الماضية أو يحتفظون بنشر الأحداث المعاصرة لقرن أو زمن تال عندما يكون قد ولى زمن منْ يعالجون قصته.

لهذا السبب قرر كاتبنا السيد دييغو عدم نشر هذا التاريخ فى حياته وأراد أن يترك كامل الحرية – وهى حرية ليست بغريبة على آل بيت مونديخار الفاضل – لمنْ يأتون بعده خبرًا بالوقائع الحقيقية لحرب غرناطة. وقد استطاع صياغتها بمهارة وحكمة، وكان للقائد الذى بدأ تلك الحرب فسهل ذلك من وصول الأخبار

(*) يشير إلى هذا الموضوع خوليو كارو باروخا فى كتابه الذى ترجمناه وصدر عن المجلس الأعلى للثقافة تحت عنوان "مسلمو غرناطة بعد عام ١٤٩٢". (المراجع)

إليه عن أحداث الحرب، كما أسهم فى ذلك انتماؤه إلى تلك المملكة ومعاينته لأحداث كثيرة كتبها. لقد تحرى الحقيقة واستطاع أن يصل إليها، كما يلاحظ منْ يقارن هذا الكتاب بالكثير من الكتب الأخرى التى تحدثت عن الموضوع نفسه، حيث لا تُذكر فى أيٍ منها الأخطاء والمساوئ التى ارتكبناها ولا فضائل ومحاسن الطرف الآخر فى الحرب وهى مرسومة ببراعة شديدة، فالأحداث تبدو منطقية، ويسترشد القارئ بالدلائل التى تمكنه من تصديق ما لم يشاهده بعينيه.

أستدل فى وصفى للسيد دييغو ببعض الكلمات شديدة الأهمية كتبها بخط يده فى بداية نقله لهذا الكتاب عندما قدمه لأحد أصدقائه.

ذكرت أن السيد دييغو لم يرد أن يكشف عن قصة هذه الحرب وقتها، وأضيف أنه لم يكن باستطاعته القيام بذلك حيث إنه لم يكن قد انتهى من كتابتها بعد؛ وهو ما يمكن ملاحظته من خلال تكرار بعض الأشياء التى تم ذكرها مرارًا دون الحاجة إلى ذلك، مثل الأضرار التى لحقت بمليشيات البلدية وغيرها من هذا القبيل. هذا بالإضافة إلى حذف بعض الأحداث المهمة التى تعكس نقصان الأحداث كسقوط غاليرا ومقتل لويس كيخادا Luis Quijada. وقد تولى المدينة بعدها كونت بورتا إليغرى الكبير بالإضافة إلى حدث آخر لا يقل أهمية عن هذا عندما تم تكليف دوق مدينة سيدونيا ودوق أركوس بتأمين سلاسل روندة الجبلية نجد الكاتب يُسهب فى الحديث عن الأحداث التى قام بها هذا الأخير ويصمت كليةً عن الأول ولا يخبرنا عن الأسباب التى منعته من المشاركة فى المعارك عند تلك المنطقة على الرغم من أن دوق أركوس كان رجلاً عظيمًا، ولابد من وجود أسباب ومبررات منعته من المشاركة فى تلك المعارك.

يمكننا الإشارة إلى بعض الأحداث الناقصة الأخرى، ولكن يكفينا ذكر هذين المثالين. وبعد وفاة السيد دييغو، كانت بعض الشخصيات التى تم ذكرها فى كتابه لاتزال على قيد الحياة، فاستمرت بذلك نفس موانع النشر أثناء حياته. بالإضافة إلى أن المفكرين الذين يُسند إليهم كتابة مثل هذه الأعمال، يفضلون أن يكتسبوا شهرة

بفضل أعمال شخصية يفيدون بها بلادهم بدلاً من أن يقوموا بتقديم كتب كتبها آخرون.

أما عن دوافعي وراء نشر الكتاب اليوم بعد مرور حوالى ستين عامًا، فترجع إلى أنه لم يعد هناك أحد على قيد الحياة ممنْ تم ذكرهم فى الكتاب، فتوقف بذلك ضرر الكتابة ولم يعد هناك منْ يمكن أن يتأثر بسبب أنه وجد نفسه بارزًا أو مهمشاً فى هذا الكتاب. وحتى أحفاد تلك الشخصيات اللامعة ممنْ يُنسبون إلى عائلات النبلاء الإسبان وممن شاركوا فى هذه الحرب - وكثير ما هم - سيكون من الصعب عليهم ومن التكلف بمكان أن يقوموا برصد الأخطاء التى تمس أحد أقاربهم القدامى، فليست هناك أية أخطاء مشينة تمس الشرف أو تقلل من شهرة أحد الشخصيات، فلم يرتكب أحد مثل تلك الأفعال ولو حدثت لقام السيد دييغو - وهو كاتب ذو مكانة عظيمة لم يكن ليغفل عن التزاماته - بتتبعها ورصدها.

إن التاريخ يكتب لخدمة الأجيال اللاحقة ونفعها لكى يتعلموا منه، ويكون لهم شرفًا، ولا يكتب ليشينهم حتى فى الأحوال التى يجعل منهم عبرةً لغيرهم. إننى أيضًا لا يهمنى أن يكون "التاريخ" كتابا لا يرقى إلى درجة الكمال، فهذا هو تمثال جوبيتور الأولمبى Júpiter olímpico الجالس يلمس برأسه سقف المعبد، إلى أين سيصل إذا وضعوا له قدمين أو إذا ما وضعوه ورفعوه على قاعدة ؟

لقد تحريت الدقة بصفة رئيسية فى هذه النسخة ولم أدع مجالاً للتكهنات ولم أعَدِّل أيًا من النسخ طبقًا لرأى شخصى، فقد قمت بمقارنة عدة مخطوطات ووجدتها مختلفة فيما بينها[٦]، وقمت باختيار آخرها الذى يُعد -دون شك- أكثرها أصالة، وهى النسخة التى ترجع إلى السيد أبيرو Aveiro وتأتى فى أربعة أجزاء. وقد نقلها أحد المسؤلين، الرهبان العسكريين الكبار ويُدعى خوان باوتيستا لا بانيا Juan Bautista Labaña.

(٦) هناك تسعة مخطوطات بعضها له طراز فى غاية القدم فى قسم المخطوطات بالمكتبة الوطنية بمدريد.

وقام كونت بورتا أليغرى بتصحيحها. وعند توصلى إلى هذا المخطوط أدركت مدى المشقة التى عانيتها- والتى ذهبت سُدى – فى فحص المخطوطات الأخرى.

لقد اتبعت هذا المخطوط دون أن أجرى أية تعديلات، فهى نسخة عبقرية تُنسب لمؤلفها الذى يتحدث عنه الكونت العظيم فى مقدمتها.

كنت أود أن أزين هوامش هذا الكتاب بأسماء لكُتَّاب كلاسيكيين قام مؤلف هذا الكتاب بمحاكاتهم. ولم يكن من الصعب علىَّ تجميعهم، ولكنى آثرت ترك هذا الأمر فأختتم به، ولكن داهمنى مرض طويل وثقيل فاستحالت معه هذه المهمة. وقد طالبونى بالإسراع بنشر هذا الكتاب فقمت بتأجيل هذه الفكرة لطبعة تالية – إذا ما تم نشرها.

كان من دواعى أسفى أن يكون هذا الكتاب مجردا من الملخصات، إلى أن تذكرت بعض ملخصات قرأتها فى إحدى مخطوطات الكتاب، كان قد أعارنى إياها منذ ثلاثة أعوام أحد السادة وهو الآن بلشبونة، فكلفت صديقى الذى يقوم على هذه الطبعة بالبحث عنهما وإلحاقهما بها. وحسبما أرى فى العشرين صفحة التى تم طبعها من الملخصات بينما أقوم بصياغة هذا الكتاب، أنه من الممكن أن تفيد فى هذه الأثناء حتى أفرغ من هذه النسخة.

هذا هو كل ما أستطيع قوله للقارئ.

مقدمة خوان دى سيلبا Juan de Silva

كونت بورتا أليغرى وحاكم وقائد

عام مملكة البرتغال

أظهر السيد دييغو دى مندوثا فى كتابه عن تاريخ حرب غرناطة براعةً وبلاغة -كما يرى الكثيرون- جعلته يصل إلى أرفع المستويات فى اللغة الإسبانية. إن لديه أسلوبًا قويًا ودهاء خفيًا جعل عملاً صغيرًا ومتواضعًا كهذا يُقارن بأعمال أخرى ذات مستوى رفيع ومليء بالكثير من الأسرار كما هو الحال فى كتابات تيتو ليبيو Tito Livio.

لقد نجح فى محاكاته للقدماء – دون أن يضر بلغتنا التى يكتب بها – فهو يكتب بلغة لها خصوصيتها دون المساس بها، لكنه فى نفس الوقت يستخدم فى أحيان كثيرة مفاهيم وعبارات وكلمات لكُتَّاب لاتينيين بعد ترجمتها حرفيًا. وسوف نرى فى هذا العمل جملاً كاملة ومقتطفات كبيرة سالوستيو Salustio ومن كورنيلو تاسيتو Cornelio Tacito.

لقد تمكن السيد دييغو ببراعة من أن يظهر العمل بصورة طبيعية، فهو يمدح الأعداء ويُلقى اللوم على الأصدقاء. وفى مدحه للأعداء نجده يحاكى أفضل الكُتَّاب، فمدح سالوستيو لماركو توليو ليس أفضل بكثير أو قليل من مدح السيد دييغو لدوق ألبا. أما عن ذمّه لأصدقائه فأعتقد أنه قد فاق الجميع عندما تحدث عن أبيه، وعن أخيه وكأنه يتحدث عن غريبين، وتحدث عن ابن أخيه كعدو له.

إننى لا أعلم كيف يعود ليعدل عن ذمّه لهم حتى يبدوا كما يستحقون، فهم يظهرون فى البداية مهددين ومطعونين وفى النهاية يبدون ممدوحين.

أستطيع القول: إنه حتى فى بعض مواضع النقص فى الكتاب يستحق الكاتب أن يُمدح لأن هناك لونًا من الظُرف فى تلك المواضع، حيث نجده لا يستطيع أن يكف عن أسلوبه الخاص المميز بالدهاء الذى يدفعه أحيانًا إلى السخرية المبالغ فيها من الحقائق. وقد مرّت هذه القصة بظروف سيئة؛ فنظرًا لكتابتها بأسلوب مختلف عما هو شائع، تم تشويه النسخ التى أخذت عنها بشكل مؤسف، وهى نسخ كثيرة، فحاول أولئك الذين لم يفهموها أو على الأقل لم يستطيعوا استيعابها إظهار ما أعجبهم فيها، بعد أن دفعتهم شهرة المؤلف للبحث فيها والاهتمام الشديد بها وتقديرها.

ولم يقم السيد دييغو بتهذيب أعماله وإعادة صياغتها سواء النثرية منها أو الشعرية مثلما يفعل كبار الكُتَّاب العباقرة الذين لا يتوقفون لحذف أجزاء مما يبدعونه من أعمال، ومن هنا يُلاحظ إشارة البعض - بسبب أو بدون سبب- إلى إخلال السيد دييغو بسير قصة تاريخ سقوط غرناطة ، وإلى أنه يستحق الثناء فى بعض مواضع الكتاب ولكن ليس فى المجمل.

وقد نتج عن هذه النسخ الكثير من الأخطاء الإملائية، وأخطاء فى وضع علامات الترقيم والوقف؛ بل وصل تجاوز هذه الأخطاء إلى حد إبدال وحذف وإضافة بعض الكلمات وحذف الروابط من أماكنها فى الجمل.

وبعد عناء شديد تم تنقيح هذه النسخة من بين نسختين أو ثلاث، بتمحيص ودقة، فلم يتم تغيير سوى بعض النقاط. وفى الحالات التى لم يتم فيها فهْم الجملة تم وضع الكلمات نفسها دون تغييرها، وتم حذف بعض الكلمات القليلة جدًا والتى تمثل حشوًا زائدًا.

وختامًا أستطيع القول إن هناك اختلافًا طفيفًا بين هذه النسخة والأصول التى أخذت عنها، وهو اختلاف أقل درجة من الاختلافات التى توجد بين الأصول نفسها.

الكتاب الأول

إن هدفى هو كتابة تاريخ الحرب التى خاضها فى مملكة غرناطة الملك الكاثوليكى السيد فيليبى الثانى –ابن الإمبراطور كارلوس Carlos ، الذى لم يُهزم أبدًا– ضد المتمردين من المسيحيين الجدد. وقد شهدت أنا جانبًا من هذه الحرب، أما الجزء الآخر فقد أخذته عن أولئك الأشخاص الذين شاركوا فيها بأجسادهم وفكرهم.

إننى أعلم جيدًا أن هناك أحداثًا كثيرة مما سأكتب ستبدو للبعض قليلة الشأن بالمقارنة بتاريخ الحروب الإسبانية الكبرى التى تم تدوينها، فهى حروب طويلة زاخرة بالأحداث وتدمير مدن كاملة آهلة بالسكان وانهزام ملوك وسقوط أُسرى وحدوث نزاعات بين آباء وأبناء وأخوة وأخوات وأصهار، حكام خُلعوا ثم عادوا إلى الحُكم من جديد، وسلالات تندثر وممالك تتوالى وتتغير، مما شكَّل مجالاً حرًا وممتدًا ومنفذًا واسعًا لمؤلفى الكتب.

لقد اخترت طريقًا ضيقًا وشاقًا وعقيمًا بلا مجد، لكنه ذو فائدة للأجيال القادمة: بدايات ساقطة وثورات للصوص وتكتلات للعبيد وشغب الغوغاء وتنافس وكراهية وطموحات ومطالب وتأخير للمؤن ونقصان فى الأموال وعواقب وخيمة لم يكن يصدق حدوثها أو كان يُستهان بإمكانية حدوثها. بالإضافة إلى تحول وضعف فى العزائم التى اعتادت استيعاب عظائم الأمور والاستعداد لها.

ومن هنا لن يذهب مجهودى سُدى عندما أكشف كيف أن الأمور الصغيرة والأسباب الجزئية، يمكنها أن تتطور وتصبح شئونًا عُظمى ومصاعب وأضرارًا عامة يكاد لا يكون لها أية حلول.

إنها حرب تبدو ظاهريًا ذات مكانة متواضعة داخل البلاد ولكنها لها قدرها في الخارج وشكلت حدثًا عظيمًا ونالت اهتمامًا كبيرًا طوال فترة اندلاعها. وقد عُلقت عليها آمال كثيرة وأثارت حماسة الأمراء الأصدقاء والأعداء على السواء من قريب أو بعيد.

وكانت في البدء حربًا خفية يسهل إخمادها ولكنها في النهاية تفاقمت واندلعت، واختلط فيها الخوف وعد العُدة من جانب والأمل في الانتصار واللجوء إلى فنون الحرب المختلفة من جهة أخرى.

وهكذا بدأت تتكاثف الجموع من الطرفين لإعداد الجيوش، وكانت إسبانيا في احتياج لتحريك كل قواتها لإخماد نيران التمرد، كما كان على الملك الخروج من السكون للاقتراب من الحرب وتكليف أخيه السيد خوان دى أوستريا Juan de Austria – ابن الإمبراطور كارلوس – بمهمة خوض هذه الحرب، حيث كانت انتصارات والده عاملاً محفزًا للقيام بهذه الحرب، كما سنرى من خلال الأحداث.

إنها أحداث حرب شهدت نزاعًا دائمًا ضد الأعداء، والبرد والحر والجوع ونقص في العُدة والذخيرة في جميع الأنحاء، ونتج عنها أضرار متعددة وقتلى كثيرون إلى أن تمت هزيمة الأعداء وهم من أمة مقاتلة ومسلحة، وذلك بعد ثقتهم في حصونهم ومساعدة البربر(*) والأتراك لهم، لكنهم استسلموا وتم إخراجهم من أراضيهم وطردهم من منازلهم، وتم أسر الكثيرين من الرجال والنساء الذين تم تكبيلهم بالقيود، وتم أسر الأطفال أيضًا وبيعهم في المزادات أو حملهم إلى أراضٍ بعيدة عن وطنهم الأصلي. لقد كان أسرًا وتهجيرًا لا يقل عما نقرؤه في قصص الحروب الأخرى.

(*) كلمة bárbaros التي استخدمها المؤلف هنا معناها "همجيون" لكنه يقصد البربر أو شمال إفريقيا berébere بالتأكيد. (المراجع)

لم يكن الانتصار مضمونًا، وكانت الحرب زاخرة بالأحداث الخطيرة لدرجة أنه في بعض الأحيان لم نكن نعرف إذا ما كنا نحن أو أعداؤنا هم منْ أراد الرب معاقبتهم، حتى تكشف في نهاية الأمر أننا فحسب كنا مهددين، وكانوا هم الخاسرين.

فليشكر لي كل منْ يريد أن يأخذ عبرة من هذه الحرب ويقبل موقفي المحايد والبعيد عن كل أسباب الكراهية أو الحب لأي من الطرفين.

إن موقفي هذا هو من أجل الإخلاص لعملي فلن يبقى لاسمي ذكرى غير ذكرى هذا التاريخ. وحتى يتسنى فَهْم ما سيأتي ذكره فيما بعد؛ فإنني سأتحدث قليلاً عن تأسيس مدينة غرناطة، ومنْ هم الذين عمروها في البداية، وكيف تم الاختلاط بينهم وبين أناس آخرين، وكيف تمت تسمية المدينة، ومنْ هو أول ملك لها، حيث إن ما وجدته في الكتب العربية الموجودة في البلاد، وكتب مولاي حسن ملك تونس، وما بقي في ذاكرة الناس حتى اليوم، ملقين بذلك على عاتق الكتاب مهمة البحث عن الحقيقة.

لقد عَمَّرَ مدينة غرناطة – حسبما فهمت – أناس أتوا من دمشق عام (٧٢٤) مع قائدهم طريف. وبعد عشرة أعوام من طرد العرب للقوط بعد سيطرتهم على أرض إسبانيا، اتخذ العرب منها موطنًا لهم للتشابه الكبير في الأرض والمناخ مع موطنهم الأصلي. في البدء أقام العرب في ليبيرا – والتي كانت تُسمى قديمًا إليبيريس Illiberis، ونحن نُطلق عليها إلبيرا، وهي تقع في الجبل المقابل للمدينة الحالية، وهي منطقة قفراء تخلو من الماء، وقد أُطلق عليها "ربوة الأمراء" حيث قُتِلَ فيها الأمير السيد بدرو والأمير خوان على يد عثمان Ozmín قائد الملك إسماعيل Ismael، لقد كانت غرناطة واحدة من قرى إيبيريا Iberia التي سكنها مجموعة من الأشخاص الذين خلفهم طريف بن تبيت[1] Tarif Abentiet (بعد ما

(١) ربما يشير إلى طريف بن مالك الذى سبق طارقا بن زياد فى دخول الأندلس، وربما يشير إلى قائد آخر لاحق، بهذا الاسم ، انظر تاريخ ابن خلدون، الجزء الثانى: " ثم هلك هراندة ثلاث وثمانين =

فرض عليها حصارًا طويلاً، وقد كانوا قلة فقراء من أجناس متعددة وكأنهم بمثابة أفراد متبقون من أماكن تم تدميرها. ولم يكن لهم ملك إلى أن ظهر حبوس بن حبوس[٢] [١٠١٤] الذى قام بجمع أهل المدينة من أنحاء مختلفة. وأسس المدينة بجانب برج القديس خوسيه، الذى كان يُدعى برج اليهود، فى القصبة.

وكان مقر الملك فى بيت أو عش الديك La casa del Gallo بجوار سان كريستوبال فى البيازين، وقد قام الملك بوضع تمثال له فى مكان مرتفع وهو فوق حصانه يمسك حربة ودرع تتحرك على شكل طاحونة الهواء[٣] وكتب يقول: "قال حبوس بن حبوس الحكيم، هكذا يجب أن يتم الدفاع عن الأندلس". يُقال إن اسم زوجته "ناط"، وأنها كانت تنظر إلى الغرب، ولذلك أسماها "غرب ناط" أى ناط "المنتسبة للغرب" حيث ينطق العرب والآسيويون أسماء الأماكن كما يكتبونها ،على عكس أهل أوربا.

=واستقل ابنه شانجة بالملك ووفد على يوسف بن يعقوب بالجزيرة الخضراء بعد مهلك أبيه يعقوب وعقد معه السلم. ثم انتقض وحاصر طريف وملكها وهلك سنة ثلاث وتسعين فولى ابنه هراندة. ثم هلك سنة اثنتى عشرة وسبعمائة فولى ابنه بطرة صغيرا وكفله عمه جران وكان نزلها جميعًا على غرناطة عند زحفهما إليها سنة ثمان عشرة وسبعمائة فولى ابنه الهنشة بن بطرة صغيرا وكفله زعماء دولتهم. ثم استبد بأمره وزحف إلى السلطان أبى الحسن وهو محاصر لطريف سنة إحدى وخمسين فهلك فى الطاعون الجارف وملك ابنه بطرة وقرابته القمط برشلونة فأجاره ملكها وزحف إليه بطرة مرارا وتغلب على كثير من أعماله". (المراجع)

(٢) ربما يشير إلى باديس بن حبوس: "ومدينة غرناطة محدثة من أيام الثوار بالأندلس وإنما كانت المدينة المقصودة البيرة فخلت وانتقل أهلها منها إلى غرناطة ومدنها وحصن أسوارها وبنى قصبتها حبوس الصنهاجى ثم خلفه ابنه باديس بن حبوس فكملت فى أيامه وعمرت إلى الآن وهى مدينة يشقها نهر يسمى حدروا وعلى جنوبها نهر الثلج المسمى شنيل ومبدؤه من جبل شلير وهو جبل الثلج" انظر" نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق"للإدريسى. (المراجع)

(٣) (يعود المؤلف هنا إلى أساطير شعبية انتشرت قديما حول غرناطة. انظر على سبيل المثال واشنطن إيرفنغ "حكايات الحمراء"، حيث يرد فيه أن حبوسًا بن باديس شيد برجًا سماه "بيت الديك" وضعت عليه صحيفة معدنية ذات محور يتحرك باتجاهات أربعة. وقد حفر عليها شكل ديك فإذا هبت عليها الريح من الشرق مثلاً اتجه الديك نحو الغرب وأخذ يطلق صوتًا يشبه صياح الديك. فيعلم أن الريح شرقية. (المراجع)

وطبقًا لبعض الآراء، فإن اسم مدينة غرناطة يرجع إلى غار عند باب باب التوابين Bibataubin_ حيث كانت تسكن لا كابا La Cava، وهى ابنة الكونت خوليان الخائن، وكان اسمها الأصلى ناطة Nata، ومن هنا أتت تسمية غرناطة Granada أى غار ناطة. وتؤكد جميع الروايات العربية أن اسم لا كابا "القحبة" قد أُطلق عليها بسبب أنها سلمت نفسها بمحض إرادتها إلى السيد رودريغو Rodrigo ملك إسبانيا، حيث إن كلمة "قحبة" تعنى فى اللغة العربية "المرأة الحُرة التصرف فى جسدها".

وفى غرناطة لا يزال هذا الاسم يتردد فى بعض النواحى، كما لا تزال ذكرى بقاء العرب – كما يؤكدون فى فحص وبرج روما إذ يؤكد المسلمون أنهم أقاموا فيها. إن منْ يحاولون تدمير إسبانيا يزعمون أن الأب والابن توفيا فى سبتة.

وتبدو من بعيد المبانى التى تطل على البحر فوق الجبال بين لاس كويخيناسLas Cuejinas وشرجيل Xarjel غرب الجزائر ويطلقون عليها قبر لا كابا المسيحية، وقد كانت معبدًا للمدينة القيصرية التى تبدو اليوم أطلالاً، وقد كانت فى أزمنة أخرى رأسًا لموريتانيا – وأُطلق عليها لهذا السبب قيصرية.

أما عن حكاية صديقة الملك ابن هود Aben hut وما اشترته على غِرار ديدوDido المنتمية لقرطاج(*) وقيامها بتسوير المدينة بجلد ثور فإن العرب أنفسهم يعتبرونها قصة خيالية.

ولكن ما يعتبرونه حقيقة بينهم ونجده فى القدم وفى كتاباتهم، هو أن اسم المدينة يرجع إلى اسم كهف أوغار يقطع هذا الجانب من المدينة ليصل إلى قرية

(*) تقول الأسطورة إن الأميرة ديدو أخت بيجماليون التى أسست مدينة قرطاج كانت قد هربت من أخيها الذى كان يطمع فى الحصول على كنز يمتلكه زوجها. أجبر بيجماليون أخته على البوح بمكان إخفاء الكنز، لكنها خدعته ودلته على مكان آخر. فى المكان الذى هربت إليه وعدوها بتخصيص مساحة جلد ثور، لكنها مزقت جلد الثور إلى قطع صغيرة جدا حتى يمكنها نثرها فى أوسع مساحة ممكنة، وهكذا كانت لها مدينة قرطاج كاملة. (المراجع)

يدعونها الفكار Alfacar ، وقد رأيته فى طفولتى مفتوحًا بوصفه مكانًا دينيًا حيث كان شيوخ هذه القرية يقومون بمعالجة أولئك الأشخاص الذين أصابهم المرض الذى يدعونه "مس الشيطان". هذا بالنسبة لاسم المدينة فى عهد المسلمين حيث نجد تعددًا فى الروايات العربية على الرغم من أنهم يرونها روايات حقيقية وصادقة.

أما عن الروايات الإسبانية، فإننا إذا طوعنا صوت الكلمة مع اللغة القشتالية فإننا ننطقهاGranada حيث تكون أفضل للنطق. وقد تسلم حبوس بن حبوس مملكة قرطبة ووضع إدريس على مُلْك أندلوثيا. بذلك ومع الاضطرابات والقلاقل التى حدثت فى المدن المجاورة بسبب حروب قشتالة التي دمرت بعض هذه المدن تم ضم المدينتين فى مدينة واحدة، وكان من العجيب أن تبلغ غرناطة شأنًا عظيمًا فى وقت قصير، وتوالى عليها الملوك حتى ابن هود الذى قام بطرد الموحدين من إسبانيا، وجعل من المرية مركزًا لمملكته. وبعد مقتل ابن هود – وبمساعدة سلطة وسلاح الملك القديس فيرناندو الثالث– اتخذ الغرناطيون من محمد الأحمر، الذى كان من قبل سيدًا على أرجونة Arjona، ملكًا عليهم واستطاع أن يستعيد مملكة غرناطة التى أخذت فى النمو حتى أنها فى عهد الملك أبو الحجاج (يوسف) Bulhaxix بلغت قمة الرخاء حيث بلغ عدد بيوت المدينة سبعين ألفًا كما يقول المسلمون. وفى أحيان كثيرة أزعجت ملوك قشتالة. ومن المشهور أن أبا الحجاج عرف سر الكيمياء [تحويل المعادن إلى ذهب]، وأنه استخدم المال فى إحاطة حى البيازين Albecin بأسوار وقام بفصله عن المدينة، وشيَّد قصر الحمراء والبُرج الذى يُطلقون عليه [قمارش]. ويُعَد قصر الحمراء مَعقلاً ملكيًا ذا شهرة، كما يبدو من شكله المعمارى. وقد قام عشرة ملوك لاحقون له بعمليات توسيع للقصر، وتوجد صورهم فى إحدى صالات القصر، وهناك واحد منهم معروف حاليًا لدى كبار السن من أهل البلد.

وقد استولى على غرناطة الملك فيرناندو والملكة إيسابيل الكاثوليكيين عام (١٩٤٢)، بعد أن قام هو ومنْ سبقه من الملوك بقهر المسلمين وطردهم من إسبانيا

فى حروب دامت ستمائة وسبعة وأربعين عاما(*) توالى فيها أربع وأربعون ملكًا وانتهت فى عهد آخر الملوك المسلمين أبو عبد الله، بعد أن تم الاستيلاء على مملكته ومدينته تمت إعادته إلى موطنه الأصلى فيما وراء البحر(*).

وقد تسلم ملكا إسبانيا مفتاح المدينة رمزًا لسيادتهم عليها – كما هو متبع فى إسبانيا– ودخلوا قصر الحمراء حيث عينوا كونت تنديا إنييغو لوبيث دى مندوثا Iñigo López de Mendoza عُمدة للمدينة وقائدًا عامًا، وهو رجل ذو حكمة فى الأمور الكبيرة، صاحب عزم وهمة ثابتة، يستند إلى خبرة طويلة فى المعارك والحروب والانتصارات والأماكن المتعددة التى دافع عنها ضد المسلمين فى حرب غرناطة. وقام الملكان باختبار الراهب فيرناندو دى تالابيرا Fernando de Talavera أسقفًا للمدينة، وكان رجل دين ينتمى إلى طائفة القديس خيرونيمو San Hieronimo ، وقد جعلت إسبانيا من حياته مثلاً أعلى يُحتفى به. وهناك ممنْ يعيشون فى وقتنا هذا ممنْ هم شاهد على المعجزات التى تمت على يديه. وقد قام ملكا إسبانيا الكاثوليكيان بتزويد كل من عُمدة المدينة وأسقفها بالرجال ذوى الكفاءة والقادرين على تأسيس جمهورية(**) جيدة لتكون رأس حربة ودرعًا للملكة للدفاع عنها ضد مسلمى إفريقيا الذين قاموا بغزو إسبانيا فى عهود سابقة.

لكن هذه الترتيبات المتعددة لم تكن كافية لمنع المسلمين – الذين كانوا ثائرين فى داخلهم ويشعرون بالهوان– من أن يقوموا بثورات فى البيازين لخوفهم من أن يُطردوا من القانون والدولة فقام الملكان الكاثوليكيان بإرسال الراهب فرانثيسكو

(*) هذه الرؤية – التى تعتبر أبا عبد الله عربيًا من شمال إفريقيا – يعارضها آخرون من بينهم أنطونيو غالا الذى يقول على لسان أبى عبد الله فى المخطوطات الحمراء "إننى أندلسى أبا عن جد، وسأموت فى الأندلس ". (المراجع)

(**) كثيرًا ما يستخدم لفظ "جمهورية" ويقصد به "حكومة". (المراجع)

(***) لم تكن فترة الوجود الإسلامى فى إسبانيا كلها حروب، بل كانت هناك فترات تعايش سلمى بين الممالك الإسلامية فى الجنوب والممالك المسيحية فى الشمال ، ولم تنشأ كل الحروب لأسباب دينية بل كان معظمها لأسباب توسعية. (المراجع)

خيمينيث Francisco Jiménez، وكان كاردينال مدينة طليطلة، لإقناع المسلمين باعتناق المسيحية رغبة فى أن تكون مملكة إسبانيا بأكملها مملكة مسيحية. وعلى الرغم من ذلك فإن المسلمين وهم شديدو التمسك برأيهم، وعنيدون وحديثو العهد بالغزو- لم يستسلموا لذلك. وتم الاتفاق على أن يتحول المرتدون عن دين المسيحية وأبناؤهم إلى ديانتنا بينما يبقى الآخرون على ملتهم التى كانوا يتبعونها فى ذلك الوقت. وحتى هذا الاتفاق لم يتم الالتزام به إلى أن تولى حاجب فى البيازين يُدعى باريونويبو وقبض على أخوين من المرتدين إلى المسيحية فى بيت أمهما، فثار أهل البلدة وأخذوا أسلحتهم وقتلوا الحاجب وامتلأت بهم الشوارع التى تؤدى إلى المدينة، واختاروا أربعين رجلاً منهم ليكونوا حكامًا عليهم كما هى العادة فى الأمور الطارئة. وصعد كونت تنديا إلى البيازين، وعندما قام الأهالى بمقاومته ورميه بالحجارة – وهو أمر شائع بينهم كشكل من أشكال التحلل من العهد – عاد إليهم مرة أخرى فاستقبلوه. وفى نهاية الأمر دخلوا فى طاعة ملكى إسبانيا اللذين قضيا بأن يحتفظ بأملاكه كل من ظل مسيحيًا فى أرضه على أن يحتفظ بعاداته ولغته، وعلى أن لا يتم تفعيل محاكم التفتيش إلى زمن محدد، وأن يدفعوا الضرائب عن تأمينهم وحمايتهم. ترك الكونت أبناءه رهائن لأهل البيازين، وبعد ذلك خرج الزعماء الأربعون وأشعلوا نار الثورة فى غويخارGuejar ولانخارون Lanjaron وأنداراكس Andrax، وأخيرًا فى سييرا بيرميخا Sierra Bermija التى اشتهرت بسبب مقتل السيد ألونسو دى أغيلارAlonso de Aguilar بها، وهو واحد من قادة إسبانيا الشهيرين بمكانته ونسبه.

قام كونت تنديا بتهدئة وإخماد الثورة فى البيازين، ودخل غيخار حيث استولى على جزء منها بالقوة والجزء الآخر استسلم بدون شروط، وقام بقتل الأهالى وكل منْ حاول الدفاع عن البلدة. وفى أثناء ذلك، يُقال إنه حتى لا يذهب إلى سييرا بيرميخا- التى كانت تحت حكم أخيه- ألونسو أغيلار حيث كانت بينهما منافسة- قام غونثالو فيرناندو دى كوردوبا Gonzalo Fernando de Córdoba

-الذى كان يعيش فى لوخا ويزدريه الملكان الكاثوليكيان- بخدمة الملك حيث دخل بالقوة فى الحى السفلى، وبذلك شقً الطريق للحصول على لقب القائد العظيم والذى حظى به شخصيتان فقط على مدار قرون طويلة أولهما كان من بين اليونانيين وهو أندرونيكو Andrónico Contestefana وقت سقوط الإمبراطورية فى عهد الأباطرة كومنينوس Comnenos حيث قام بالدفاع عنها وإعادتها، وكان أطلق عليه لقب ميغادوكا، وهو لفظ جمع بين اليونانية واللاتينية. والثانى هو غونثالو فيرنانديث Gonzalo Fernández، وقد نال شهرة بين الإسبان واللاتينيين بسبب المجد وبسبب الكثير من انتصاراته التى تعيش وستعيش فى ذاكرة العالم. ومن بين الموجودين فى ذلك الحين ألاركون Alarcón الذى لم يكن يعد للحرب، وأنطونيو دى ليبا Antonio de Leiva – وهو شاب من ضباط فرقة والده خوان دى ليبا Juan de Leiva وكان خليفة للكثير من القادة الشهيرين فى لومبارديا وهو لا يقل عن أى منهم من حيث الانتصارات التى حققها.

وقد أدى وجود الملكين الكاثوليكيين إلى إنهاء هذه الثورات، ولكن كان هناك حنق على سيرا بيرميخا بسبب مقتل السيد ألونسو دى أغيلار الذى مات بعد أن تم الاستيلاء عليها، فبعد أن هزم المسلمين كان مضطرًا للبقاء فى المدينة فى ظلمة الليل حيث فاجأه الأعداء وهاجموا طليعته. وهكذا قُتِلَ السيد ألونسو وهو يحارب ونجا ابنه السيد بدرو، وخرج كونت أورينيا فارسًا شهمًا ونتج عن ذلك حرية الإسبان وتأليف عدة أغنيات شعبية.

وبعد أن هدأت هذه الثورة -بناء على اتفاقية- شرع الملكان الكاثوليكيان فى إصلاح وتحسين مدينة غرناطة من الناحية الدينية والسياسية والعمرانية، فقاموا بتعميد المسلمين وأنشأوا المحكمة وبعد عدة سنوات جاءت محكمة التفتيش.

كان حكم الشعب فى المدينة والمملكة بأكملها يأخذ طابع الصداقة بين الحاكم والمحكومين، ولكن العدالة كانت تأخذ طابعًا تعسفيًا. كانت الأفكار موحدة والقرارات موجهة بصفة عامة إلى مصلحة الشعب ولكن ذلك أنهى حياة السكان

القدامى. بدأت الغيرة والانقسام فى الظهور بسبب أمور تافهة بين قضاة العدل وقادة الحرب، وبدأت تلك الخلافات تظهر فى وثائق تنص على منح بعض الامتيازات، وبدأ طمع الطرف الأول فى أن لا يتم تعامل على حد المساواة وطمع الطرف الثانى فى الاحتفاظ بالسيادة. وقد استمرت الخلافات – وبدت غير ظاهرة تتسم بالوفاق الزائف –فى عهد السيد لويس أورتادو دى مندوثا، ابن السيد انييغو، وهو رجل معتدل ذو خبرة ورابط الجأش، فلما تولى غيره من الحُكّام على غرناطة، تميز خطابهم بالليونة والإنسانية وبدأ يتقلص الطابع العسكرى للحاكم حيث أصبح يرتكز على الشرعية والحق.

حدثت أشياء تجمعت وتفاقمت وأثارت حقد منْ هم أقل شأنًا، واستنكرها منْ هم على القدر نفسه من السلطة. وقد تعددت القضايا ووصل الأمر إلى طلب قُضاة مختصين بقضايا تحديد وتقسيم الأراضى، لا من أجل التقسيم الفعلى أو تحديد مصير هذه الأراضى، وإلى منْ ستؤول– كما فعل الرومان وأسلافنا– ولكن بهدف سلب ميراث بعض الأشخاص ومحاولة أن يقوموا بإرجاع ما يمتلكونه إلى الملك أو إلى الشعب، وقد كان ذلك أحد أسباب تدمير غرناطة – وهو أمر شائع الحدوث فى الكثير من الأمم – حيث إن المسيحيين الجدد وهم قوم بلا مدافع ولا حظوة وجدوا أملاكهم التى طالما كانت فى حوزتهم وما اشتروه أو ورثوه عن أسلافهم قد تمت مصادرته وسُلِبَ منهم أو تم تقسيمه دون الرجوع إليهم. وقد أضيفت إلى تلك العوائق والتقسيمات عوائق أخرى ذات أهمية كبرى نجمت عن مبادئ شريفة.

وقد وضع الملكان الكاثوليكيان مهمة القضاء والخدمات العامة فى أيدى المحامين وهى طبقة وسط بين علية القوم وصغار الناس، وكانت مهمتهم هى الآداب القانونية والاعتدال والسرية والحق والحياة السوية بعيدًا عن العادات الفاسدة، فليس هناك زيارات أو قبول هبات أو دعوات، ولا تكوين صداقات وثيقة على حساب مهامهم. لا يُسمح لهم بارتداء الملابس الفخمة أو الإنفاق ببذخ. ولديهم مرونة إنسانية عند التعامل مع الآخرين، وكانت تخصص لهم ساعات محددة

لسماع القضايا والفصل فيها، بهدف تحقيق الصالح العام. وكان يتولى رئاسة القُضاة شخص يُطلق عليه لقب "رئيس" لأنه يباشر ما يتم التعامل معه من قضايا ويأمر بما ينبغى عمله ويمنع أى فوضى وليس لأن له سلطة عليهم. كان ذلك هو أسلوب الحكم فى البلاد – وكان حينئذٍ يتم بجدية نجدها قلت فى أيامنا الحالية– وامتد إلى جميع البقاع المسيحية حتى بلغ ذروته فى القوة والسلطة. وكان فى الغالب هو المنهج فى الحياة العامة على الرغم من وجود بعض الحالات التى تحيد عنه فى حياتها الخاصة. وكان يطلق على أكبر مؤسسة حكومية اسم المجلس الملكى، وفيما عدا ذلك اسم أمانة الدولة أو المحكمة chancillería وتعددت الأسماء فى إسبانيا طبقًا للأقاليم المختلفة. فمثلاً كانوا يطلقون على القائمين بالشئون المدنية فى قشتالة اسم "المستمعين"، وعلى منْ يقوم على القضايا الجنائية اسم "العمدة" [وهم يخضعون بشكل ما "للمستمعين"]. وكانت الغالبية العُظمى من هؤلاء وأولئك تطمح فى وظائف أخرى بعيدة عن تخصصهم، وبصفة خاصة فى الوظائف العسكرية. وكانت لديهم ثقة عالية فى مواهبهم – التى كانوا يرون أنها قدرية وإنسانية– وفى أن هذه الوظائف هى علم ما هو عدل وما هو ظلم – لذا فهم يميلون بصفة خاصة إلى أن يصلوا إلى هذه المناصب العالية لما تمنحه من سلطة تُستَغَل للقيام بأمور غير لائقة هى جذور لمشكلات نراها اليوم. وفى مجال الحرب هناك بعض المواقف التى تبدو لمنْ ليس لديهم حنكة وكأنها ليس لها أهمية، وعندما يحاولون إصلاحها فإنهم يجدون العقبات والتعقيدات التى لا يمكن حلها على الرغم من أنها فى غير وقت الحرب من الممكن أن تُرى بطريقة أخرى.

تمادى القائد العام فى منصبه بلا إنصاف، وحاول مسئولو العدل تقويمه. وقد أدت هذه المنافسات إلى كثرة الشكاوى والتظلمات التى رُفِعَت إلى الملك. وقد ملَّ الملك ومستشاروه من الشكاوى حتى أن تتبعها أصبح متعددًا، أو انعدم تمامًا فانعدمت مع الوقت الثقة فيهم، فللوصول إلى حكم عادل فى تلك القضايا كان من الواضح أن هناك حاجة للتعقل أو الصبر.

إن كل ما قيل حتى الآن كمثال ونموذج لقضايا خطيرة، إنما هو بهدف توضيح كيف أن صغائر الأمور من الممكن أن تؤدى إلى أحداث ذات أهمية كُبرى وإلى حروب ومجاعات وقتل الكثيرين ودمار دول وأحياناً القضاء على زعماء هذه الدول. إن العناية الإلهية منتبهة لحكم العالم وأجزائه بمنظومة من المبادئ والأمور التى تبدو بسيطة لكن إدراكها يتزايد مع تقدم العمر إذا ما أراد الإنسان أن يبحث عنها باهتمام.

كانت هناك فى مملكة غرناطة عادة قديمة – كما هو الحال فى مناطق أخرى– وهى أن مرتكبى الجرائم يكونون آمنين إذا ما ظلوا فى مناطق سيادة. وهو شىء عندما يُنظر إليه كلية نجد أنه يعطى الفرصة لمزيد من الجرائم، ويساند المجرمين فيحول دون تحقيق العدل ويعوق سلطة المسئولين القائمين على تحقيق العدل، وبسبب هذه المشاكل، وأسوة ببلاد أخرى بدا لهم إصدار أوامر بأن لا يحمى السادة أناسًا من هذا القبيل فى أراضيهم، إيماناً منهم أن العدل ينبغى أن يأخذ مجراه فيتم معاقبة هؤلاء الأشخاص أينما ذهبوا. وقد ظل هؤلاء الأشخاص محتفظين بأشغالهم فى تلك الأماكن، كانوا يتزوجون ويقومون بحرث الأراضى ويمارسون حياة هادئة. أيضًا تم حرمانهم من حصانة الكنيسة فيما يزيد عن ثلاثة أيام. إلا أن حرمانهم من أماكن إيوائهم أدى إلى فقدانهم الأمل فى حياة آمنة وانتقلوا إلى السكن فى الجبال ليعيشوا حياة شاقة، فقاموا بقطع الطرق والسرقة والقتل. بعد ذلك كان هناك اختلاف حول تحديد المحكمة التى يجب أن يتم محاكمتهم فيها بسبب التنافس فى الاختصاصات وعلى الرغم من أن القادة – بمنْ فيهم القائد العام – اعتادوا أن يوقعوا مثل هذه العقوبات كجزء من أعمال الحرب فإنهم استولوا على سلطة المحكمة ووضعوها فى أيدى العمد. وقد قاموا باستئجار بعض الأشخاص الذين تم نشرهم شيئًا فشيئًا وأطلقوا عليهم اسم "الفرقة" لكنهم لم يكونوا كثرة فيضمنوا الأمن للبلاد، ولا أقوياء يستطيعون المقاومة، وقد أدى ضعف الاحتياطات الأمنية وقلة خبرة المسئولين عن شئون الحرب إلى الإهمال الذى كان نهج كل منْ لا يستطيع

بلوغ هدفه. وقد تسبب كل ذلك فى زيادة اللصوص وقُطَّاع الطُرق، وكان يُطلق عليهم باللغة الموريسكية منفيين[٤] monfies وكان عددهم كبيرًا، وصعب مع ذلك القضاء عليهم بأى شكل من أشكال القوة. وشكّل هؤلاء الشُعلة الأولى للحروب التى علقوا عليها آمالهم وأهدافهم للتخلص مما أصابهم من ذلة وهوان.

ولقد بدا كل ذلك فى الغالب أمرًا مخزيًا ولكن حكمة البشر أو العناية الإلهية (وهو الأصوب) أن الشر لم يتحول إلى الأسوأ، وأن تظل هذه الممالك مؤمنة وتنجو من الحرب إذا ما أرادت ذلك وقد توالت فيما بعد مصائبهم فى الدين وفى أوجه الحياة المختلفة سواء فى المطالب الأساسية أو غير الأساسية، وهو أمر اعتادته هذه الأمة بصورة تفوق الحد، حيث بدأت محاكم التفتيش فى الضغط على الموريسكيين بشكلٍ غير عادى.

وقد أمرهم الملك بأن يكفوا عن استخدام اللغة الموريسكية، وبذلك فقدوا التعامل والاتصال فيما بينهم، كما منعهم من الانتفاع بخدمة العبيد السُود، فقضى على أملهم فى أن ينجب لهم هؤلاء أبناء، وحظر عليهم اللباس الموريسكى، الذى كان يكلفهم أموالاً كثيرة، وأجبرهم على التحدث باللغة القشتالية مهما كلفهم ذلك من عناء، وألزموا النساء أن تكشف وجوههن، وأن تُفتح أبواب البيوت، بعد أن جرت العادة على إغلاقها، مما خلق جوًا من المعاناة الشديدة فى أوساط الناس الغيورة. وقد سرت شائعة أنهم كانوا سيأخذون أبناء الموريسكيين ويرسلونهم إلى قشتالة، كما قاموا بحظر استخدام الحمامات والتى كانت تشكل بالنسبة لهم وسيلة مهمة للنظافة والترفيه. كما منعوهم من الموسيقى والأغانى وإقامة الأعياد واحتفالات الزواج الخاصة بهم، كما حرموهم من الاجتماعات التى كانوا ينظمونها للترفيه وشغل أوقات الفراغ.

---

(٤) كلمة monfies تترجم هكذا "منفيون"، "رجال الجبل"، "قاطعو طريق" وكلها ترجمات صالحة. (المراجع)

وقد أتت هذه الأوامر فجأة وجملة واحدة دون أن يتم التمهيد لها بتفعيل وتشديد قوانين قديمة أو إصدار أوامر أخرى جديدة والموافقة عليها. وعلى الرغم من أنه تم تحذير الموريسكيين من قبل بما سيحدث لهم فإن الأمر أثار ضيقهم لدرجة أنهم فكروا فى الانتقام أكثر من تفكيرهم فى محاولة معالجة ما يحدث. ومنذ سنوات مضت حاول الموريسكيون تسليم مملكة غرناطة لأمراء البربر أو إلى الأتراك، ولكن لصعوبة هذا الشأن وقلة الأسلحة والمؤن والسفن الحربية وعدم وجود المكان الحصين الذى يمكن أن يتخذوه معقلاً لهم بسبب هيمنة وقوة كل من الإمبراطور وابنه الملك فيليبى فإن آمالهم قد كبحت واستحالت الحلول، خاصة أن معاقلنا كانت لا تزال راسخة فى سواحل إفريقيا، ولأن القوات التركية كانت بعيدة وقوات القراصنة فى الجزائر كانت أكثر انشغالاً بأمور ومنافع شخصية أكثر من مسألة السيطرة والاستيلاء على أراض جديدة، لذلك فقد أخرتهم هذه الصعاب عن تنفيذ خططهم وأبعدتهم عن أهل مدينة فالنسيا الذين تميزوا بوضع أفضل وكانوا أكثر تسليحا(*). وخلاصة القول، فإنه مع اتساع أراضينا من جهة وازدياد تجاوزات أعدائنا من جهة أخرى لدرجة صَعُبَ معها محاكمتهم قانونيًا أو مطاردتهم بواسطة رجال القائد العام الذين أصبحوا قلة، بدأ الشك والقلق حول إمكانية توجيه الموريسكيين قواهم لمخططات سرية على الرغم من ضعف هذه القوى للقيام بتنفيذ هذه المخططات. وقد أدرك المسيحيون القدامى هذه الحقيقة فتوقفت التجارة وتوقف الاتصال بين غرناطة والسواحل: كانت الأمور يسودها الاضطراب والقلق والخوف دون أى وسيلة لتهدئة الموقف أو توقع ما يمكن حدوثه أو حتى وقوع ما يُخشى منه.

(*) هذا يؤيد وجهة نظر ماركيث بيانويبا التى ترى عدم وجود خطر تركى حقيقى على إسبانيا. انظر كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن. المشروع القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٥. (المراجع)

وعندما أدرك الموريسكيون ما نمر به وخشوا أن نواجههم باستعدادات أكبر، قررت بعض الشخصيات البارزة فيهم التجمع عند كاديار Cadiar - وهو مكان بين غرناطة والبحر ونهر المرية عند مدخل البشرات- وأخذوا يبحثون متى وكيف يهاجمون المدينة، وما هى الوسيلة إلى ذلك وكيفية التنفيذ، واتفقوا على أن يكون ذلك فى عز الشتاء حتى يتيح لهم الوقت -حيث يطول الليل فى ذلك الفصل من العام- الخروج من الجبال والوصول إلى غرناطة ثم العودة مرة أخرى سالمين بينما تكون سفننا راكدة وموزعة فى المشاتى بلا أسلحة. خططوا لليلة عيد الميلاد حين يكون جميع الناس من مختلف القرى فى الكنائس، وحيث تخلو المنازل ويكون الناس مشغولين بالصلوات والذبائح، أى على حين غفلة من أمرهم، عُزّل من الأسلحة مضطربين بسبب برودة الجو، منشغلين بالعبادة فيكون من السهل الإغارة عليهم من قبل أشخاص يقظة ومسلحة وسريعة ومعتادة على القيام بمثل هذه الاعتداءات. اتفقوا على أن ينضم أربعة آلاف رجل من البشرات إلى غيرهم من البيازين لمهاجمة المدينة وقصر الحمراء، بعضهم عن طريق الأبواب وبعضهم عن طريق استخدام السلالم escalas، وكانوا يعلمون بضعف قوة الحماية على تلك الأماكن، فهى قلعة تحكمها السُلطة صوريًا ولكنها تفتقر إلى القوة. ولإدراكهم أنَّ بإمكانهم الاستفادة من مدفعية قصر الحمراء اتفقوا على أن يفهم موريسكيو الغوطة عندما يرون إطلاق النار من أول مدفعين أنها علامة على ضرورة الذهاب فى وقت محدد إلى أبواب المدينة وتحطيمها ليدخلوا منها، ومن ثمَّ ينتشرون فى الشوارع بالحديد والنار دون رحمة ليُلحقوا الدمار الشامل بكل ما فى المدينة.

كان من الصعب إبلاغ أمر هذه المؤامرة بين الأعداد الكبيرة للموريسكيين دون أن يعلم بها المسيحيون. ويبدو أن الإبلاغ تم على هذا المنوال: قام المتزوجون بتبليغ أناس متزوجين، والأرامل بتبليغ الأرامل، والشُبان بنقل الخبر إلى أمثالهم من الشباب، وكان ذلك يتم بكياسة شديدة باختيار الأمناء ومنْ هم قادرون على كتمان الأسرار. ومنذ عدة سنوات كان الموريسكيون قد أرسلوا فى طلب المساعدة إلى

جهات عدة، ليس فحسب إلى أمراء البربر، ولكن أيضًا إلى إمبراطور الأتراك فى القسطنطينية(*) حتى يغيثهم وينقذهم من حياة الاستعباد(**) التى يحيونها. وفيما بعد طلبوا من ملك الجزائر إمدادهم بالأسلحة من الشرق والغرب، حيث إن افتقارهم إلى القادة والرؤساء والموانع الحصينة والأشخاص الماهرة والأسلحة جعلهم غير قادرين على تحقيق مخططهم الكبير بمفردهم. بالإضافة إلى ذلك، فقد أزمعوا تزويد أنفسهم بالمؤن واختيار مكان فى الجبل للحفاظ عليها، كما قرروا صنع الأسلحة وإصلاح الأسلحة القديمة التى كانوا يخفونها منذ وقت طويل، وشراء أسلحة أخرى جديدة وإبلاغ ملوك الجزائر، وفاس، وسيد تطوان(***) مجددًا بمخططهم وترتيباتهم. وقد قاموا بالاتفاق فيما بينهم على كل ذلك؛ نظرًا لأنهم كانوا يعيشون في تفكير دائم في المكاسب والثروات وتوافر الأشياء الأساسية والعيش دائمًا تحت ظل حكم عادل ومُنصف.

وبعد أيام قليلة اجتمعوا مرة أخرى فى تشوريانا Churriana خارج غرناطة مع الشخصيات المهمة فى البيازين لمناقشة نفس القضية. وكانوا قد منعوهم – كما ذكرنا من قبل – من التجمعات فى أعداد كبيرة، ولكن لما كان خوف الملك والأسقف من الرب أكثر من خوفهما من الخطر الذى يمكن أن ينجم نتيجة لهذه التجمعات فقد أذن لهم ببناء مستشفى خاص بهم، وإنشاء جمعية دينية للمسيحيين الجُدد وأطلقوا عليها اسم "القيامة" [يُقال إن كلمة Cofradía فى الإسبانية تعنى جمعية تهدف إلى التعاون على القيام بأعمال دينية وخيرية]. وفى أيام محددة كانوا يحضرون إلى المستشفى ليتواروا عن أعين الناس – تحت

(*) حول المراسلات بين الموريسكيين والدولة العثمانية انظر كتاب د. عبدالجليل التميمى "الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين الأندلسيين"، متبعم، زغوان،١٩٨٩. (المراجع)

(**) لاحظ أن مندوثا يعترف بأن وضع الموريسكيين كان يدعو للثورة. (المراجع)

(***) كان "سيد تطوان" حتى عام ١٥٤٠ غرناطيا وهو أبوعلى المنظرى الذى أعاد تأسيس المدينة. انظر كتاب "المنظرى الغرناطى مؤسس تطوان" تأليف غوثاليس بوستو، ترجمة ممدوح البستاوى، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المركز القومى للترجمة، القاهرة، ٢٠٠٧. (المراجع)

هذا الغطاء – فى أمر الثورة التى يعتزمون القيام بها. وللتأكد من قوتهم أرسلوا أشخاصا لنقل هذه الأخبار إلى جميع أنحاء المملكة، فكان أولئك الأشخاص يتظاهرون بأنهم يطلبون صدقة ليتعرفوا على جميع المناطق التى يمكن أن يجدوا فيها مأوى لهم حيث يتقابلون مع أعدائنا ويحضرونهم من أقصر الطرق وأكثرها سرية وأمانًا وإمدادًا بالقوت. وقد طلبوا من الأعداء بعض المساهمات وأن يحتسبوها من الصدقات، على أن يسهم منْ هم بين الأربعة وعشرين والأربعين عامًا بصورة مختلفة عن الشيوخ والنساء والأطفال وغير القادرين. وبهذا الدهاء تمكنوا من معرفة عدد الأشخاص الذين يمكنهم التسلح وأولئك الذين لديهم أسلحة فى أنحاء المملكة.

أعطت هذه الأحداث – بالإضافة إلى الجرائم التى كان يرتكبها رجال الجبل والتى كانت شائعة وخطيرة وكثيرة الحدوث – الفرصة لكل من ماركيز مونديخار وابنه[°] كونت تنديا (التى أسندت إليه شئون الحرب) والسيد بدرو دى ديثا رئيس أمانة الدولة أو المحكمة (والذى كان قد مرَّ بجميع وظائفها من قبل، وكان ماهرًا فيها) ورئيس الأساقفة وقُضاة محاكم التفتيش، لكى يأخذوا حذرهم واحتياطاتهم لكشف خُطط هؤلاء الرجال وتأمين جزء من أراضيهم بما يملكونه من عدة وطلب كل منهم– حسب وظيفته– قوات ضخمة لتحقيق العدل وقمع ما أسموه بـــ"غطرسة" هؤلاء القوم حيث كانوا لا يزالون يجهلون ما يرمى الموريسكيون إلى فعله.

وعندما وصل ماركيز مونديخار إلى مدريد أبلغ الملك بصفة خاصة. أخذ الماركيز فى الاهتمام بهذا الأمر وشكَّل لجنة لتوسيع عمليات الحراسة فى المملكة فى الأماكن التى تفتقر إليها، بالإضافة إلى الأماكن التى كانت الحماية فيها كافية والأماكن الأخرى التى كان يتوافر فيها عدد الحُراس لمواجهة المسلمين البربر من ناحية البحر.

(°) اسم لماركيز مونديخار الثالث هو الذى سيتم ذكره من الآن فصاعدا؛ وكان يُدعى دون إنييغو، وكان نائبا للملك فى مدينتى فالنسيا ونابولى وهو ابن اخى الكاتب. (المؤلف)

غير أن الأشخاص المسؤولين عن الإعداد للمقاومة علي الرغم من تصديقهم هذه التحذيرات فإنهم سواء بسبب ضجرهم من كثرتها أو حكمهم على منْ يُصدرون هذه التحذيرات بأنهم يرمون إلى طموحات شخصية بغية الاهتمام بهذا الأمر، قاموا بتأهب متواضع، تمكن فحسب من تقليل أعراض هذا المرض وليس فى علاجه تمامًا كما يفعل الدواء الضعيف المفعول فى الأبدان الممتلئة.

لذا فإن رجال الجبل ورؤساء المؤامرة، عندما رأوا الترتيبات التى يقوم بها الوزراء من أجل الوقوف حيال هذه المؤامرة، بالإضافة إلى خشيتهم من أن يتم كشفهم وضعف قواتنا القليلة؛ دفعهم ذلك إلى أن يزمعوا القيام بمخططهم بدون انتظار المساعدة واكتفوا بإبلاغ البربر بما وصلت إليه الأمور، وقاموا بطلب المزيد من المحاربين والأسلحة مع الأسطول واتفقوا على أن تكون كلمة السر بينهم أن تضع السفن القادمة من الجزائر وتطوان شراعًا ملونًا، وأن تتجه السفن القادمة من تطوان إلى ساحل ماربيا من أجل تحفيز الأهالى فى جبال روندة ومالقة، أما السفن القادمة من الجزائر فعليها الاتجاه إلى رأس دى غاتا De Gata – والتى كان يُطلق عليها الرومان "تل كاريديمو" – وذلك لمساندة البشرات ومناطق المرية والمنصورة وإثارة همم الأهالى فى المناطق المجاورة فى مملكة فالنسيا. وقد بقى هؤلاء الأهالى على موقفهم كأنما كان فى أذهان الشيوخ دائمًا ذكرى حادثة سلاسل إسبادان الجبلية فى عهد الإمبراطور كارلوس، أو لأنهم كانوا يرون أنها مؤامرة غير مُحكمة يصعب تنفيذها فأرادوا الانتظار ليروا كيف سيتم تحرك الجميع، وبأية قوة، وعلى أى أساس بنوا آمالهم على شمال إفريقيا. قاموا بإرسال شخص يدعى البرتال el Paratal إلى الجزائر، وكان يعيش فى ناريلة التابعة لكاديار. كان رجلاً غنيًا ونشيطًا وعاقلاً، وعندما ذهب إلى شمال إفريقيا حمل معه أملاكه واثنين من إخوته وأقام فى الجزائر. وقد كان كل من بارتال والشنيث – الذى قام فيما بعد بخيانة سيده ابن عبو وقتله Abenabo بعد أن تم تنصيبه ملكًا ثانيًا – نائبين عن البشرات بأكملها فى هذا المخطط ولكى يختاروا رئيسًا لهم يلتفوا حوله بدلاً من أن

يركنوا إلى منْ يمكن أن يقوم ملك الجزائر باختياره. اتفقوا فى السابع والعشرين من سبتمبر من عام ١٥٦٨، على اختيار ملك لهم مقتنعين برأى السيد فيرناندو دى بالور الصغير Fernando de Valor الذى كانوا يُطلقون عليه أيضًا ابن جوهر Aben Jauhar، وهو رجل ذو سُلطة كبيرة ومشورة ناضجة له خبرته فى أمور المملكة وقوانينها. عندما رأى فيرناندو دى بالور أن الأمور قد تفاقمت وأصبحت تدعو إلى الخوف وطال احتمالها وتعددت المظالم وتبدلت الأحوال، جمع أهالى البشرات فى بيت ثينثان Zinzan فى البيازين وقال لهم:

« لقد تعرضتم لضغوط وأصبحتم تحت رحمة العامة والخاصة، وصرتم لا تقلون شيئًا عن العبيد. لقد أصبحت النساء والأبناء والممتلكات وأنتم أنفسكم فى أيدى وتصرف الأعداء، ولم يعد هناك أمل فى الخلاص من هذه العبودية على مدى قرون، وقد قاسيتم من الطُغاة وهم جيرانكم ومن التكليفات الجديدة والضرائب وحُرمتم من حق اللجوء إلى مناطق السيادة(*) التى يكون فيها المذنبون آمنين من الحوادث أو من الانتقام، وطُردتم من حصانة الكنائس وخيراتها على الرغم من أنهم كانوا يكلفونكم بحضور الصلوات وإلا عوقبتم بغرامات مالية، وكنتم سببًا فى ثراء القساوسة، ولم يكن لكم مأوى من أصحاب أى دين أو من أى شخص، وعاملكم المسيحيون كمسلمين فاحتقروكم، وعاملكم المسلمون وكأنكم من المسيحيين فلم يصدقوكم ولم يساعدوكم.

وقد تم استبعادنا من نواحى الحياة ومن الكلام؛ فقد منعونا من أن نتحدث لغتنا ونحن لا نفهم الإسبانية. تُرى: فى أى لغة يمكننا التفاهم وأن نأخذ ونعطى دون أن تستحيل معاملتنا مع الناس؟ إن الحيوانات أنفُسها ليس هناك منْ يمنعها من أن تتكلم فيما بينها مثل البشر. منْ الذى زعم أن منْ يتحدث الإسبانية لا يمكنه أن يكون مسلمًا، أو منْ يتحدث اللغة الموريسكية لا يمكنه أن يكون مسيحيًا؟ إنهم

(*) يرى خوليو كارو باروخا أن حرمان الموريسكيين من اللجوء الى مناطق السيادة التابعة للإقطاعيين للاحتماء بها كان سببا منطقيا للثورة إذ لم يعد لدى الموريسكيين شىء يفقدونه. (المراجع)

يدعون أبناءنا لاجتماعاتهم الدينية وأماكن تعلمهم ويعلمونهم فنوناً حرمها أجدادنا حتى لا يختلط إيمانهم وتصيبهم البدع التى تفسد عليهم دينهم. إنهم يهددوننا فى كل ساعة أن ينزعوا أبناءنا من أحضان أمهاتهم، ورعاية آبائهم ليأخذوهم إلى مناطق أخرى، حيث يمحون من ذاكرتهم أسلوب حياتنا ويتعلمون كيف يعادون آباءهم الذين كانوا سببًا فى وجودهم فى هذه الحياة وأمهاتهم اللائى ولدنهم.

إنهم يفرضون علينا أن نترك لباسنا وأن نرتدى اللباس القشتالى بدلاً منه. الألمان يلبسون على طريقتهم، وكذلك الفرنسيون واليونانيون والرُهبان والشّبان والشيوخ؛ فكل أمة وكل مهنة ولها زيها المناسب، وفى النهاية كلهم مسيحيون، أما نحن فلأن لنا زيا موريسكيا فنحن مسلمون مُحتَقَرون كما لو كان الدين محله الزى الذى نرتديه وليس القلوب.

أموالنا لا تكفى لشراء ملابس لسادة البيوت والعائلات، ولا نستطيع أن نقتنى ملابس موريسكية، فليس هناك منْ سيشترى شيئًا هو ممنوع من ارتدائه ، ولا جدوى من التجارة فى أشياء لا تُستَخدم. من أين لنا بنفقات المعيشة إذا ما تم منعنا من ارتداء ملابس من عندنا، وإذا تعيَّن علينا أن نشترى ملابس أخرى؛ وإذا أردنا التسول فلن يتصدق علينا أحد كما يتصدق على الفقراء، ولن يساعدنا أيضًا منْ يعتبروننا من الفقراء. إننا نحن الموريسكيين نعانى من الفاقة، فالمسيحيون لا يعتبروننا إخوة لهم.

لقد عانى أجدادنا من الفقر بسبب حروبهم مع مملكة قشتالة، فعندما زوَّج عُمدة لوشة ابنته لقائدٍ عظيم وشهير يُدعى العطار Altar قام باستعارة الملابس من أجل إقامة العُرْس.

إننى أتساءل: بأية أموال أو بأية سلعة أو بأية حيلة أو فى أى وقت يمكن أن نصنع فيه ثروات من أجل أن نتخلى عن ملابسنا ونستطيع أن نشترى ملابس أخرى؟!. لقد منعونا من تجارة العبيد السُود -حيث إنه لم يكن مسموحًا بتجارة

العبيد من ذوى الجنس الأبيض لأنهم كانوا من أمتنا- بعد أن قمنا بشرائهم وتربيتهم والتكفل بهم. إنها لخسارة فادحة تُضاف إلى الخسائر الأخرى التى مُنينا بها. ماذا يفعل منْ ليس لديهم أبناء يقومون على خدمتهم أو منْ ليس لديهم أموال تمكنهم من اتخاذ خدم لهم؟ ماذا يصنعون إذا أصابهم المرض أو العجز سوى أن يكمنوا فى انتظار الموت؟! لقد كانت نساؤنا وبناتنا يغطين وجوههن إذا ما خرجن لقضاء بعض الشؤون ولإحضار مستلزماتهن التى يحتاجونها إلى بيوتهن، أمروهنَّ بكشف وجوههن، مما سيؤدى إلى طمع الرجال فيهن وستتكشف الوقحات اللاتى يقمن باستثارة غرائز الشباب والشيوخ الفاجرين. إنهم يلزموننا بترك أبواب منازلنا مفتوحة وهى التى كان آباؤنا – وهم شديدو الإيمان- يحرصون على إغلاقها؛ بل وإغلاق النوافذ وكل منفذ صغير للبيوت. هل يتعيّن علينا أن نكون هدفًا للصوص والسَحَرة وللزناة الفاجرين؟، وكيف يكون لهؤلاء أيام وأوقات يستطيعون فيها النيل منا عندما يعلمون أن بإمكانهم سرقتنا وانتهاك أعراضنا؟

إنهم لا يسلبوننا أمننا وأعراضنا وتجارتنا فحسب؛ بل طريقة لهونا، التى كانت السلطات قد سمحت بها فى الأفراح والحفلات والرقص والغناء[٦]، كما منعنا مما هو ضرورى للنظافة والحفاظ على الصحة.

كيف لنسائنا أن تُحرم من الذهاب إلى الحمامات وهو أمر غاية فى القدم؟ سيصيبهن الحُزْن فى بيوتهن وسيمرضن ويُحرمن من النظافة، التى كانت تدخل عليهن السرور، ولن يرتدين الثياب النظيفة ولن يحافظن على صحتهن.[٧]

([٦]) من المعلوم أن الأسقف تالابيرا كان يسمح بعزف الموسيقى الموريسكية ، بل كان هو نفسه يستمع إليها. (المراجع)

([٧]) هذا هو مضمون المذكرة التى تقدم بها المحامى الموريسكى نونييث مولاى دفاعا عن الأمة الموريسكية. (المراجع)

وصف لهم أحوال المسيحيين: الانقسامات بين الكاثوليك والمُلحدين فى فرنسا، وثورة فلانديس والشكوك فى إنجلترا، ورحيل الهاربين إلى ألمانيا للجوء إلى أمرائها.

الملك الآن يفتقر إلى المال وإلى الأشخاص الحكيمة، والسفن تفتقر إلى الأسلحة ويتم تموينها بالكاد. وأطلق سراح منْ هم من الغوغاء لينتشروا فى كل مكان، وأصبح القادة والرؤساء ساخطين. إذا ما أغار الموريسكيون فلن يستولوا على غرناطة فقط بل على جزء من أندلوثيا –التى كانت فى أيدى أجدادكم وهى الآن فى حوزة أعدائكم– من الممكن أن يحتلوها من أول محاولة، أو أن يظلوا فى أراضيهم دون الزحف والتقدم لحيازة أراضٍ أخرى. جبال وعرة وأودية غائرة وسلاسل جبلية عالية وطُرق ضيقة وسهول ومتاهات بلا مخارج، كل ذلك لن يشكل عائقًا أمام الموريسكيين فهم سريعو الحركة ذوو خبرة فى المعارك ومعتادون على الحر والبرد والعطش والجوع، سراع ونشطاء إذا ما عزموا على الهجوم، ومهرة فى سرعة التفرق والتجمع مرة أخرى. ستكون المعركة بين إسبان وإسبان كثيرى العدد، مزودين بالأسلحة التى تساعدهم على بدء الحرب وإذا لم يكن لديهم أسلحة كافية، فأمامهم الحجارة تحت أرجلهم، يجعلون منها أسلحة يرمون بها العُزَّل فيقدرون عليهم.

كان المجتمعون لسماع الخطبة على ثقة فى بعضهم البعض، ولولا هذه الثقة ما اجتمعوا وما عزموا أن يكونوا شركاء سواء فى الهزيمة أو النصر والفوز بالغنائم؛ لذا وجدوا من الضرورى اختيار رئيس لهم من بينهم سواء أكان شيخا أم قائدا أو عُمدة أو ملكا، يضمن لهم تحقيق العدالة والأمن.

هم يُطلقون اسم "شيخ" على شريف القوم، وهو لقب يعنى الأكبر سنًا. وكان المسلمون يسلمون مقاليد الحُكم للشيوخ ويمنحونهم سُلطة مُطلقة.

ولما كان المسلمون يقتنعون بالتنجيم والتكهنات (حيث كان أجداد بعضهم من كالديا Caldea التى شهدت نشأة هذه العلوم)، فقد ذكرهم حينئذٍ بما كان يقوله حكماؤهم من قراءاتهم للنجوم وما كانوا يرددونه من نبوءات، تقول إنهم إذا ثاروا سيحتلون الأرض والممالك التى فقدها أسلافهم، لدرجة أنهم حددوا سنة الانتصار من التاريخ الهجرى (وهو التقويم الذى يتخذونه ويشير إلى العام الذى أُخرج فيه محمد من مكة). وقد توافق بالضبط مع اندلاع هذه الثورة، وقد أظهر لهم الآيات والظواهر الخارقة للعادة كأن يروا جنودًا مسلحين فى الهواء بجوار سييرا نيبادا، وطيورا غير مألوفة فى غرناطة، وتكاثرا هائلا للحيوانات فى أرض باثا Baza، بالإضافة إلى بعض الظواهر مثل كسوف الشمس فى الأعوام السابقة، وكلها نذير شؤم على المسيحيين الذين ينسب إليهم المسلمون ما هو جيد أو سيئ فى كوكبى الأرض والقمر.

كان ذلك هو الحديث الذى وجهه فيرناندو الصغير إلى الموريسكيين مما حفز همتهم وأثار حفيظتهم فاتخذوا قرارًا عامًا للقيام بالثورة على وجه السرعة، وقرارًا آخر خاصًا باختيار ملك لأمتهم ولكنهم لم يقرروا الوقت المحدد ولا الشخص المناسب لذلك.

إن هناك شيئًا ملحوظًا يميز مبادئ هذه الثورة، وهو أن أشخاصًا من طبقة متوسطة يبدو أنها لا تجيد كتم الأسرار، قاموا بالحديث فيما بينهم واستطاعوا كتمان الأمر وهم كثيرون فى بلاد بها عُمد البلاط وبها مفتشو محاكم التفتيش ومهمتهم كشف الجرائم. وكان من بينهم فتى يُدعى السيد فيرناندو دى بالور وهو ابن أخى السيد فيرناندو الصغير، وكان لقب أجداده إرناندوس، لكن أطلق عليهم دى بالور؛ إذ كانوا يعيشون فى مرتفع بالور بالبشرات الذى عند قمة الجبل. وكان السيد فيرناندو دى بالور ينحدر من نسل ابن أمية وهو أحد أحفاد النبى محمد من أبناء ابنته، وكانوا يحكمون فى الماضى مملكتى قرطبة وأندلوثيا. وكان رجلاً واسع الثراء كثير الصمت يشعر بالمهانة حيث كان أبوه سجينًا فى سجون غرناطة بسبب

ارتكابه بعض الجرائم. وقعت أنظار الموريسكيين على هذا الرجل حيث دفعتهم إلى ذلك ثروته ونسبه وسُلطة عمه، بالإضافة إلى أنه كان قد قام بالانتقام لوالده المسجون فقتل سرًا أحد متهميه بهذه الجرائم وبعضًا من الشهود.

وقد تسربت هذه الأنباء وتم إبلاغ ملك إسبانيا بها، وكان الأمر يبدو أكيدًا والوقت غير محدد كما هى العادة فى الاستعدادات التى تتجمع فيها الصعوبة والخوف، فإن كل مستشار كان عليه أن يخوض الأمر بمفرده بقوة كبيرة، وقد اجتمعوا جميعًا على تصور أن الحل سهل وأن المؤن كافية. أما بالنسبة للمال فلم يعيروه أهمية كبيرة حيث إنهم كانوا يعرفون أن مكسبهم سيكون كبيرًا من وراء هذه الحرب تلقائيًا فلم يولوه أهمية بل وجهوا اهتمامهم لأمور أعظم؛ فهناك قضية ولايات فلانديس التى سادتها القلاقل بسبب أمير أورانج Orange، حيث لم يكن قد مرَّ وقت طويل على تهدئة الاضطرابات على يد دوق ألبا. غير أنه لما كانت قوات ملك إسبانيا وخبرة الدوق القائد -الذى تربى على نهج الإمبراطور وكان شاهدًا على انتصاراته ومشاركًا فيها- كانت تكفى لمواجهة قضايا أكبر أهمية فمثلاً كان لا يزال هناك خطرٌ من إنجلترا وقوات كالفينوس (أو كالفن) فى فرنسا بالإضافة إلى بعض أمراء ألمانيا وبعض القلاقل من جهة إيطاليا فكان عليهم توخى الحذر والاحتياط الشديد فى التعامل مع هذه الأمور. فثورة فلانديس كانت لها أسباب دينية مشتركة بينهم وبين الفرنسيين والإنجليز والألمان، بالإضافة إلى وجود مشاكل بسبب الضرائب ومشاكل أخرى يعانى منها الرعايا، وإن كانت هذه المشاكل بسيطة، وعلى الرغم من المعاملة الجيدة التى كانوا يعاملون بها.

أدى كل ذلك إلى جرأة الأعداء وإلى ترددنا. بدأ يتجمع علانية أشخاص من مختلف الاتجاهات: إذا كان هناك رجل كسول ممنْ فقدوا أملاكهم فقد حاول تعويض خسائره بارتكاب الجرائم؛ فضلاً عن القتلة وقُطَّاع الطرق والمحكوم عليهم فى جرائم أو المجرمين الذين لم يُكشف أمرهم بعد، ويساورهم الخوف أن يتم الحُكم عليهم، وآخرون يتكسبون من إلحاق الأذى بغيرهم يمارسون السرقة والقتل، كل

هؤلاء قاموا بارتكاب الجرائم أو قاموا بتبريرها. وإذا ما كان هناك شخص سوى بعيدًا عن هذه الرذائل، فإنه بمرور الوقت سريعًا ما يصبح سيئًا مثل الآخرين؛ حيث يتخذهم قدوةً له كما يجذبونه هم إليهم بأحاديثهم. فعندما يتلاشى الحياء بين الصالحين فإنهم ينغمسون فى الفساد بصورة أشد من الأشخاص السيئين.

خلاصة القول، فإن خوف الموريسكيين من أن يتم افتضاح أمرهم، ويتم معاقبتهم على ما يُزمعون القيام به؛ دفع القائمين على هذا التخطيط – ومن بينهم السيد فيرناندو الصغير– إلى التفكير فى طريقة يجبرون بها الأهالى على أن يطرحوا الخوف جانبًا ويحملوا السلاح. تجمَّع رؤساء هذا التآمر للمرة الثالثة مع ستةٍ وعشرين شخصًا من البشرات فى سان ميغيل فى بيت هاردون Hardon وهو رجل ذو شهرة بينهم، وهو الذى أمر دوق أركوس بإعدامه فى بيت صهره كارثى حيث كان يُقيم. قام الموريسكيون باختيار السيد فيرناندو دى بالور ملكًا عليهم فى هذا الاجتماع المهيب وتم تقسيمهم إلى مجموعات: مجموعة الأرامل، ومجموعة المخطوبين، ومجموعة المتزوجين ومجموعة النساء. وبدأ أحد رجال الدين – ويدعونه الفقيه – فى قراءة نبوءة ترجع إلى عام...[*]، وهى مثبتة فى شريعتهم وأكدتها مسارات النجوم وأماكنها فى السماء وهى نبوءة بالنصر على يد فتى من سُلالة ملكية كفر بدينه ويعتنق المسيحية فى العلن. وقال الفقيه إن ذلك ينطبق على السيد فيرناندو دى بالور تمامًا وعلى زمن تنفيذ هذا المخطط. قام الموريسكيون بإلباس الملك عباءة ووضعوا حول عُنقه وعلى ظهره وشاحًا ملوَّنًا، وقاموا بوضع أربعة أعلام فى الأرض فى الجهات الأربع، وقام الملك بالصلاة والسجود على هذه الأعلام موجهًا وجهه نحو المشرق – وهو ما يسمونه بالصلاة– وأقسم أن يموت على دينه فى مملكته مدافعًا عن الدين وعن المملكة وعن كل رعاياه. تعهد الملك الجديد بذلك، وقام ابن فرج بالانحناء له نيابة عن الجمع الحضور، وقام بتقبيل الأرض بين قدميه. اختار الملك ابن فرج ليكون حاجبه الأكبر، وحمل

[*] بياض فى الأصل. (المراجع)

الموريسكيون الملك على الأعناق وهم يهتفون "فليبارك الله محمدًا بن أميه ملك غرناطة وقرطبة". وقد كانت هذه نفس الاحتفالية القديمة التى يتم فيها تمجيد ملوك أندلوثيا وفيما بعد ملوك غرناطة.

قام قادة هذه المجموعات بكتابة رسائل إلى رفاقهم المتعاونين معهم فى هذه المؤامرة، وحددوا اليوم والساعة لتنفيذها ليقوموا بتلقينها إلى المجموعات التى يرأسونها.

قام ابن أمية بتعيين عمه ابن جوهر فى منصب القائد العام، وفيما بعد نزح إلى كاديار Cadiar حيث يمتلك دارًا وعقارات أخرى. وآنذاك كان القائد إيريرا Herrera يسير من غرناطة إلى أدرا Adra ومعه أربعون فارسًا، قضى ليلته فى كاديار. إلا أن ابن جوهر الصغير انتهز الفرصة وتحدث مع الجيران وأقنعهم بأن يقوم كل واحد منهم بقتل منْ يستضيف. وبالفعل لم يكد يمر منتصف الليل حتى تم الإجهاز على عدد غير قليل، فقام المسلمون بمهاجمة منْ هم عُزّل، وأجهز المتآمرون على الآمنين، حيث باغتوهم وهم فى سُبات عميق من أثر الإرهاق والخمر فتمكنوا من القضاء على الجنود وقائدهم. وفى صباح اليوم التالى تجمعوا فى أشد الأماكن وعورة بالسلاسل الجبلية – كشأن الثوار – فلم يكن هناك وقت ولا استعدادات للتصدى لهذا الانقلاب. وكان ذلك أول اعتداء صريح قام به الأعداء فوجدوا أنفسهم – شاءوا أم أبوا – مضطرين إلى حمل الأسلحة، ولم يتجاوز رد البربر كلمات الأمل. فى ذلك الحين قام الإمبراطور التركى سليم الثانى – وهو حديث العهد بتولى العرش وكان فخورًا بانتصاراته بضم ثيغيتو el Ciguieto وكانت تُعَد مركزًا منيعًا وحصينًا فى المجر – بعقد هُدنة جديدة مع الإمبراطور ماكسيميليان الثانى Maximiliane el Segundo، كما أبرم اتفاقيات مع الصفوى el Sofi فى أرمينيا، واتفاقيات أخرى مع الشيوخ العرب فى سوريا Suria لضمان حماية حدوده معهم، وأيضًا مع الإنكشاريين وهو جيش اعتاد القيام باعتداءات وقلاقل عند تولى أى ملك جديد العهد. وكان سليم الثانى قد شنَّ بعض

الهجمات ضد الفينيسيين فى قــبرص وضد ملك تونس فى شمال إفــريقيا، وكان لا يناسبه تشتيت قواته فى أماكن متعددة، وكان من مصلحته أن تكون قوات ملك إسبانيا متفرقة ومنشغلة. ويُقال إنه فى ذلك الوقت بعث ملك الجزائر إلى الموريسكيين برسالة يحثهم فيها على الثبات على العهد الذى بينهم، إلا أنه تعلل بعدم مقدرته على إرسال الأسطول لمساعدتهم لأنه كان فى انتظار الأوامر من ملك القسطنطينية، فقام ملك فاس وهو معروف بالتدين والورع وينحدر من سلالة الأشراف، والتى كانت لها قداستها بين العرب بوعد الموريسكيين بإرساله الإغاثة إليهم. تم تبادل الرُسل بين ملك فاس وملك الجزائر لدراسة حقيقة الموقف وتقدير إمكانات الموريسكيين، وقياس حجم قواتهم برًا وبحرًا بالمقارنة بقوات ملك إسبانيا، فوجدوا أنها غير كافية لمواجهتها. وعلى الرغم من تحالف هذين الملكين، فإنه كان تحالفًا يهدف إلى أن يقوم ملك الجزائر بمهمة خاصة بتونس وبنزرت Biserta، بينما يكون الملك فيليبى منشغلاً بالاستعداد لثورة غرناطة، فقاما بالاتفاق على السماح لبعض الرجال والتُجار الأندلوثيين المسلمين الذين كانوا قد نزحوا إلى أراضى المغرب، للانضمام إلى صفوف الموريسكيين فى غرناطة مقابل أجر، بالإضافة إلى التجار الذين بإمكانهم حمل السلاح والذخيرة والمؤن، وهو ما يعنى أن الموريسكيين سيقدمون المال مقابل طلب الإغاثة.

البشرات هو الاسم الذى يطلق على كل الجبل المجاور لغرناطة، ويمتد من الشرق إلى الغرب، ويقع فيما بين مدينة غرناطة والبحر، ويبلغ طوله سبعة عشر فرسخًا، وعرضه أحد عشر فرسخًا تقريبًا. وهى منطقة جرداء وفقيرة إلا فى بعض المروج، والتى زُرعت بفضل الموريسكيين – وهم لا يتركون أية بقعة دون الاستفادة منها – الذين استصلحوها وجعلوا منها أراضى كثيرة الثمار بها تربية للماشية ودودة القز للحصول على الحرير. وقد كان لهذا الجبل دور رئيسى فى ثورة الموريسكيين فوقع عليه الاختيار كمنطقة للحرب، وذلك لقربه من البحر حيث كانوا ينتظرون العَوْن والإمدادات عن طريقه، بالإضافة إلى كونه منطقة وعرة

يَصعُب فيها التسلل إليهم، ولأن سُكان هذه المنطقة كانوا معروفين بالإقدام والشجاعة. وكانوا قد قاموا بالتفكير فى الانقلاب مرتين قبل هذا الوقت: مرة يوم الخميس المقدس، ومرةً أخرى فى سبتمبر من هذا العام، حيث كانوا قد أعدوا أسطولاً من الجزائر بقيادة أولوج على Aluch Alí، لكنه عندما رأى أن كونت تنديا على علم بهذه المؤامرة، وكان على أُهبة الاستعداد لمقاتلته، عاد مرة أخرى وعدل عن خطته وعاد بالأسطول إلى بلاد البربر. وفى الثالث والعشرين من ديسمبر بعد حادثة كاديار Cadiar قام نفس الأشخاص الذين تلطخت أسلحتهم بدماء هذه المجموعة القليلة التى تم قتلها، بالخروج على الملأ وقاموا بإحداث ثورة فى الأماكن المجاورة ومناطق البشرات ونهر المرية، بالتعاون مع منْ عقدوا معاهدات معهم وفرج بن فرج Farax Aben Farax لتقوية عزائم الناس فى غرناطة والغوطة وأرسلوا إلى فرج بن فرج مائة وخمسين رجلاً من البارعين الأشداء تم اختيارهم من بين أكثر الرجال قوة وإقدامًا. انضم هؤلاء الرجال إلى الجموع التى كانت تفد إليهم وقرروا مهاجمة غرناطة واتجهوا نحوها فى ستة آلاف من الرجال مسلحين بأسلحة ضعيفة، إلا أنهم كانوا مترابطين ويتمتعون بُحسن التنظيم كعادتهم.

وفى إسبانيا لم تكن هناك سفن حربية حيث كانت قوات الملك موزَّعة فى مناطق بعيدة بينما لم تنل المملكة الاهتمام الكافى، فكانوا يظنون خطأً أنها تنعم بالأمن والاستقرار بينما كان الواقع خلاف ذلك، ويتفق مع مصلحتهم: كان الوزراء والأهالى فى غرناطة يساورهم القلق ويفتقرون إلى الاستعدادات والترتيبات بسبب سيادة الخوف والإضطرابات. ساءت الأحوال الجوية فى تلك الليلة، وكانت السماء تُمطر ثلجًا فى سييرا نيبادا Sierra Nevada- والتى أُطلق عليها قديمًا سولوريا، وكان المسلمون يسمونها سولاريا[٨]- فسدت الطرق والمنافذ مما أعاق وصول هذا العدد الكبير من الثوار وقبل شروق الشمس بقليل، قام ابن فراج وبصحبته مائة

(٨) الاسم العربى هو جبل شليرة. (المراجع)

وخمسون رجلاً بالدخول بوابة غواديكس Guadix المرتفعة وهى مجاورة لغرناطة، وفى أثناء طريقهم فى الجبال قاموا بالعزف على آلات ومزامير كعادتهم.

وعندما وصلوا إلى البيازين طافوا بالشوارع وقاموا بتحريض الشعب على القيام بثورة، وقدموا له الوعود، وأعلنوا عن صرف رواتب لهم من قِبل ملكى فاس والجزائر مؤكدين على وصولهم إلى مملكة غرناطة فى أساطيل هائلة يملكونها، وهو الأمر الذى أدى إلى تخويف وترهيب نفوس الأشخاص الحاضرين، وكان مصدر قلق للغائبين الذين كانوا بعيدين: فكلما كانت المنطقة أبعد كان وقع الخبر أقوى على الناس حيث يُرى الحدث بصورة أضخم ويُغالى فى الحُكم عليه.

كيف لأناس مسلحين أتوا فى أعداد كبيرة ويحملون أسماء ملوك من الأمراء الخائنين أن يقتحموا المدينة ويدخلوا مملكة مسالمة تكتظ بالسلاح والثروة، ويعمها الحذر ويحكمها ملك قام منذ سنوات قليلة بأعظم ما قام به ملوك إسبانيا على الإطلاق، وحقق الانتصارات فى معركتين خلال عام واحد، واحتل بالقوة ثلاثة معاقل خاضعة لسلطة فرنسا، وقام بإنجاز مهمة شاقة وغير مضمونة كتنحية دوق سابويا Duque de Saboya ، بالإضافة إلى الإنجازات التى قام بها أعوانه القادة، وقد قام بتوسيع أراضى المملكة حتى وصل من إيطاليا إلى فنلندا – وهى رحلة كادت أن تكون مستحيلة – ووصل إلى أراضى وأقوام لم تعرف فى أوطانها غُزاة آخرين بعد القوات الرومانية!. لقد استطاع الملك تأمين ممالكه (الخارجية) بالانتصارات والدم والعقاب، و(فى الداخل)، بالدعة، وفى مدينة غرناطة التى كان الجزء الأكبر من سكانها من المسيحيين، وهذا البحر يقف حائلاً دون وصول الأعداء ويمتلئ بسفننا الحربية، دخل رجال يحملون السيوف وألقابًا عائلية لملوك أعداء غير مسيحيين.

إن الدولة التى تتهاون فى الحفاظ على أمنها اعتقادًا منها أن سلطتها فحسب تكفى لكيلا يجرؤ أحد على التعدى على أراضيها هى دولة غير آمنة.

كان الموريسكيون يتسمون بالحرص أكثر من اتسامهم بالمهارة والحذق، فى انتظار أهالى البشرات. كان القائدان الثغرى ومُنفَرِج Monfarrix يخرجان كل ليلة إلى مرتفع سانتا إلينا لتفقد الأوضاع ودراستها ثم قاما بالخروج فى الليلة السابقة على الثورة فى خمسين رجلاً ممنْ تم اختيارهم جيدًا للدخول إلى قصر الحمراء، إلا أنهم عندما وجدوا حالة الجو غير ملائمة ذلك اليوم، خبأوا السلالم فى أحد الكهوف وعادوا مرة أخرى من حيث أتوا، ولم يعاودا الخروج فى الليلة التالية حيث بدا لهما – نظرًا لقلة عهدهما بمثل تلك الأحداث– أن العاصفة ستحول دون وصول الجموع إليهم مما لن يمكنهما من تنفيذ خطة قصر الحمراء، فانتظرا لحين حلول ليلة مماثلة ليتسلقا قصر الحمراء، إلا أن أهالى البيازين ظلوا هادئين فى بيوتهم عندما سمعوا المنادى وأغلقوا عليهم أبوابها، إذ كانوا لا يعلمون شيئًا عن هذه المؤامرة وحتى لو أبلغهم بنبأ هذا المخطط، فلم يكونوا كلهم على يقين باليوم الذى سيتم فيه التنفيذ – على الرغم من أنه كان قد تم تأجيل موعد التنفيذ قليلاً – ولا بعدد الأشخاص المشتركين فى هذه الثورة ولا الكيفية التى سيدخلون بها ولا بخط سيرهم. قيل إن أحد الشيوخ فتح نافذته وسأل عن عددهم وأجابوه أنهم ستة آلاف فأغلقها وقال: «إنكم قليلون، وجئتم مبكرين» وكان ذلك يعنى أن عليهم البدء بقصر الحمراء، والمجيء بعد ذلك إلى البيازين ومعهم قوات ملك الجزائر. أيضًا لم يتحرك أهالى الغوطة الذين كانوا يلون أهالى البيازين حيث إنهم لم يسمعوا مدفعية قصر الحمراء، وهى الإشارة المُتَفق عليها لتنفيذ المخطط. كان هناك تنافُس بين حُكام المدينة واختلاف فى المقاصد، ولكن ذلك لم يمنع من أن يقوم كل الحكام والأشخاص البارزة وعامة الشعب بالدور الذى أسند إليه. قضى الجميع الليلة على أهبة الاستعداد، وقام كونت تنديا بتشديد الحراسة على قصر الحمراء عندما سمع موسيقى الموريسكيين، وأثارت حفيظته حيث لم يكن من المألوف سماعها فى ذلك الوقت. وعلى الرغم من أن الماركيز لم يكن يعلم بكلمة السر والإشارة التى أعطاها الموريسكيون لأهالى الغوطة، وكان قد أبلغ أهالى المدينة بأنه عند أى هجوم ستقوم المدفعية بإطلاق ثلاث طلقات، إلا أنه عدل عن ذلك لخوفه من أن

يظن المسلمون أن تلك الإشارة تعنى أنه فى مأزق فيقومون بالهجوم على قصر الحمراء – وكانت الحراسة به قليلة – فأمر أن لا تكون هناك أية إشارات يقومون بها أو تُطلب من أهالى المدينة حيث كان يرى أن هذا هو السبيل لنجاتهم من الخطر، فكان يرمى إلى أن يقوم بالسيطرة على المدينة؛ فكان يعرف أنه عندما يسمع موريسكيو الغوطة الإشارة فسيقومون بالخروج للبحث عن أهالى البيازين والانضمام إليهم وبذلك يتم حصارهم.

نزل الكونت إلى الميدان الجديد، وقام بتنظيم الجموع حيث تجمع الكثيرون من الغرباء ومن أهل المدينة وعدد من الشخصيات المهمة عند الرئيس السيد بدرو دى ديثا، ونظرًا لمنصبه والجهود التى رأوه يبذلها فى كشف وقمع المؤامرة، ولبشاشته ولمعاملته الطيبة للجميع. كما رأى فيه بعضهم اختلافًا واضحًا فى الأهداف بينه وبين ماركيز مونديخار.

وقام ماركيز مونديخار بصحبة أربعة فرسان فقط والمراجع بالصعود إلى البيازين، وكان هدفه الأكبر هو معرفة ما حدث أكثر من اهتمامه برد الهجوم المنتظر أو تهدئة النفوس التى كانت قد فقدت الأمل. وكان مسرورًا بتأجيل هذا الهجوم يومًا آخر–وكان يبدو عليه الثقة– حتى يستطيع أن يستغل الوقت المشترك بينهم ليرى كيف يمكن أن يتصرف المدافعون عنه وليتمكن من التسلح والتزود بكل ما هو ضرورى لمقاومة كل الأعداء، وتحدث إلى الناس قائلاً:

«إننى أشكر لكم إخلاصكم وثباتكم وحكمتكم بعدم تصديق هؤلاء الرعاع القلة المتدنسين الذين ظنوا أنهم سيبرءون أنفسهم من الجرائم التى ارتكبوها، أو أنه سيعلو شأنهم بارتكابهم أفعالاً وجرائم أخرى. لقد كانت دائمًا هناك الثقة فى رغبتكم فى خدمة الملك حيث وضعتم أنفسكم وأملاككم وأرواحكم تحت إمرة الوزراء الذين يعدون شاهدين وممثلين للإخلاص والصدق والتفانى للملك وإظهار الخضوع له لينالوا الشُهرة والتقدير والمكافأة منه». إلا أنهم أجابوه بكلمات قليلة نمت عن شعورهم بالذنب والندم أكثر من عزمهم على التمرد والتزموا بحُسن العمل وبذل

الجهد الذى طالما أظهروه دائمًا، وعندما بدا للماركيز أن تلك الإجابة كافية توجه إلى المدينة دون أن يقوم بتهدئة خوفهم من الأهالى. وكان قد أرسل فى طلب معرفة معلومات عن الأعداء حيث لم يكن لديه أنباء أكيدة عن عددهم أو مستوى استعدادهم ولا عن ما يركبون أو الطريق الذى يسلكونه. علم أنهم توقفوا عند لاس غاييناس Las Gallinas واخترقوا نهر شنيل خلف الجبال فقام بتأمين المناطق المهمة وكلَّف المراجع بحراسة المدينة، وقام بوضع الاحتياطات الكافية فى قصر الحمْراء، حيث كان بين جنود قليلين يتقاضون رواتب متدنية، وضم إليهم الخدم وأتباع كونت تنديا وبعض الأشخاص ممنْ هم من أهل الثقة والأصدقاء فى المدينة.

قام الماركيز بصحبة الفرسان المتاحين له بتتبع الأعداء واصطحب معه صهره[٩] وأبناءه الذين خرجوا معهم بهدف خدمة الملك من جهة، ومن جهة أخرى، كانوا يقصدون اختبار قدراتهم، حيث كان لديهم الفضول فى رؤية الشخصيات المهمة فى المدينة. وقد خرج أيضًا السيد بدرو دى ثونيغا Pedro de Zuñiga[١٠] كونت ميراندا مع أهل بيته، والذى كان مختصًا حينئذٍ بالدعاوى القضائية. وكان عظيم المنزلة والنسب. كانوا قليلى العدد، ولكن ذوو كفاءة عالية. وعندما رأى الأعداء أن أهل البيازين لم يتحركوا ولم يحضر جيرانهم من الغوطة رغم أنهم قتلوا أحد الجنود وجرحوا آخر، ونهبوا أحد المتاجر ليعلنوا دخلوهم المدينة، عادوا من حيث أتوا وخلف قصر الحمراء ساروا بامتداد الأسوار حتى وصلوا إلى البيت الذى يسميه المسلمون دار الحويت Dar- al- huet نظرًا لإطلاله على النهر، بينما كنا ندعوه بيت لاس غاييناس. توقفوا بعد ذلك لتناول الطعام، ومكثوا حتى الثامنة صباحًا، وكان كل شيء تحت قيادة فرج، وكان يقصد إظهار وفائهم بالعهد للمهمة، واتهام أهل البيازين إما بالخوف أو فُقدان الثقة فيه،

---

(٩) كان الماركيز صهرا للسيد ألونسو كارديناس don Alonso Cardinas والذى فيما بعد أصبح كونت لا بويبلا بعد موت أبيه.

(١٠) كان السيد بدرو – كونت ميراندا– أخا وحما لمنْ هو فى وقتنا الحالى رئيسا لإيطاليا ولقشتالة.

وكان لديهم الأمل- على الرغم من ذلك- أنه عند وصول أهالى البشرات سيكون هناك تحرك أكثر. ولكن فيما بعد لم يحدث ما أراده فسلك طريق نيغويليس Nigüeles محتميًا بالجبل وتوغل فى المناطق الوعرة وبدا منتظرًا لقاء خصومه. حاول قليلون ممنْ رافقوا الماركيز الوصول ولم يصل أحد إلى الاشتباك بالأيدى نظرًا للطبيعة القاسية للمكان، وعلى الرغم من أنهم اتبعوا الماركيز فى عبوره نهر موناتشيل Monachil حتى اجتازوا الوهد ثم منطقة ديلار Dīlar ومن هناك توغلوا فى مناطق وعرة لكن لم يلحق بهم أى أذى.

وقد استمروا فى السير إلى أن حلّ المساء، فرأى الماركيز أنه ليس من الضرورى المكوث هناك، وأنه من الأحرى إعداد العُدة لحماية المدينة وتأمينها، وذلك لخوفه من أن يتجمع موريسكيو البيازين والغوطة ويقوموا بمهاجمة المدينة وهى خالية من أهلها وليس بها أسلحة، فعاد قبل منتصف الليل بساعة ودون أن يضيع الوقت قام بترتيب الاحتياطات اللازمة، فجمع منْ استطاع من الأشخاص المفتقرة إلى المال والقريبة منه فتجمعوا لأسباب عدة، فمنهم منْ أراد خدمة الملك، ومنْ كان يريد تأمين نفسه، ومنهم منْ تحرك بدافع الصداقة التى تربطه بالماركيز، - متذكرين أبيه وجده، فقد كانت شهرته واسعة فى المملكة- ومنهم منْ تحرك بدافع الأمل فى الغنيمة، ومنهم منْ حركه صخب المعركة، وقام الماركيز بدعوة مدن وسادة أندلوثيا لإرسال الجموع لمساعدتهم فى هذه الحرب، وقام بمخاطبة كل سيد منهم طبقًا للوائح المجالس القديمة التى كانت تقضى أن يقوم الناس بنقل الطعام على نفقتهم مهما كلفهم الوقت لإتمام هذه المهمة [قديمًا كان يُطلق عليها الزكائب Talegas بينما نسميها فى الوقت الحالى مزادة mochila] كان لمدة أسبوع وبعد انقضائه يقومون بالخدمة ثلاثة أشهر بأجر تدفعه بالكامل القرى التى ينتمون إليها، وإذا احتاج الأمر إلى ستة أشهر فما فوق تدفع القرى نصف أجر والنصف الآخر يقوم بدفعه الملك. كان الجنود يعودون إلى منازلهم ويأتى آخرون، وكان ذلك دائمًا خطرًا يهدد إدارة الحرب وهو أن الجنود دائمًا حديثو عهد.

وكان ذلك الالتزام فرضًا يؤديه الشعب مقابل أجر يقوم الملك بتوزيعه من الأملاك التى يحصل عليها عند استيلائه على أراضى الأعداء، وقام الماركيز أيضًا باستدعاء جنود خاصة وعلى الرغم من انشغالهم فى مناطق أخرى، ودعا أيضًا منْ يأخذون رواتبهم من الملك، وممنْ كانوا يمكثون فى منازلهم يخلدون إلى الراحة، بعد أن نسوا أمر الحروب.

وقام الماركيز بتزويد هؤلاء بالأسلحة والمؤن وإرسال الجواسيس إلى شتى الأماكن للاستعلام عن خطة الأعداء، وقام بإبلاغ الملكْ وطلب إمداده بالمال اللازم لمقاومة الأعداء وتأمين المدينة. إن الخوف من الحرب كان أكبر من الدوافع التى أدت إليها، فالشكوك والريبة فى أى أمر كانت سببًا فى إثارة القلق، فيبدأ الناس فى أخذ أسلحتهم ويهرولون إلى أماكن مختلفة، ثم يعودون إلى منازلهم ويجلسون يقدرون حجم الخطر المحيط بهم فى خوف شديد بدَّل أحوالهم من سلام دائم إلى اضطراب وحُزن وقلق وضيق، وأصبحوا لا يثقون فى أى شخص أو مكان، وكانت النساء يَهرعن من مكانٍ لآخر ليتقصين الأخبار ويقمن بزيارة المعابد. واحتمت الشخصيات النسائية المهمة بقصر الحمراء، وخرجت بعضهن مع عائلاتهن بحثًا عن أماكن أكثر أمنًا فى المنطقة، وخلت المنازل من سكانها، وأغلقت الدكاكين أبوابها وتوقفت التجارة، وانقلبت الأوقات المخصصة للعبادة والعمل، ونشط رجال الدين واشتغلوا بالصلوات والتضرع كما هو معهود فى أوقات الشدة.

بدأ فى الوصول أولاً الأشخاص القاطنون فى المدن الصغيرة المجاورة لغرناطة كأهل ألكالا ولوخا، وبعث الماركيز بفرقة من الجنود لتخرج المسيحيين القدامى من ريستابال Restaval. حيث كان المؤكد أن أول هجوم سيكون موجهًا ضدهم، وأرسل فرقتين إلى دوركال حتى لا يتمكن الأعداء من الوصول إلى غرناطة دون أن يكون هناك منْ يحميها، كما أرسل السيد دييغو دى كيسادا Diego

de Quesada بفرقة من المشاة وأخرى من الفرسان لحراسة قنطرة تابلانى Tablane، وهو معبر مباشر من البشرات إلى غرناطة.

وعندما أحس الرئيس بزوال الخطر الراهن، أخذ فى التفكير بحرية أكبر فى خدمة الملك، أو الوقوف ضد ماركيز مونديخار فكتب إلى السيد لويس فاخاردو Fajardo ماركيز بيليث Veléz حيث كان من وجهاء مملكة مورثيا، وقائدًا عامًا لمقاطعة قرطاجه [وهى مدينة تشتهر بأمان مينائها وبالدمار الذى أحدثه سيبيون Scipíon الإفريقى قديمًا أكثر من شهرتها بعظمتها وفخامة مبانيها]، وقام بتشجيعه على تجميع أهالى تلك المقاطعات وأقاربه وأصدقائه وأن يدخلوا إلى نهر المرية، فيقاتلوا من أجل الملك وينقذوا المدينة التى يحيطها الخطر من البر والبحر، ويحصلوا على مغانم كثيرة من أعدائهم. كان معروفًا عن الماركيز الحرص والحماسة وكانت هناك خلافات بين ماركيز بيليث وماركيز مونديخار، وهى خلافات تعود إلى آبائهم وأجدادهم. وقد خاض ماركيز بيليث معارك تونس وبروفينسيا تحت لواء الإمبراطور، بينما كان ماركيز مونديخار هو قائد معارك الجزائر، ولذلك فإن كلاً منهم كان على دراية بالأراضى التى وُلى أمرها. بدأ ماركيز بيليث فى الاستعداد للحرب وفى جمع الأهالى، بعضهم يدفع له أجرًا من أمواله الخاصة، والبعض الآخر من أصدقائه.

وفى تلك الأثناء، راودت ملك غرناطة – الذى تمت توليته حديثا– الآمال فى الثورة التى كان الموريسكيون ينوون القيام بها فى البيازين والغوطة؛ فظلَّ فى انتظار ما يستجد من أحداث إلا أنه عندما وجد السكون يعم المدينة ولم يجد أية بوادر لهذه الثورة، قرر الخروج بمفرده قاصدًا البشرات. وعند خروجه من لانخارون Lanjaron، بدأ مترجلاً ولما حذروه من المضى للأمام لأن الأرض تكتظ بالناس، ركب حصانه وسار فى اتجاه بالور. وقد قسَّم الثوار الموريسكيون أنفسهم إلى قسمين: أولهما سَلَكَ طريقًا إلى أورخيبا Orgiba، وهى تابعة لدوق سيسا el doque de Sesa (وكانت قبل ذلك تتبع جده، ذلك القائد العظيم) وهو

طريق يربط بين غرناطة ومدخل البشرات وتحده أرض المرية شرقًا وأرض سالوبرينيا Saboreña والمونييكار Almuñecar غربًا، ومن الشمال تحده مدينة غرناطة. وهو مكان يمتلئ عند الجنوب بالسفن الكبيرة التى تقصده لإصلاح ما فيها من ثقوب. ولأهمية هذا المكان وضع الموريسكيون به ألفى رجل، وقاموا بتوزيعهم إلى عشرين فرقة يرأسهم كل من قائد ميثينا Mecina والقرصان مورتيل. كان قد تم تحذير المسيحيين القدامى وكان عددهم يبلغ نحو المائة والستين بين رجال ونساء وأطفال، حيث قاموا بتجمعيهم فى بُرج غاسبار دى سارابيا Gaspar de Saravia والذى كان قريبًا من مقر الدوق. إلا أن المسلمين بدءوا فى اقتحام البُرج ووضعوا جنودًا تحمل بنادق فى برج الكنيسة وأسرع المسيحيون فى الخروج هربًا، ثم قاموا بتكسير السور، وحاولوا تحطيمه بقذفه بالأحجار وحرقه بالزيت والنار. وأرادوا حرق الأبواب، لكنهم وجدوها قد سُدت بالطين والحجارة فقام مؤذن من الموريسكيين بدعوة الأهالى بصوت مرتفع من الكنيسة ليستسلموا إلى ابن أمية ملكهم (وتُطلق كلمة المؤذن almuédano على منْ ينادى بصوته ليدعو الناس للصلاة حيث إن استخدام الأجراس فى الإسلام يُعد مُحرمًا). قام الموريسكيون باستدعاء نائب عن بوكيرا Poqueira - وهو شخص يحترمه الفريقان ويثقان فيه- ليؤكد لهم أن غرناطة وقصر الحمراء قد وقعا تحت سيطرة المسلمين. وتعهد الموريسكيون بإطلاق سراح منْ يسلم نفسه، بل تزويد منْ يدخل فى الإسلام منهم بالمال والممتلكات له ولمنْ يرثه من بعده، وتناولت الخُطب التى كانوا يوجهونها لهم مثل هذه الوعود. أما عن الفرقة الأخرى من الموريسكيين فقد سارت فى اتجاه غرناطة وذلك للوقوف مع فرج بن فرج ومنْ جاء معه، وليقوموا باستقبال منْ نصّبوه ملكًا عليهم، حيث التقوا به بالقرب من لانخارون وساروا معه حتى دوركال. ولكن عندما علموا بأن الماركيز قام بوضع حراسة هناك عادوا أدراجهم إلى بالور، ومن هناك توجهوا إلى حى يطلقون عليه لاوخار laujar فى وسط البشرات فقاموا هناك بالاحتفال به، كما فعلوا فى غرناطة، فحملوه على الأعناق واختاروه ملكًا عليهم. وهناك بدأ ملكهم فى توزيع المناصب واختيار العُمَد

والوزراء تبعا للأقاليم [وهو ما يطلقون عليه فى لغتهم طاعات Tahas] والوديان، وقام بتعيين عمه ابن جوهر- وكان يدعونه فيرناندو الصغير- قائدًا عامًا، واختار فرج بن فرج وزيرًا أعلى له (وهم يُطلقون لقب وزير على منْ يلى الملك فى المرتبة وله سُلطة مُطلقة فى التصرف فى مصائر الناس بالحكم عليهم بالموت أو الإفراج عنهم دون الرجوع إلى أحد). وبعدها قام الموريسكيون بإلباسه عباءة وخصصوا له بيتًا على منوال بيوت ملوك غرناطة، مثلما سمعوا من أجدادهم.

اتخذ الملك ثلاث زوجات، إحداهن كانت أقربهن إليه وأحضرها معه، والأخرى من منطقة نهر المنصورة والثالثة من طابيرناس Tavernas لكى يضمن بمصاهرته لهذه البلدة ولاءها له. ولم يُحضر زوجته الأولى، التى تزوجها من قبل، وهى ابنة لشخص يُدعى روخاس Rojas لأنه كان قد أمر منذ بضعة أيام بقتل حماه وصهرين له لانشقاقهم عنه، وترك زوجته وعفا عن حماته، حيث أراد أن يكون رحيمًا بها. بدأ الموريسكيون ثورتهم فى البشرات ونهر المرية وبولودى Boloduī ومناطق أخرى، حيث قاموا بمطاردة المسيحيين القدامى وقاموا بحرق الكنائس وتدنيس مقدساتها، وتعذيب رجال الدين المسيحيين، فكانت كراهيتهم لهم شديدة، إما بسبب مخالفتهم لهم فى الدين أو بسبب إجبارهم لهم على التنصر أو بسبب إساءتهم معاملتهم لهم. وقاموا بحرق دير للرُهبان فى غويثيخا وفاءً لنذورهم حيث صعدوا البرج وألقوا عليهم من فتحة فيه زيتا مغليا مستغلين وفرة الخيرات التى تنعم بها تلك الأراضى ليقضوا على ما به من رُهبان.

لقد ابتدعوا أشكالاً جديدة للتعذيب، فقاموا بحشو قس مايرينا Mairena بالبارود، وأشعلوا النار فيه وقاموا بدفن نائب الكنيسة حيًا حتى منتصف جسده، وأخذوا يلهون ويرشقونه بنبلهم، وفعلوا مع رجلٍ آخر الشيء نفسه ثم تركوه يموت جوعًا، وقاموا بإصابة أفراد آخرين ثم تركوهم للنساء ليقتلوهم، وكان هناك منْ رموه بالحجارة، ومنْ قتلوه بالمدفعية، ومنْ قاموا بسلخه، ومنْ ألقوه فى الحُفَر. وقد قاموا بذبح أحد أبناء أرثى Arce - قائد بيثا - وقاموا بصلب الابن الآخر وجلدوه

وطعنوه أولاً لكى يموت ببطء. تألم الولد كثيرًا، لكنه حاول أن يُظهر أنه مسرور بهذه الموتة كما فعل المسيح، على الرغم من أنه فى حياته لم يكن متدينًا، فمات وهو يصبر ويعزى أخاه الذى قاموا بقطع رأسه. لقد قام الموريسكيون الذين يشعرون بالذل والمهانة بتنفيذ كل تلك الأعمال القاسية بهدف الانتقام. أما رجال الجبل(*) فقد فعلوا ذلك وفقًا لعادتهم التى تحولت إلى طبيعة فيهم.

أما عن الرؤساء وأصحاب الرأى فيهم فإما أنهم كانوا مقتنعين وإما أنهم كانوا راضين عن ذلك. وكان المقتنعون ينظرون إليهم بإعجاب ويثنون عليهم لأنهم يرون أن (المسيحى) أكثر إجرامًا، وبالتالى فالموريسكى مضطر وبلا أمل فى العفو، وكان الملك الجديد يسمح بذلك؛ بل أحيانًا كان يأمرهم به. لقد كانت هذه الواقعة شاهدًا كبيرًا على درجة إيماننا فهى تذكرنا بزمن الحواريين الذى قُتِلَ فيه الكثيرون على أيدى الكُفار، وعلى الرغم من ذلك لم يرتد شخصٌ واحدُ عن دينه (بالرغم من أنه كان قد تم إقناع الجميع أو معظمهم وترغيبهم بوعدهم بتوفير الأمان لهم والسُلطة والثروات، كما قاموا بتهديدهم وبتنفيذ تلك التهديدات). وقد قاوموا وتحلوا بخشوع وصبر المؤمنين المسيحيين فوقفت الأمهات تحث أبناءها على الثبات، وكذلك فعل الأبناء مع أمهاتهم، وحثَّ القساوسة الأهالى على المقاومة والثبات، بل انتبه الغافلون عن دينهم وقدموا أرواحهم بإرادتهم فداءً له.

وقد استمرت هذه الأحداث ما استغرقته نيران الثورة المتأججة وجنون الانتقام، واستمر ابن جوهر وآخرون فى المقاومة، لكنها كانت مقاومة ضعيفة فاشتدت نيران الثورة عليهم، إلا أن الملك أمر بألا يقتل أى صبى تحت سن العاشرة ولا امرأة ولا رجال دون أسباب حتى لا يُقال إنه تم ارتكاب الجرائم الشنيعة باسمه.

(*) كلمة monfíes تُطلق على الموريسكيين الثائرين المختبئين فى المناطق الجبلية. (المراجع)

بينما كان ذلك يحدث أرسل الملك أخاه (وكان يُدعى عبد الله) إلى المغرب - ومعه بعض الأسرى - يحمل نبأ اختياره ملكًا إلى الجزائر ودخوله في ولاء ملك الأتراك، وكلفه بأن يطلب العوْن لحماية المملكة وأرسل خلفه إيرناندو الحبقى Hernando Habaquī - وسيرد ذكره فيما بعد - ليستأجر جنودًا من الأتراك إلا أنه ترك جنودًا جيدين وأحضر معه قائدًا تركيًا يُدعى دالي Dalí وحمل معه أسلحة وبعض التجار في سفينة.

وقد استقبل ملك الجزائر عبد الله كأخٍ للملك ومنحه الهدايا وألبسه حُللاً من الحرير الخالص، ثم أرسله إلى القسطنطينية يتلقى وعودًا بالمساعدة، لا لكى يحصل على معونة.

وفى تلك الآونة كانت المناطق الأخرى من نهر المرية قد قامت هى الأخرى بالثورة. وفى ذلك الوقت كان دييغو دى لا غاسكا Diego de la Gasca قائد أدرا قد وصل إلى دالياس حيث كان يعلم بأمر الثورة المزمع القيام بها عشية أعياد الميلاد، فذهب ليساعد أوخيخار Ujíjar فوجدها تموج بالثوار الذين قاموا بتتبعه واحتجازه فى أدرا، وهو مكان مخصص للبحرية يقع عند منطقة كان القدماء يُطلقون عليها أبديرا Abdera، والتى قام بدرو بيردوغو Pedro Verdugo - وهو منْ كان يمد مالقة بالمؤن- بتزويده بالجنود والإمدادات بعدما علم بموت القائد هيريرا Herrera فى كاديار. قام الموريسكيون بالزحف للأمام بعد أن رأوا أنهم لم يحدثوا تأثيرًا قويًا فى أدرا، وانضم إليهم أفراد آخرون حتى بلغوا ألفًا وأربعمائة، وكان معهم مسلم يُدعى الرامى el Ramí فقاموا باحتلال الشيترى el Chitre [أو الشوترى El Chutre حسبما يسميه البعض الآخر]، وهو مكان حصين يقع بجوار المرية حيث كانوا يعتقدون أنهم بهذه الطريقة سيضمنون أن يقوم أهالى هذه المدينة بقتل المسيحيين القدامى بها.

قاموا بإرسال بعض الأشخاص من ذوى الثقة لاستدعاء السيد ألونسو بينيغاس Alonso Venegas - وهو رجل شريف واسع السُلطة- وغيره فقام

السيد ألونسو بحمل الرسالة مغلقة إلى مجلس المراجعين، وعندما قام بقراءتها وفكر قليلاً وقع مغشيًا عليه ولكن عندما أفاق التف حوله المراجعون يعنفونه ويوبخونه فأجابهم "إن المُلك ابتلاء عظيم"، وسلمهم الخطاب الذى كان الموريسكيون يعرضون عليه فيه أن يصبح ملك المرية". وقد آلمه ذلك الأمر ولكنه ظل مخلصًا ومنشغلاً بخدمة الملك.

كان السيد غارثيا دى بيارويل García de Villarroel صهر السيد خوان الذى مات بعد ذلك بقليل فى غواغاراس Guajaras قائدًا عاديًا بالمرية، وقام بحشد أهالى المدينة ورجاله وهاجم الأعداء فى فجر اليوم التالى، حيث ظنوا أنهم أرسلوا جنودًا لمساعدتهم فباغتهم وقتل الرامى وبعض الرجال منهم. قام منْ استطاع الهروب من الموريسكيين بالانضمام إلى جماعة الساحل el Cehel واتخذوا من أوكايد دى مورتيل Hocaido de Mortil قائدًا لهم واستطاعوا أن يستولوا على حصن كاستيل دى فييرو Castil de Ferro – التابع لدوق سيسا – رهينة وقاموا بقتل الأهالى وأبقوا ماتشين التويرتو Machin el Tuerto حيًا بعد أن استسلم لهم وخان العهد. ومن هناك انتقلوا إلى مورتيل وجمعوا فريقًا من الأهالى وحملوا معهم عائلات موريسكية، ثم عادوا إلى أدرا التى خرج منها غاسكا ومعه أربعون فارسًا وتسعون جنديًا مسلحين بالبنادق. وما كاد يبتعد عنها، حتى طلب من المختص بالنفخ فى البوق، وكان يُدعى سانتياغو Santiago أن يستنفر الناس إلى القتال، وأن يقوم بتجميع الأهالى. وكان الصوت شديد الارتفاع فسمعه الجنود وظنوا – كما جرت العادة فى إسبانيا – أنها نفرة الحرب فأسرعوا بالهجوم على الأعداء دون أى تنظيم، وانضم إليهم دييغو دى لا غاسكا. وتمت هزيمة المسلمين الذين انسحبوا وفروا فى اتجاه الجبل وخلّفوا وراءهم مائة من القتلى. وتزايدت هذه الأحداث يومًا تلو الآخر، وكثرت الأقاويل حول الضيق الذى يعانيه منْ هم بالبرج فى أورخيبا، وعن المساعدات الهائلة التى وعد مسلمو المغرب بإرسالها إلى الثوار فى المرية، ومناطق أخرى حيث كانوا يجتمعون بالبحرية

ولديهم عدد قليل من الجنود. وخشى الماركيز أن تصل الجموع إلى غرناطة فتتسبب فى إثارة الفوضى فى البيازين، ويساعدوا على ثورة قرى الغوطة، فتقوى شوكتهم كلما تطول فترة مقاومتهم مما يشجع الأتراك فى شمال إفريقيا على أن يحضروا سريعًا لمساعدتهم، وكلهم ثقة وأمل فى الانتصار فيقومون بتشييد الحصون ليحتموا بها، ولن ينقصهم رجال لهم خبرة بذلك وبالحروب يساعدونهم ليفوزوا بمُلك إسبانيا.

عندما كانت الأمور على هذا النحو جاء ابن أميه ومعه منْ رافقوه فى تابلاتى فبدأ مناوشة مع السيد دييغو دى كيسادا، وقتل عدد كبير من الأعداء فاضطر إلى ترك القنطرة والعودة إلى دوركال. وقد أدت هذه الواقعة وما حدث مع السيد دييغو إلى أن يخرج الماركيز من غرناطة مع منْ رافقه لمقاومة الأعداء إلى أن يأتى عدد أكبر فيتمكن من مقاتلتهم بالمستوى نفسه. وقد أسند حراسة المدينة وتأمينها – بعد أن زودها جيدًا بالإمدادات الكافية– وقصر الحمراء إلى ولده كونت تنديا لينوب عنه، وأسند إلى مراجع المدينة مهمة الحفاظ على الاستقرار وحُكم المدينة وإمدادها بالمؤن اللازمة، كما كلّفه بمراسلة الرئيس – الذى تبرز مهامه فى الأوقات الحاسمة– لموافاته بالأنباء. خرج الماركيز من غرناطة فى الثالث من فبراير (1569) بهدف إغاثة أورخيبا فوصل إلى اليندين Alendin ومنها إلى بادول Padul، وكان يصحبه ثمانمائة من المشاة ومائتان من الفرسان، فضلاً عن شخصيات هامة لم تعف من المشاركة فى الحرب على الرغم من ظروف السن المتقدم أو المرض أو الوظائف التى تشغلها فى المملكة، كانوا يتبعونه وينظرون إليه كما لو كان بمثابة منقذ البلاد، وقد نسوا جميعًا آلامهم أو أخفوها. توقف الماركيز عند بادول ورأى أن ينتظر هناك هؤلاء القادمين من أندلوثيا ويفتقرون إلى المال والزاد والمتاع، وشرع فى تلك المهمة مع العدد القليل الذى كان يصطحبه، إلا أنه عندما سمع ضرب البنادق فى دوركال ظن أن الأعداء قد هاجموا الحُراس بها فاتجه إلى هناك بجنوده، إلا أنه وجد أن الأعداء عندما سمعوا

أصوات الخيول وهى تطأ الحصى على جوانب النهر علموا بقدومه فانسحبوا إلى الوراء فى ظُلمة الليل تاركين المكان وحملوا معهم الجرحى فعزم على العودة إلى بادول وحشد الجموع عند دوركال حتى لا يترك فرصة لأعدائه لتنفيذ مؤامرتهم، وفى غضون ثلاثة أيام انضم إلى الماركيز أربعة ألوية قادمة من بائيثا Baeza ، فارتفع بذلك عدد المحاربين مع الماركيز إلى ألف وثمانمائة من المشاة وفرقة من تسعين فارسًا، وعندما بلغت الماركيز أنباء أورخيبا وأن ابن أمية قام بحشد الجموع ليمنعه من المرور من جسر تابليتى خرج من دوركال.

وفى تلك الأثناء كان كونت تنديا يقوم باستقبال وإيواء السادة والجموع التى أتت من المدن؛ ونظرًا لقلة منْ يتم الاستعانة بهم لمواجهة موريسكيى المدينة والموريسكيين القادمين من أماكن أخرى، بالإضافة إلى قلة منْ يمكن إرسالهم إلى أبيه لمساندته قام كونت تنديا بتعيين سبعة عشر قائدًا من بين أبناء السادة وفرسان المدينة والجنود -جميعهم من أهل الثقة – وقام بإيوائهم وإعاشتهم دون أجر.

توقف الماركيز تلك الليلة عند الشيتى بعد أن ترك حراسه عند دوركال ومن هناك انطلق فى اتجاه القنطرة.

وعندما كان قد بعث بفرقة من الفرسان يحملون البنادق ليحضروا وبصحبتهم منْ تبقى من الأشخاص الذين خلفهم وراءه، وما يعترض طريقهم من مصاعب، وعندما كان قد أمر الذين أتوا من أندلوثيا دون سلاح أن يعود إلى غرناطة، علم أن الأعداء ينتظرونه، بعضهم عند المنحدر والبعض الآخر عند نهاية القنطرة فشرعوا فى هدمها.

بلغ عدد الأعداء ثلاثة آلاف وخمسمائة رجلاً أكثرهم مسلحين بالبنادق والمجانيق، والآخرون يحملون مقالع وأسلحة بدائية. وبدءوا فى مناوشات مكثفة، إلا أن الماركيز عندما رأى بعض رماح الأعداء تصيب كتيبته تقدم إلى الأمام مع حرسه الخاص، وهاجم الأعداء وضيق عليهم حتى أجبرهم على مغادرة القنطرة.

وبذلك استطاع أن ينتصر تمامًا على الأعداء الذين انسحبوا فى فوضى إلى أعلى الجبل. وقد وصل بعض حاملى البنادق إلى لانخارون، ودخلوا إلى الحصن الذى كان بلا حراسة وأصلحوا الجسر بوضع الأبواب وأغصان الشجر وبعض الأخشاب التى جلبوها من تابليتى، فتقدم الفرسان إلى الأمام وظلّت بقية الجيش ساكنًة، حيث كان الوقت متأخرًا بالإضافة إلى أن الأعداء كانوا قد اختبئوا فى أماكن وعرة يصعب الوصول إليها بالخيول. وفى اليوم التالى ترك الماركيز القائد بالديبيا Valdivia وفرقته عند القنطرة لحماية موكب الحُراس الذين ينتقلون من غرناطة إلى البشرات لكونه معبرًا مهمًا. ثم سار فى اتجاه أورخيبا حيث كان الأعداء ينتظرونه فى الطريق عند شاطئ لا نخارون واختار فرقة من الفرسان حاملى البنادق وأرسلهم مع ابنه السيد فرانثيسكو وأمره بالتوغل فى أعالى الجبل، بينما أكمل هو سيره للأمام حيث كان الطريق مفتوحًا أمامه؛ لأن ابن أمية قام بإخلائه خوفًا من أن تسلب قواتنا منه الأماكن التى كان من الممكن أن يتخذها ليحتمى فيها، على الرغم من أنه فى اليوم السابق كان قد قام بإرساء قواته أمام معسكرنا، وكانوا يحملون مشاعل كثيرة ويعزفون الموسيقى الخاصة بهم، مهددين الأهالى ومنذرينها بوقوع المعركة فى اليوم التالى. وعندما وصل الماركيز إلى أورخيبا قام بإغاثة منْ فى البُرج، ولو تأخر قليلاً لكانت الهزيمة من نصيبنا لقلة الماء والمدفعية وعدم مقدرة الجنود على الحراسة والمقاومة.

أردت أن أذكر أحداث أورخيبا بوجه خاص؛ حيث شهدت كل الحوادث التى يمكن أن تحدث فى حصار مهم: حصار منْ بالداخل ومقاتلتهم والقضاء على الدفاعات، وخروج مجموعات من المحاصرين لمواجهة منْ قاموا بحصارهم، ثم قاموا بثقب الأسوار، لعدم وجود المدفعية اللازمة لتحطيمها، وقد غلبهم الجوع إلى أن تم إنقاذ المحاصرين بنفس القدر والمستوى الذى يتم به إنقاذ المُدن أو القلاع الهامة حيث تجمعت فرقتان من المحاربين إحداهما لشغل الأعداء، والأخرى لإنقاذ منْ فى البرج، ونشوب معركة اشترك فيها شخص يحمل لقب ملك.

وبعد أن تم إنقاذ أورخيبا وإمدادها بالمدفعية والمؤن والأشخاص اللازمة لتأمين الجيش، أمر الكونت ابنه بقيادة أربع كتائب من الفرسان وواحدة من المشاة إلى غرناطة لتأمين المدينة، بينما توجه هو إلى بوكيرا Poqueira حيث علم أن ابن أمية قد توقف هناك لبدء معركة.

انضمت إليه فرقتان، إحداهما من المشاة والأخرى من الفرسان أتته من قرطبة. وبالقرب من النهر الذى يفرق بين أورخيبا وبوكيرا وجد الأعداء عند المعبر الذى يُدعى ألفاخارالى Alfajarali. وقد بلغ عدد المقاتلين الأساسيين أربعة آلاف وكان عدد الجنود كبيرًا عند الجناحين وقد شكلوا جناحا رفيعا فى الوسط. وفى الجانب الأيمن- تحت الربوة- كانت هناك كمائن مكوّنة من خمسمائة من حاملى البنادق والأقواس الفولاذية، بالإضافة إلى كمين آخر فى قاع الهوة بعد النهر يضم عددًا أكبر من الأشخاص. أما عن قوات الماركيز فكانت مكوّنة من ألفين من المشاة وثلاثمائة فرس فى كتيبة هائلة مزودة بالبنادق وغيرها تحسبًا لصعوبة الطريق. وتم تقسيم الفرسان ما بين مؤخرة الجيش وجزء آخر خُصص ليسير على الأرض الممهدة مما يسمح باستخدام الخيول، وفى الوقت ذاته كانوا مزودين بالمشاة أيضًا حيث إن المنطقة هناك كانت وعرة. فى تلك الأراضى كانت الخيول تستخدم أكثر لترهيب الأعداء أكثر من استخدامها للقتال، إلا أنها أيضًا كانت لها فائدتها. أرسل الماركيز فرقتين من الجيش من حاملى المدافع ومائة فارس بصحبة ابنه السيد فرانثيسكو إلى قمة الجبل، الذى سار هكذا، وبعد أن عبر النهر خرج منه ليدخل فى مناوشة مع الأعداء الذين ظنوا أن جنودنا مُتعَبين فقاموا بمهاجمتهم من الأمام ومن الجانب ومن المؤخرة فى وقت واحد؛ فقام الكونت بمبارزتهم فى جميع الاتجاهات لمدة ساعة وهاجمهم من ظهورهم بنفس الكفاءة الحربية والخطورة. وكانت إحدى فرق حاملى البنادق فى اضطراب وكذلك الفرسان، ولكن الماركيز قام بإنقاذ الفرسان وأرسل محاربين ممنْ معه لإغاثة المشاة.

وعندما رأى الأعداء أن حاملى البنادق من قواتنا سوف يستحوذون على أعالى الجبل أسرعوا بالدخول إليها بعد أن وجدوا أنفسهم قد هُزموا، تاركين الطريق دون تأمين. وقد تتبعهم رجالنا إلى ما يقرب من نصف فرسخ إلى مكان يُدعى لوبين Lubien، لكن الليل والتعب أعاقاهم عن التقدم للأمام. عند معاودة الاشتباكات قُتِلَ من الأعداء حوالى ستمائة رجل، ومن رجالنا سبعمائة، وكان هناك العديد من الجرحى من حاملى البنادق ومن حاملى السهام. وقد أبلى السيد فرانثيسكو دى مندوثا ابن الماركيز، والسيد ألونسو بورتو كاريرو Alonso Portocarrero وغيرهم ممنْ كانوا معهم بلاءً حسنًا ذلك اليوم. وعندما حوصر السيد فرانثيسكو وأبعد عن مكانه، دافع عن نفسه بشدة مُلحقًا أضرارًا جسيمة بالأعداء ومخترقًا صفوفهم.

وقد حارب السيد ألونسو بالرغم من إصابته بسهمين من السهام المسممة بالأعشاب التى كانت تُستَخدم قديمًا فى الصيد، حتى سقط. ولأن هذه الطريقة فى القتال قد أصبحت غير معتادة حيث حلّت محلها البنادق- كما هى العادة عندما تُستَحدث أشياء جديدة فيبطل استخدام ما هو قديم- فسأتحدث عن طبيعة هذه السهام. هناك نوعان منها، أحدهما يُصنع فى قشتالة فى جبال بيخار Bejar، وغوادراما Guadarrama - كان القدماء يُطلقون عليهما جبلى أوروسبيدا Orospeda وأيدوبيدا Idubeda حيث كان يتم طهى نبات يُطلق عليه باللغة الرومانية واليونانية elébro negro، حتى يصبح كالحزمة، فيقوموا بمعالجته بتعريضه للشمس حتى يُصبح غليظ القوام وصلبًا وله رائحة قوية وشديدة ولون داكن يميل إلى الشقرة.

النوع الآخر من السهام يُصنع فى الجبال الثلجية بغرناطة، باستخدام نفس الطريقة السابقة، ولكن من نبات يسميه المسلمون زهج الغار rejalgar وهو يقتل الذئاب، ولونه أسود وله رائحة نفاذة وهو ينتشر سريعًا ويُتلف جزءًا كبيرًا من اللحم. والمخاطر التى يسببها هذان النوعان واحدة وهى الشعور بالبرودة والتثاقل

وفقدان البصر وتهيج فى المعدة وغثيان، وخروج زبد على الفم وانهيار فى القوة حتى السقوط.

عندما يختلط السم بدم المصاب بالسهم وحتى لو كان الدم سائلاً خارج الجسم، فإن السم يدخل الجسم إذا تراجع الدم ويصل عن طريق الأوردة إلى القلب يستحيل مع ذلك إنقاذ المصاب. ولكن قبل وصول السم للقلب يمكن علاج المصاب عن طريق مص السُمْ وطرده خارج الجسم وهى طريقة للعلاج بها مخاطرة. ويطلقون فى مصر على منْ يقوم بهذا العلاج اسم "سيلوس" psylos. ويُعد عصير السفرجل هو العلاج الخاص لهذا السُمْ؛ حيث إنه مضاد لهذا النبات؛ فعندما يوضع على المكان الذى به السُمْ برائحته النفاذة يضعف من قواه. ويُستخدم أيضًا عصير الرتم لمعالجة هذا السُمْ إذ إنى رأيت بنفسى كيف تُطحن أوراقه على الجرح على قدر المستطاع حيث يتم البحث عن السُمْ ثم طرده خارج الجسم. وهذه هى طرق تجهيز هذا السُمْ الذى يقومون بدهن السهام به بعد لفها بالكتّان حتى يتم تثبيته جيدًا بها.

إن بساطة أجدادنا الذين لم يعرفوا طرقًا لقتل الأشخاص سوى استخدام الحديد، جعلتهم يطلقون على أنواع السموم أسماء نباتات. وكان ذلك شائعًا قديمًا فى جبال أبروزو Abruzzo وكانديا وجبال فارس، وهنا فى جبال الألب – والتى يُطلقون عليها مونسينيس – هناك عُشب مختلف قليلاً، يُطلقون عليه طورا Tora ويستخدمونه فى الصيد، وعُشب آخر يُدعى أنطورا Antora وهو مضاد لهذا السُمْ ومعالج له.

دخل الماركيز إلى بوكيرا وهو مكان حصين به مقاومة ضعيفة لا تستطيع الصمود أمام قوى كبيرة. وقد اتخذ المسلمون هذا المكان لحفظ ثرواتهم ونسائهم وأولادهم وأسلحتهم وحمايتها، وقد تم الاستيلاء على ذلك كله، وقام الجنود بسلب كميات كبيرة من الذهب والملابس والعبيد، وتم استغلال المؤن بقدر المستطاع. لكن السرعة فى تتبع الأعداء –حتى لا يمكنهم التحصن فى أى مكان– وقلة ما لدى

الجنود لحمل هذه الأشياء،وقلة الأشخاص التى تقوم على حراستها، كل ذلك أدى إلى قيام الجنود بحرقها حتى لا يستفيد الأعداء منها. ترك الماركيز فى اليوم التالى بوكيرا وذهب إلى بيترس حيث توقف هناك لمداواة الجرحى وأعطى مالاً للكثير من الأسرى المسيحيين الذين تم فك أسرهم، وقام بتنظيم الحراس والاستماع إليهم. وقد وصلت إلى هذا المكان فرقتان من قرطبة إحداهما من الفرسان والأخرى من المشاة.

وفى هذا المكان علم الماركيز بنبأ أن ابن أمية ينتظره بعدد كبير من الجنود عند ميناء خوبيليس وهو مكان كانوا يرون أنه من الصعب المرور منه دون أن تلحق بهم الهزيمة. ولكن الأعداء أرادوا الفوز بالغنائم، فقامت خمس ألوية منهم يبلغ عدد رجالها ثمانمائة رجل بنهب معسكرنا. وفى ظهيرة اليوم التالى انتهزوا الضباب ووقت تناول الغذاء وهاجموا من ثلاث جهات وتمادوا فى هجومهم حتى اشتبكوا مع جنود الحراسة الذين قاوموهم وألحقوا بهم خسائر كبيرة حيث فقدوا أشخاصًا ولوائين، ومن جانبنا كان هناك بعض الجرحى. وبعد أن استراح الجنود واستعادوا نشاطهم خرج الماركيز لقتال ابن أمية بعد أن ترك الجرحى ومنْ أصابهم الاضطراب تحت حماية جيدة. واختار الماركيز طريق تريبيليث Trevélez الوعر عند قمة جبال بوكيرا حيث قام بعض المسلمين الشاردين بإحداث اضطراب فى مؤخرة الجيش، ولكن دون وقوع خسائر. وقد قضى الماركيز هذه الليلة خارج تريبيليث على الجليد منشغلاً بالتجهيزات للقاء العدو وفى برد شديد. حضر إلى بيتريس Pitres رسول من عند الصغير–والذى كانوا يدعونه ابن جوهر وهو عم ابن أمية وأحد قواده– يطلب منه ملاحظات لإقامة السلام بينهما، ولكن الماركيز حمله معه وأجابه قائلاً: « إننى أفكر فى الرد عليه سريعًا بما يتماشى مع واجبى أمام الرب والملك».ويُقال إن الصغير كان متخوفًا، يفكر فى أن ابن أمية سيقوم بقتله.

واصل الماركيز سيره إلى خوبيليس مع فرقة من المشاة وأخرى من الفرسان أتت من إثيخا، يقودها تيو دى أغيلار Tello de Aguilar. وعندما وصل الماركيز عند مشارف خوبيليس خرج عجوز مسيحى مع ثلاثة من المسلمين لتسليمه القلعة، وكان بداخلها نساء المسلمين وأبناؤهم الذين كانوا مع ابن أمية فى المعركة – فالنساء والأطفال يعدون شخصيات تشكل مسئولية وعائقًا فى المعارك– وبعض المسلمين المسالمين، فقام الماركيز بإصدار أمر بأن يتم إرسالهم إلى خوبيليس لعدم توافر منْ يقوم على حراستهم، والخوف من أن يهربوا ويصلوا إلى الأعداء. وحدث أن قام أحَد الجنود المتطاولين بتفتيش إحدى النساء ليرى ما إذا كان معها نقود فقام أحد الموريسكيين – ويبدو أنه كان زوجها أو أحد أقاربها– بالدفاع عنها فنتج عن ذلك الشجار أن قُتل جميع الموريسكيين تقريبًا وقُتلت نساء كثيرات ووقع بعض الجرحى من رجالنا، حيث إن ظلمة الليل أدت إلى أن يتخبط الجمع فيلُحقون الضرر ببعضهم البعض. ويُقال إن بعض الأشخاص من الأعداء حاولوا التسلل بين قواتنا واستغلال هذه الفرصة ليُحدثوا اضطرابا فى صفوف الجيش، ويُقال إن المسلمين كانوا يشعرون بالندم بعد قيام الصغير بهذا الاستسلام، فقام آباء وأخوة وأزواج المسلمات بالسعى إلى طلب فك أسرهن، لكن الظلام كان شديدًا والاضطراب يعم المكان فلم يقدر أى قائد أو جندى على تفادى الخسارة.

فى أثناء وقوع أحداث البشرات- كما ذكرنا من قبل- اجتمع حوّالى خمسمائة مسلم يقودهم اثنان: خيرون دى لاس البونيويلاس Giron de las Albuñuelas وناكوث دى نيغويليس Nacoz de Nigüeles ليتفقدوا الحراسة التى تركها الماركيز عند جسر تابلاتى Tablate ، وكانوا على يقين من أنهم إذا تمكنوا من إبعاد هذه الحراسة عن الجسر فسيقطعون الطريق والإمدادات عن الجنود وبذلك يصبح جيشنا بلا أسلحة فيُهزم.

وعندما وصلوا إلى الجسر وجدوه خاليًا من الناس. إلا من بعض الأشخاص غير المنتبهين فقاموا بالهجوم عليهم ولاذوا بالفرار. ظل جزء منهم يسير حتى وصل إلى غرناطة وكثير منهم مات دون الاشتباك فى قتال، والجزء الآخر اختبأ فى كنيسة إلى أن ماتوا محترقين، وبذلك أصبح الجسر فى أيدى الأعداء. إلا أن كونت تنديا عندما علم بهذه الأنباء أرسل على عجل فى طلب السيد ألبارو مانريكى Álvaro de Manrique، وهو قائد ماركيز بلييغو Pliego، والذى كان موجودًا بالقرب من غرناطة ومعه ثلاثمائة من المشاة وثمانون فارسًا. حضر السيد ألبارو إلى جسر (شنيل) فى الفجر، حيث كان الكونت ينتظره ومعه ثلاثمائة من المشاة ومائة وعشرون فارسا. وعندما علم الكونت بعدد جيش الأعداء ترك الجنود وأصدر أمرا إلى السيد ألبارو بأن يحارب الأعداء ليحمى ظهره ومنْ بقى معه من الجنود ويسد الطريق حتى يمكنهم من المرور والذهاب للقاء الماركيز. وقد أدى السيد ألبارو مهمته، حيث وجد الجسر خاليًا بعد أن تركه المسلمون.

وصل إلى خوبيليس السيد دييغو دى مندوثا حيث كان الملك قد أرسله ليستعلم عن أخبار الحرب وكيف تسير الأمور مع الماركيز، وكافة الأحوال، وذلك لأن الأنباء كانت متباينة فأدت إلى حدوث خلل فى التوقعات، فكان هناك الكثير من

الأشخاص التى تلقى باللوم أو الاتهام للمسئولين، وكانت انتقادات تلك الأشخاص بسبب أنها كانت ترمى إلى أهداف معينة أو لتعاطفها مع بعضهم أو لمجرد رأيها أو بدافع الأحقاد.

غادر الماركيز خوبيليس وذهب إلى كاديار حيث قتل هناك القائد إيريرا Herrera، ومن هناك اتجه إلى أوخيخار، وفى الطريق هاجم كهفًا كان الموريسكيون قد احتموا فيه مع زوجاتهم وأبنائهم، فقاموا بإخراجهم باستخدام النيران والدخان وأسروهم. وفى أثناء وجود الماركيز فى أوخيخار علم أن ابن أمية قد جمع قواته وينتظره عند معبر باتيرنا على مسافة ثلاثة فراسخ من أوخيخار، فاتجه إلى هناك فى الحال. وفى الطريق جاء إليه بعض المسلمين من طرف ابن أمية يحملون إليه مجددًا رغبته فى السلام، لكن الماركيز لم يرد عليهم وحملهم معه حتى التقى بطلائع الأعداء. وعند مضيق بجوار إنيينا Iñiza قاتلوا بضراوة شديدة حيث كان عددهم يفوق خمسة آلاف رجل، مزودين بأسلحة أكثر من التى كانت لديهم فى خوبيليس، إلا أنهم هُزموا جميعًا، واستسلموا بعد أن تصدى لهم السيد ألونسو كارديناس – كونت لابوبيلا– ومنْ معه من الفرسان. وتوقف القتال بسبب حلول الظلام. وقد أرسل الماركيز مائتى فارس ليقوموا بتتبع الأعداء حتى المناطق الثلجية والوعرة من الجبال فقاموا بقتلهم وأسرهم. وبعد مرور ساعتين على حلول الظلام توقف الماركيز فى إنيينا، وفى اليوم التالى قدم إلى باتيرنا وقام بنهبها حيث وجد جنوده فيها ثروات لا تقل عما سلبوه فى بوكييرا. وتلى ذلك أن قام ابن أمية بالاشتباك مع جنود الماركيز فى باتيرنا، حث كان الماركيز قد غادر إلى أنداراكس لمطاردة منْ تبقى من الأعداء، حيث سبقته مجموعة من المشاة والفرسان للبحث عنهم فى السهل والجبل، بالقرب من البحر وهى منطقة جبلية تجود فيها تربية الماشية وصيد البر والبحر بالرغم من خلو بعض المناطق بها من الماء. ويذكر المسلمون أن تلك المنطقة مِلك الكونت خوليان "الخائن" ومازال بها وبالقرب منها بعض الآثار التى تحمل اسمه مثل: البرج وممشى خوليانا وكاستيل دى فيّرو.

وعندما وصل الماركيز إلى أنداراكس، أرسل ابنه السيد فرانثيسكو مع أربع فرق من المشاة ومائة من الفرسان إلى أوهانيث Ohánez، حيث كان يعلم أن هناك عددا من الأعداء مختبئًا بها ولكن أتته أنباء من قائد أدرا أن بها عددا قليلا من الأعداء، بالإضافة إلى أنه كان محتاجًا إلى الأسلحة فأمر ابنه بالعودة. أمر أيضًا بجمع أعداد كبيرة من الأسرى المسيحيين وإرسالهم إلى غرناطة بعد أن فك أسرهم فى القرى التى انتصر فيها واستسلمت له، وقام بالسيطرة على المناطق التى استسلمت له دون شروط. وفى أدرا كان دييغو دى لا غاسكا يخشى أن يقوم مواطنو تورون Túron – وهو مكان فى السهل به منْ استسلم من المسلمين – بإيواء أعدائنا من المسلمين فقام بنفسه بمحاولة التأكد من هذا الأمر حتى يُبلغ به الماركيز فذهب مع منْ كانوا معه، وعندما لم يجد أحدًا دخل إلى أحد البيوت التى كان قد خرج منها أحد المسلمين وأعطاه رسالة وهمية، وعندما حاول دييغو دى لا غاسكا فتحها، قام الرجل بطعنه فى بطنه وقام بجرح جنديين قبل أن يقوموا بالإجهاز عليه. مات لاغاسكا من أثر الجراح، وكان قد أوصى قبل موته بأن تُوزع الغنائم التى جمعها فى المعارك على الجنود الفقراء والأيتام وعلى أرامل ونساء وبنات الجنود. وقد كان عمه غاسكا، هو قس سيغوينثا Sigüenza، الذى انتصر على أتباع البيثارو(*)، وكان سببًا فى أن تنعم مملكة بيرو بالسلام.

وفى الوقت نفسه كان السيد لويس فاخاردو– ماركيز بيليث– وهو سيد عظيم فى مملكة مورثيا (وكان رئيس غرناطة قد أرسل فى طلبه كما ذكرنا من قبل) قد خرج مع أصحابه وأقاربه والمقربين إليه ليدخل فى نهر المرية، وكان معه ألفان من المشاة وثلاثمائة فارس معظمهم ممنْ تم اختيارهم جيدًا. وفى أول يوم اشتباك بينه وبين الأعداء، كان عليه التصدى لمجموعة كبيرة من المسلمين الشاردين فى إيبار Illar ومن هناك انطلق إلى فيليكس Filix حيث فرض سيطرته عليها ونهبها،

(*) هو بدرو دى لا غاسكا الذى أرسله ملك إسبانيا للقضاء على التمرد الذى قاده غونثالو دى بيثارو فى بيرو. (المراجع)

وحصل رجاله على ثروات كثيرة منها، وقاتلوا بثبات وإصرار متحدين الأخطار. وقد مات الكثيرون من الأعداء، أغلبهم من النساء، ومات قائدهم وكان يُدعى فوتى Futei وكان من ثينيتى Cenete.

وبعد هذه الأحداث- ونظرًا لنقص المؤن- قام السيد لويس بالتوجه إلى بعض الأماكن القريبة من نهر المرية من أجل حماية نفسه ومنْ معه. توجه بعد ذلك إلى كوساردى كانخيار Cosar de Canjáyar - ويدعونه فى اللغة الموريسكية "وادى الجوع" حيث إن المسلمين عندما انتصر الملك فيرناندو الكاثوليكى فى واقعة أنداراكس وقت الانقلاب الأول للموريسكيين ذاقوا فيه جوعًا شديدًا مما أدى إلى موتهم كلهم تقريبًا.

وقد أثار سقوط لوكيرا وخوبيليس Jubiles وباتيرنا Paterna خوف الأعداء، لأن هذه المناطق كانت تشتهر بمناعتها. غضبوا لفقدانهم جميع ثرواتهم، فبدءوا باللجوء إلى مناطق وعرة، وشغل قمم الجبال والمناطق الصخرية محاولين تقوية أنفسهم وفقًا لما يرونه كافيًا للوصول إلى ذلك. ولكنهم كانوا يفتقدون إلى الحنكة، بل كانوا يعتمدون فى حمايتهم على تشتتهم وترك الجبهة لأعدائهم ومهاجمتهم من الخلف متخذين شكل الهروب.

وقد رأى الماركيز بعد هذه الأحداث أنه قضى على الموريسكيين تمامًا فى البشرات، وعندما عاد أدراجه ومرَّ بأنداراكس وكاديار عاد إلى أورخيبا وذلك لوجودها فى مقاطعة تطل على البحر ونهر المرية وغرناطة والبشرات. وفى تلك الأثناء، وبالرغم من أن الثورة فى البشرات كانت تبدو أنها أخمدت، فإنها تمددت فى مناطق مختلفة، ففى جهة الغرب عند ناحية لاس غواخاراس Las Guájaras وفى ثلاث مناطق صغيرة متجاورة تقسم بين أراضى المونييكار Almuñecar وأراضى بال دى ليكلين Val de leclin وهى تقع فى الوادى المؤدى إلى ميناء إيرَّادورا Herradura والذى حزن لغرق السيد خوان دى مندوثا Juan de Mendoza، وكان قائدًا لثلاث وعشرين سفينة غرقت بأكملها. وقد كان السيد

خوان رجلاً لا يقل براعة وحماسًا عن والده السيد بيرناندينو وغيره من أجداده الذين أثبتوا شجاعتهم فى كثير من المواقف.

وقام سيد أحد تلك المناطق الثائرة –رغبة منه فى التهدئة أو فى السرقة والقبض على الناس– بجمع ما يقرب من مائتى جندى من المتناثرين فى الساحل، وأجبر الناس على إيوائه وتقديم المساعدة له.

ولكن عندما رأى المسلمون ذلك العنف، انتظروا حتى حلول الليل وهاجموه بغتةً هو ومنْ كانوا معه، ثم توجهوا إلى الكنيسة حيث قاموا بحرقه هناك هو ومنْ كانوا فى صحبته. لم يكن لدى هؤلاء المجرمين وقت كاف حتى يفكروا فى شىء أفضل من أن يحشدوا الجموع حيث توافد عليهم ثلاثة آلاف – من جميع الأعمار– من قريتين مجاورتين من بينهم ألف وخمسمائة رجل من المسلحين بالبنادق والسهام والرماح، وجزء منهم مسلحين بالمقالع، وكان يحركهم الغضب فتوجهوا – دون أن يتخذوا قائدًا لهم – إلى مرتفعين، أحدهما عال يصعب الصعود إليه، والآخر أقل ارتفاعًا وأكثر انبساطًا. وضعوا حراسة عند هذين المرتفعين فاحتموا بهما وقاموا بترميمهما (ص٨٧) فأصلحوا جزءًا بالحجارة الصماء، وجزءًا بالأغطية والخيم لتواريهم نظرًا لافتقار المكان للأغصان والتراب. تحصنوا فى هذين المكانين للاحتماء بهما، وانضم إليهم بعد ذلك بعض قُطَّاع الطرق أمثال خيرون Giron و ماركوس الزمَّار Marcos el Zamar وبعض القواد والرجال الذين جذبتهم حصانة المكان وتهيئة المنطقة و(الطمع فى الغنائم). تم إبلاغ الماركيز وكان يزور القرى ولا يعلم بما يحدث؛ فلما رأى أن الثورة قد بدأت تشتعل فى مناطق خطيرة ساحلية ذات أهمية وبها حماية قليلة، خشى أن يقوم الأعداء بالهجوم على جبال بنتوميث Sierra de Bentomiz أو على لا أويا La Hoya وخاركيا دى مالقة Jarquía de Málaga ففكر فى أن يرحل بصحبة حوالى ألفين من المشاة ومائتين من الفرسان، وطلب من الكونت أن يمده بعدد أكبر من المشاة والفرسان، وقد كان أغلبهم من محبى المغامرة ومن العاملين بمجلس

البلدية. اختار الماركيز طريق لاس غواخاراس تاركًا وراءه قرى مثل أوانيث وبالور إل ألتو التى كان أهلها على وعى بما يحدث ولم يكن بها أحد تقريبًا، حسب ما قيل. رأى البعض أن الماركيز كان بإمكانه إرسال أى شخص آخر أو ابنه الكونت بدلاً منه، لكنه آثر أن يقوم بأداء هذه المهمة مع خطورتها، إما لأن الملك عندما رأى خطورة الموقف لم يرسل رفيقًا له فأرسله هو شخصيا، وإما لأنه أراد أن يغرى الناس بجمع الغنائم. هذا ما يؤدى إليه الطموح، فلأن الطموح محمود فسعيه وراء المديح جعله يحجب حتى ابنه عن هذه المهمة. وقد بدا إخراج الكونت من غرناطة ، وهو الذى يحمى المدينة ويمده بالمحاربين والأسلحة أمرًا محفوفًا بالمخاطر، فكان يجب أن يتقاسم الأمر مع شخص آخر بالرغم من كثرة عددهم وكفاءتهم إلا أنهم كانوا قليلى الخبرة.

دارت كل هذه الأفكار برأس الماركيز ولكنه كان سريعًا جدًا فى اتخاذه للقرار حيث إنه باغت الأعداء قبل أن يفكروا فى أنه قد خرج للقائهم. شارك فى هذه المعركة كثير من الشخصيات الهامة من مملكة غرناطة وأندلوثيا، والتى سنشير إليها فى حينه. غادر الماركيز أنداراكس، ودون أن يضيع الوقت توجه من كاديار إلى أورخيبا، وتزود بالأسلحة عند بيليث بن عبد الله Vélez Benabdlá ثم عبر نهر مورتيل Río de Mortil. وكان المشاة يسيرون خلف الخيول، وتوقف عند لاس غواخاراس فى منتصف الطريق بين المدينتين.

قدم السيد ألونسو بورتو كاريرو - بعد أن شفى من جراحه- وبصحبته ألف جندى ولواءان من المشاة ومائة وخمسون فارسا كلهم من غرناطة، أرسلهم كونت تنديا، وكان معهم كونت سانتيستبان بصحبة الكثير من أقاربه وأصدقائه ومنْ هم تحت إمرته. لكن عندما فوجئ الأعداء بهذا الجيش، سلكوا طريق الصخور وشوهدوا وهم يصعدون الجبل ومعهم نساؤهم وأبناؤهم. وعندما وجد الماركيز أنهم يحتمون بالأماكن المنيعة أرسل فرقة من حاملى البنادق لمطاردتهم والقضاء عليهم إذا استطاعوا. وبعد قليل أتاه جندى أرسله قائد الفرقة ليخبره بكثرة عدد المسلمين

وقلة منْ هم فى هذه الفرقة وأنهم لا يستطيعون مطاردة الأعداء حتى لا يقوموا بمهاجمتهم، ولا يريدون الانسحاب حتى لا يقوم الأعداء بالفتك بهم، وقام بطلب إمداده بألف رجل سواء للهجوم أو للانسحاب؛ فقام الماركيز بإرسال بعض حاملى البنادق معه، واستطاع أن يتبعه مع رجاله حتى وصلوا فى نظام إلى لاس غواخاراس المرتفعة، لكى يحمى ظهره، وأقام هناك تلك الليلة، وكان يعانى من ضعف فى إمكانيات جيشه، لكن الجيشين لم يشعرا بالخوف، إذ كان جيشنا واثقًا من النصر، وكان الأعداء واثقين من قدرتهم فى الدفاع عن أنفسهم.

كان من بين منْ أتوا للمساعدة السيد خوان دى بيارويل Juan de Villarroel ابن السيد غارثيا دى بيياروبل، وكان من كاثورلاCazorla وكان عمه (حسب ما يُقال) الراهب فرانثيسكو خيمينيث Francisco Jimenez كاردينال وأسقف طليطلة وحاكم إسبانيا فى الفترة ما بين موت ملك إسبانيا الكاثوليكى فيرناندو وحكم الإمبراطور كارلوس. وكان آنذاك قائدًا على المرية ونائبًا عامًا فى الجيش، وهو رجل ذو خبرة واسعة، فى معارك كثيرة ضد المسلمين، وكان صاحب مشورة صائبة وخطيرة، حيث اكتسب ثقة باكتشافه لأخطاء قادة آخرين، وكان يُستمع إلى مشورته. وفى نهاية الأمر كانوا يقومون بمكافأته. وقد دفعه طموحه إلى كسب شهرة أوسع إلى أن يستغل هذه الفرصة فظل طوال تلك الليلة، يحاول إقناع الماركيز بأن يرسل معه خمسين جنديًا لاستطلاع مخابئ العدو الحصينة وتعلل بأنه من الصعب رؤية المعبر المؤدى إلى الجبل العالى، فوافق الماركيز وبدا أنه يسند إليه هذا الأمر كنوع من التصريح وليس على سبيل التكليف. وقد قام بتنبيهه ألا يقوم بالمرور من الربوة المرتفعة التى تقع بين موضع إقامة الأعداء والطريق الوعر، وألا يصطحب معه أكثر من خمسين جنديًا من حاملى البنادق، وهو نوع من الحرص الذى عادة ما كان يُتبع مع القادة الذين يخوضون أمورًا عظيمة وخطيرة. لكن السيد خوان بعد عبور الربوة، صعد خلال الطريق الوعر دون أن يتوقف على الرغم من تنبيه الماركيز له، وتبعه الكثير من

الشخصيات المهمة وغيرهم ممنْ خالفوا أوامر الماركيز، إما لثقتهم الشديدة فى السيد خوان أو لطمعهم فى الفوز بالغنائم. وقد بلغ عدد منْ واصل الصعود معه أكثر من ثمانمائة شخص. ولم يستطع الماركيز منعهم حيث إن السيد خوان عندما رأى تزايد أعداد منْ أتوا معه ازداد ثقة فى قدرته على النصر واعتبر نفسه سيد هذه المعركة دون أن يعبأ بأوامر الماركيز، أو بما يجب فعله فى مثل هذه الأمور فأصبح منْ معه غير مكترثين بالأوامر واتبعوا أهواءهم، فصعدوا مع الماركيز الذى تابع الصعود بحماس وسرعة منْ يجهل مصيره. إلا أنه بعد قليل بدأ يشعر بالضعف والإجهاد.

وعندما رأى الأعداء الاضطراب الذى يعم الجنود تظاهروا بأنهم يختبئون أسفل الجبل وأنهم يقومون بالهرب، فظن رجالنا أنهم يلوذون بالفرار فأسرعوا من سيرهم، فاشتد الإجهاد، وكانت تُسمع أصوات البنادق المتفرقة وأصوات الرجال الذين عمتهم الفوضى، فيما بين مهاجم ومتوقف، ومنْ يقوم بحركات حسب هواه، فبدا الثمانمائة جندى وكأنهم ثمانمائة قائد كلٌ له اتجاهه وطريقته. لم يكد الجنود يصلون إلى منتصف الطريق حتى بدءوا فى طلب الإمدادات والمساعدة، وعندما سمع الأعداء ذلك – وهو أمر شديد الخطورة فى هذه المواقف – ورأوا أن الفوضى تعمهم، قام أربعون منهم على رأسهم الزمَّارel Zamar بالانقضاض عليهم، وعلى الرغم من قلة أسلحتهم وضعف هيئتهم فإنهم كانت تساعدهم الأحجار التى كانوا يرمونها من على الجبل ناحية الطريق الوعر، بالإضافة إلى انضمام بعض الأشخاص إليهم. ساعد ذلك على أن يقوموا بالهجوم على رجالنا هجومًا يصعب صده، جعلهم يتقهقرون للخلف دون أى محاولة للمقاومة حتى من جهة الجنود المألوف ثباتهم فى هذه المواقف، إلا أن الأعداء تابعوا هجومهم واللحاق بهم. وأخذ المسلمون فى التزايد والقتال إلى أن وصلوا قريبًا من النهر. قُتِلَ السيد خوان دى بياريال بعد أن انطفأت حماسته وتم ذلك – كما يقولون– وسيفه فى غمده وقد شجت السكاكين رأسه ويديه، وقُتل أيضا السيد لويس بونثى دْى ليون Luis

Ponce de león – وهو حفيد السيد لويس بونثى– فبعد أن تمت إصابته فى مقتل وقع على الأرض فأسرع عليه أحد خدمه لإنقاذه، كما قُتل خوان رونكييو Juan Ronquillo ، مفتش الحرف بغرناطة، بالإضافة إلى الابن الوحيد لإيرناندو دى أورونيا Hernando de Oruña، وهو أحد قادة الجيش وقد رآه أبوه وهو يحارب فى المعركة. وقد قُتِلَ الكثيرون فى ذلك اليوم، وفاق عددهم منْ كانوا يقومون بمطاردتهم، وسقط بعضهم من شدة الإعياء. أما الباقون فقد نجوا ومن بينهم السيد خيرونيمو دى باديا Jerónimo de Padilla وهو ابن غوتييرى لوبيث دى باديا Gutierre López de Padilla، الذى جُرح واستمر فى القتال حتى سقط، وقام عبدٌ له كان قد أعطاه حريته بجره من رجليه حتى أخرجه من ساحة القتال. وعندما رأى الماركيز الاضطراب وتزايد أعداد المسلمين وتقدمهم الملحوظ، وأنهم أصبحوا على مقربة منه ويريدون أن يهاجموه من الخلف، وكانوا متجهين إلى الطريق الوعر الذى يعلوه، قام بإرسال السيد ألونسو دى كارديناس Alonso de Cárdenas مع منْ استطاع أن يجمع من حاملى البنادق. وكان السيد ألونسو رجلاً ماهرًا ذا خبرة فى المعارك، فتدارك ما حدث وقام بتأمين أعالى المكان الذى كان الماركيز موجودًا به.

كان الماركيز مترجلاً بين الفرسان وكانت الحراب فى وضع التأهب، ويسانده بعض حاملى البنادق وكان ينتظر الأعداء ويتلقى الأشخاص الذين عادوا وقد خارت قواهم. وقد استطاع الماركيز بموقفه هذا وبحكمه لزمام الأمور أن يوقف غضب بعض الأشخاص، وأن يوقف ويؤمن البعض الآخر، ولم يكن ذلك يخلو من تعرضه للخطر وللمشقة. وفى صباح اليوم التالى قدمت مؤخرة الجيش وكان قوامها خمسة آلاف وخمسمائة من المشاة، وأربعمائة فارس وهى فرقة كافية لمهمة كبيرة كهذه إذا ما أخذنا فى الاعتبار عدد الجنود فحسب. أمر الماركيز كتيبة واحدة فقط بالتحرك؛ خوفًا من فقدان عدد كبير من الجنود كما حدث فى اليوم السابق، وأمد جانبى جيشه بخط طويل من حاملى البنادق. لم يكن هناك على جانبى

الجبل أية طرق ولكن كان هناك مخرج ممهد أكثر عند الطريق الموازى للجبل، حيث وضع عنده جزءًا من الفرسان والمشاة ولكن متوازيين، حتى لا يراهم الأعداء وبذلك يتمكنون من سد مخرج الهروب عليهم. عندما يجد المسلمون أنفسهم محبوسين تكون لديهم حماسة وعزم على الخروج، أما عندما يجدون مخرجًا فإنهم سيحاولون الفرار للنجاة بأنفسهم دون أن يعرضوا أنفسهم للعدو، لذلك فإنه يجب فتح طريق أمام المسلمين للانسحاب.

قام الماركيز بمهاجمتهم استنادًا لهذه الخطة واستمر فى القتال بثبات حتى حلَّ ظلام الليل، وكان البعض يشعر بحماس شديد والآخرون يحسون بالمهانة لهزيمتهم فى اليوم السابق. أمر الماركيز بجمع القوى وأقام بجوار الحصن وكلَّف منْ كان قد استراح بالقيام بالحراسة.

عند حلول الظلام شعر الأعداء بالخوف من السرقة والأسر والقتل،وهذا الخوف سبب لهم الاضطرابات والخلافات، فبدءوا كالمتحمسين الذين يمرون بمأزق، فكان بعضهم يريد المقاومة وآخرون يريدون الخضوع والاستسلام بينما فكر البعض الآخر فى الهروب. وفى نهاية الأمر خرج الجزء الأعظم من الغرباء ورجال الجبل مع القائدين خيرون والزمّار، وأخرجوا منْ استطاعوا من النساء والأطفال وبقى عدد من أهل المنطقة وعلى الرغم من أنهم تزودوا بالقليل جدًا من الإمدادات فقد كان معهم الأفراد والقادة، تحمسهم الأحداث التى وقعت ومناعة المكان، فكانت تلك العوامل تحمسهم وتجعل حتى نسائهم تكفى للقتال. فى البدء أظهروا مقاومة، ويبدو أن إحساسهم بالكبرياء والحُنق بضعف موقفهم ودفاعهم أشعل نيران الحقد فيهم، لكن رجالنا قاموا بالتضييق عليهم فأضعفوا قواهم مما سمح باختراق رجالنا لهم بالقوة. وتبعًا لأوامر الماركيز لم يتم مراعاة أى شخص منهم أو احترام السن، تم سرقة الكثير من الثروات ونهبها وقتل الكثيرين، وبصفة خاصة من النساء حيث كانوا يرون أن قتلهن فى غاية الأهمية.

لاذ خيرون بالفرار. وتم أسر الزّمار بعد أن جُرح فى فخذه على يد أحد الجنود حاملى البنادق، عندما كان يحاول إنقاذ ابنته التى لم تستطع مواصلة السير فى الطريق الوعر. وتم نقله لغرناطة بعد أن أمر كونت تنديا بأن يوثق الحبال. وبعد أن سقط حصن لاس أغواخاراس، قام الماركيز بإرسال الجيش بقيادة كونت سانتيستبان ليقوم بانتظاره عند بيليث دى عبد الله، ثم ذهب لزيارة المونبيكار وسالوبرينيا وموررتيل وهى أماكن تطل على البحر ومحصنة ضد القراصنة من البربر، وأصبحت هذه المنطقة مؤمّنة حتى روندة Ronda .

وقام الماركيز بتعيين ابنه السيد فرانثيسكو دى مندوثا خلفًا للسيد خوان دى بييرويل، وقام بتعيين مشرفين رسميين على المالية التى كان يعتمد عليها الجيش اعتمادًا كليًا. ولم يترك منافسو الماركيز هذه المناسبة دون الافتراء عليه مرددين أنه كان يقوم بنفسه بتلك الأمور من تزويد وإمدادات وإطلاق سراح المسجونين، والقيام بتوزيع المساهمات والغنائم والودائع حيث كان أبناؤه وخدمه يساعدونه فى تلك الأمور، التى عادة ما يتجنبها القادة.

ولكن اتضح أن قرار الماركيز كان من أصلح الاختيارات للشئون المالية للملك حيث تم إنفاق القليل من الأموال على عدد كبير من الناس وفى وقت طويل.

وعندما وصل الماركيز إلى بيليث، عاد إلى أورخيبا حيث بدأ فى استقبال الكثير من الأشخاص وأهل القرى الذين أتوه خاضعين. وقام جميع سكان البشرات ونهر المرية بتسليم أسلحتهم. أما منْ كانوا فى الجبال ثائرين فقد استسلموا وخضعوا للملك دون شروط، وأحضروا معهم نساءهم وأبناءهم ومتاعهم وبدءوا فى العودة لمنازلهم، وكانوا على استعداد لأن يذهبوا للسكنى فى أى من المناطق التى يرسلونهم إليها. وكانوا على استعداد للدفاع وحماية الأراضى التى يطلب منهم حمايتها مقابل الإبقاء على حياتهم وإعطائهم حريتهم، ولكن حتى هذين الشرطين لم يقبلا منهم، ولم يمنعهم ذلك من التوافد حيث كان إحساسهم أنهم سوف يعيشون فى سلام هو طوق النجاة، على الرغم من أنهم لم يكونوا آمنين بشكل كامل. وعندما

وجد الماركيز أن الجيش به عدد كبير من العبيد والمسيحيين الذين يأكلون المئونة، أرسل خمسمائة موريسكية لكى يعشن فى كنف آبائهن وإخوتهن وأزواجهن وتم استقبالهن فى أوخيخار، وبعد قليل أرسل فى طلبهن لإعادتهن إلى أوليائهن من المسيحيين فأعادوهن كلهن – وهو أمر لم يحدث من قبل(*)– إما بسبب الخوف أو الطاعة.

أخذ الجنود فى التوجه إلى الجبال فى مجموعات، كل مجموعة مكوَّنة من عشرين جنديا، لمطاردة الأعداء ونهب الملابس التى تم إخفاؤها هناك، حيث قاموا بالهجوم على الكهوف حيث كان بداخلها موريسكيون متناثرون، فقاموا بأسر العبيد ونهب الغنائم والثروات.

لم تكن أعمال الفوضى التى يتعرض لها الموريسكيون كثيرة فى ذلك الحين، ولم يكن هناك الكثيرون الذين لم تتم معاقبتهم، ولكن مع الوقت ظهر الطامعون الذين تبدَّل معهم الحال من سلام إلى قلاقل ومن الطاعة والاستسلام إلى الريبة والتمرد(**). لقد مرَّ وقت كان فيه الأعداء – إما الخاضعون أو منْ تم ترويضهم بسهولة – يمكن معاقبتهم أو نفيهم إلى قشتالة ليسكنوا أراضى جديدة، دون أن يضيعوا وقتًا كثيرًا أو يفقدوا أهلهم وأموالهم، أو يعانوا من الجوع والمرض أو عنف الإقطاعيين.

ليس للمحكومين القدرة على معرفة أفكار الملوك ودوافعهم ولكن كثيرًا ما يؤثر الحقد فى نفسية الأمير فيشعر بالمهانة بسبب التمرد أو العصيان، كما تؤثر فيه العلاقة – وإن كان بدافع المصلحة– التى تدفعه إلى الحسم والانتقام. وهم يرون أن الانتظار لأى وقت– وإن كان فى صالحهم– هو تعطيل لهم عن تنفيذهم لمخططهم.

(*) يتحدث عن إعادة النساء إلى أوليائهن. (المراجع)

(**) لاحظ أن المؤلف يلقى اللوم هنا على الجنود المسيحيين. (المراجع)

فى تلك الفترة عاد أهل غرناطة لحياتهم الطبيعية التى ألغوها من قبل بلا خوف أو فقر واحتياج، بدءوا فى إرسال أشخاص من مجلس البلدية إلى الملك حيث طلبوا تعيين قائد جديد، وطالبوا بتعيين ماركيز بيليث بعد أن بالغوا فى ذكر مكانته ومشورته ومقدرته على الصبر فى تأديته لواجبه. وهى صفات على الرغم من اجتماعها فيه، فإنه كان هناك منْ كانوا ضده فرأوا كل هذه الإنجازات التى تحسب له وتستحق الثناء على أنها العكس من ذلك كله، وأن منْ ذكروا ذلك لم يكن هدفهم الإشادة. بدءوا فى الافتراء على ماركيز مونديخار وادعاء أنه ترك العاملين تحت يديه ينهبون الكثير دون رقابة عليهم، وأنهم لم يقوموا بالمحافظة على المؤن، وأن الماشية بدلاً من تتبع الجيش كانوا يرسلونها إلى غرناطة، وأن الجنود لم يستطيعوا قبض مرتباتهم من خزانة الملك. كانوا يأخذون عليه أنه على الرغم من أن لديه رئيسًا للشئون القضائية ويعاونه الكثير من الشخصيات القوية صاحبة المشورة فى المحاكم العليا، وعلى الرغم من أنه كان هناك مجلس للبلدية وقضاة جيدون والكثير من الشخصيات المحنكة؛ فلم يكن يبلغهم بالقضايا والأمور كتابة أو مشافهة بل كان يشمئز من منافسته فى صلاحياته.

ومن طريقة تسيير الأمور، كانوا يعلمون من أطراف أخرى سبب الأوامر، وقد كانوا يمدحون دقة الرئيس(*) فى كشف مخططات الأعداء وترتيباتهم وأيضًا قدرته على إدخال السرور والبهجة على أهل المدينة وطلبه من كبار المسئولين فى المملكة- وبصفة خاصة ماركيز بيليث- أن يكونوا على أهبة الاستعداد، بالإضافة إلى الأعمال الأخرى التى برهنت على تميزه وأظهرت تفانيه فى خدمة الملك، وهى كلها أعمال أكسبته شهرة وسلطة لها تقديرها واحترامها، وهى فى نهاية الأمر ذات فائدة ومنفعة للأهالى، حيث إن الحرب لم تكن قد انتهت بعد، ولم يتم القضاء على الأعداء نهائيًا فقد كانت الأسلحة التى سلموها غير صالحة، وظلوا يظهرون سخطهم وتمردهم ورفضهم للخضوع والإذعان لأوامر الماركيز. كان

(*) يقصد رئيس المحكمة. (المراجع)

العمد – وهو منصب يهتم بمراقبة أداء القضاة وأيضًا القصاص حيث يعتبرون أى تأخر أو تعطيل للأحكام لونًا من العصيان للحاكم- يجرمون التهاون فى تنفيذ العقوبات والحصول على العطايا وإيواء الخائنين لدينهم وللملك. وقد عمَّت الفوضى فحمل السلاح الآباء والأبناء، ولم تتحقق العدالة ولم تؤد الحكومة دورها كما يجب وامتلأت مدينة غرناطة بالمسلمين ولم يدافع عنها المسيحيون كما ينبغى، فعلى كثرة عدد الجنود، ضعفت هممهم وأحاط بهم خطر الأعداء المدافعين عن أنفسهم والذين حاولوا إشعال الحرب مرة أخرى، بعد أن كانت قد أوشكت على الانتهاء. وعلى النقيض من ذلك، كان أصدقاء الماركيز والمقربين إليه وأقاربه يرددون أن الحرب قد انتهت، بينما كان الموظفون والجنود- الذين يؤدون أعمالهم من أجل كسب العيش- يظلون بلا أجور. وكانت الماشية فى حوزة الأعداء فكانوا هم المستفيدين يوميًا من اللحوم والقمح والشعير.

كان من الصعب إنشاء مخازن للمؤن؛ لوجود عدد قليل جدًا ممنْ يمكنهم القيام بذلك، ولم يكن هناك أمان بالمدينة حيث كان الأعداء يسيرون بالقرب منا، يهددوننا فى كل وقت بالبنادق والرماح. وكانت الضرائب فى أيدى رجال الملك يعطونها له يتصرف فيها كيف يشاء، وكانت الوظائف غير متصلة ببعضها البعض، وكانت أمور الحرب تتطلب سرية تامة، ولم يكن من المعتاد نقل ما يتعلق بالحرب إلى أشخاص ليس لهم علاقة بالحرب، حتى لو علت سلطتهم. وكان من الغريب فى وظائفهم أنهم لم يكونوا يعرفون أين يضعون أسرارهم، فعندما تُفشى الأسرار تتسبب فى جلب الضرر. ونظرًا لأن رئيس المحكمة و"المستمعين" أو العُمد لم يكونوا يبلغون أُسرار اتفاقياتهم للماركيز، فلم يكن هو الآخر لينقل إليهم أخبار الحرب، ولم تكن بينهم اجتماعات ليتقابلوا ويرى بعضهم بعضا على الرغم من عدم وجود أسباب لهذه الاختلافات. كان هؤلاء يسخرون من القاضى ومن الأحداث التى تمر بها المدينة كما لو أنهم شكلوا حزبًا ومجموعة من الأشخاص المتفاوتة. أما منْ كانت مهمتهم الحرب فقد انشغلوا بها وكانوا هم أو أبناؤهم فى

خدمة الملك وكانوا يطيعون الماركيز بلا أية أهواء. وحيث إن الطاعة هى ثمرة التربية الحسنة، فمنْ لا تكون له هذه النشأة فسيكون من المنبوذين والمغضوب عليهم من قِبَل الملك، كما أن منْ يمسك بالرمح كثيرًا يصعب أن يتركه ليُمسك بالقلم. لقد انتهت الحرب كما تؤكد المؤشرات وسيكون للملك حرية التصرف فى العقوبات التى يجب أن توقَّع بالأعداء. والقائلون بأن الحرب أصبحت فحسب فى وضع أفضل ولم تنته بعد، حيث إن الأعداء كانوا لا يزالون موجودين بأسلحتهم لكنهم فى وضع يسهل معه القضاء عليهم دون مقاومة، كما كان الأمر عليه آنذاك فى المدينة والمملكة، فإن ذلك يعنى أن الحرب قد توقفت. وقد استغل ذلك الوضع منْ هم فى البيازين والغوطة، حيث كانوا منشغلين بإعداد مساكنهم ولا يدفع لهم أحد رواتبهم فلم يكن منهم إلا إثارة الفوضى، على الرغم من أنهم لم يكونوا قليلى الخبرة بالحروب حيث لم يبدُ عليهم أنهم حديثى العهد بأمور الحرب.

كان سخط جميع الأطراف منصبًا على الأعداء حيث أجمعوا على ضرورة معاقبتهم عقابًا شديدًا، على الرغم من تفاوت آراءهم حول ماهية هذا العقاب فإنهم جميعًا لم يتناسوه.

رأوا أيضًا أن مباغتة الأعداء بتسرع كان يعنى الهزيمة وفقدان ما يمكن أن ينتفعوا به منهم، حيث إن الأشخاص، بصفتهم أشخاصًا مفيدين – وبصفة خاصة منْ يعمل رغمًا عن أنفه – مثل منْ يعملون عند ماركيز بيليث– الذين اثبتوا أنهم صالحين لعمل أى شىء(*).

إلا أن الماركيز– وهو رجل ذو نظام صارم، حيث نشأ فى كنف جده وأبيه الذى تولى منصبًا عاليًا – وكان فريدًا بلا منازع– كان يريد قيادة فرقة من الجيش فقام بالتفكير فى بعض المخططات وإبلاغها للمقربين منه ممنْ لديهم خبرة فى الحرب وكانوا قلة. ولم يعط ثقته لكل منْ أبدى استعداده للانضمام إليه، ولم يعط

(*) يتحدث هنا عن الموريسكيين الذين كانوا يعملون فى أراضى النبلاء. (المراجع)

تلك الفرصة لبعضهم وبصفة خاصة الشباب والعابثين كثيرى الشكوى. قرر الماركيز أداء هذه المهمة وهو يفتقر إلى المال والزاد والمئونة، ومعه عدد قليل من الناس، الذين يتقاضون أجورا ضعيفة ويعمهم الفوضى فى السلوك حيث كانوا يتعيشون من السرقة والحيل التى تمكنهم منها بل ومواصلة فعلها. لقد كان هناك انحلال كبير وقلة فى الحياء والأمانة، وكان يُستثنى من هؤلاء الجنود الخاصة الذين كانوا يأتون من جميع أنحاء إسبانيا على نفقتهم لخدمة الملك، مهما كلفهم الأمر، حيث كانوا أول منْ يسارع ليفتك بالأعداء.

كان هدف الماركيز الأساسى دائمًا هو محاربة الأعداء وعدم إتاحة الفرصة لهم ليستقروا فى مكان أو ليجمعوا قواتهم، كان يريد مهاجمتهم والتضييق عليهم ومطاردتهم وعدم إعطائهم الفرصة ليقوموا بتتبعه، ولم يكن يريد أن يتركهم ويبتعد عنهم حتى ولو كان ذلك من مصلحته. كان يريد استقبال منْ جاء منهم ليعلن استسلامه وخضوعه له، وكان ينوى تقليصهم ونزع أسلحتهم حتى إذا ما تحولوا إلى جيش صغير فى نهاية الأمر، استطاع الملك معاقبة المذنبين منهم ونفى منْ يُشتبه فيهم، وطردهم إلى مكان آخر إذا ما بدا له ذلك، بشكل آمن ودون أية مشقة لرجالنا أولاً وقبل كل شىء. أبلغ الماركيز الملك بحقيقة الوضع، وعلى الرغم من أنه قاد الجيوش الكثير من المرات فقد قضى عليهم فى هذه المرة كما تعلم من آبائه وأجداده، الذين خاضوا حروبًا كثيرة ضد المسلمين. استطاع الماركيز القضاء على الأعداء فى وقت قصير لم يتعد شهر، وعلى الرغم من براعته، فإن الملك كان يكتب إليه فى الكثير من المرات لكى يتوخى الحذر فى حربه معهم.

وعندما وصلت الحرب إلى هذه الحال رأى الماركيز أنها انتهت، وأخذ فى تيسير ما تبقى من المهام مما جعل منه مخطئًا فى نظر القادة الغائبين من ذوى الخبرة، الذين رأوا أنه كان عليه الحزم فقد سنحت الفرصة والوقت للأعداء أن يتمادوا فى الحرب وزاد أملهم فى مساندة البربر لهم؛ مما أطال من المناوشات

حيث صعبت الجبال من قضاء المهمة لمهارة الموريسكيين وخبرتهم بارتيادها، بالإضافة إلى بعض الأسباب التى ترجع إلينا.

فى ذلك الوقت بدأت الحرب فى الاندلاع عند نهر المرية بعد رحيل ماركيز مونديخار إلى لاس غواخاراس وأرض المونبيكار. كانت أوانييث Ohañes منطقة واقعة بين نهرين على حدود البشرات تابعة لماركيز ثينيتى Cenete وأرض المرية. وقد تجمع بها المسلمون الهاربون إلى الجبال - وهم ممنْ تبقوا من المعارك السابقة - حيث جذبتهم مناعة المكان بعد أن أقنعهم تاهالى Tahalí الذين اتخذوه قائدًا لهم، باللجوء إلى هذا المكان. وقام الأعداء بوضع مائة رجل لحراسة هذا المكان الذى أخفوا فيه نساءهم وأبناءهم وممتلكاتهم، ولم يكن هناك عدد أكبر لحماية المكان ولكنهم جميعهم كانوا متأهبين للقتال.

كان ماركيز بيليث عند نهر المرية يخصص جزءًا من قواته للتعامل مع أهل مورثيا وعاد الجزء الآخر محملاً بالغنائم كما هى العادة.

وكان ينتظر أمرًا من الملك بالعودة إلى أرض قرطاجنة Cartagena- والتى كانت تحد مملكة غرناطة عن طريق نهر موخاكارMojácar - الذى كان يُطلق عليه القدماء مورخيس- لحماية أراضى الملك وأرضه التى تقع بجوار النهر وليمنع مسلمى غرناطة من العبور إلى تلك المنطقة حتى لا يقوموا بإثارة القلاقل فى مملكة فالنسيا، وهو أمر من الخطورة بمكان لأنه كان يمكن أن يؤدى إلى هزيمتنا، لهذا وجد أن عليه إخماد هذه النيران وتأمين ظهره - خاصة وأن ماركيز مونديخار كان منشغلاً فى لاس غواخاراس- لم تكن هناك أسلحة قريبة من المكان، فطلبها رئيس غرناطة فوافق الملك على إمدادهم بها بعد ذلك.

وصف أولئك الذين كان يتساوى عندهم الصواب والخطأ، أن فكرة إحضار مساعد لماركيز مونديخار بأنه تصرف ناجم عن الأهواء، أما الأشخاص الأسوياء فقد رأوا هذا الموقف ناجما عن تدبير جيد وتصرف ملائم.

تحرك ماركيز بيليث وبصحبته ثلاثة آلاف من المشاة وثلاثمائة فارس، وواجه الأعداء حيث كانوا ينتظرونه عند مطلع الجبل عند معبر وعر وشديد الصعوبة. قام الماركيز بمحاربتهم وقضى عليهم ولكن بصعوبة وأبلى بلاءً حسنًا، إلا أن الأعداء تجمعوا عند أوانيث وواصلوا المقاومة. قام الماركيز بمهاجمتهم بقليل من الأسلحة ونجح فى سحقهم للمرة الثانية، فمات منهم مائتا رجل وقائدهم تاهالى، كما قتل الكثير من النساء على مشارف أوانيث، وقتل بعض رجالنا. وقد نجا من المسلمين – بسبب احتمائهم بالجبل– عدد كبير ممنْ كانوا فى خط الدفاع دون أن يقوم رجالنا بمطاردتهم، وكان بإمكانهم – لو كان لديهم قائد محنك– إلحاق الضرر بجنودنا الذين اشتغلوا بجمع الغنائم. وقد مثلت هذه المعركة حدثًا كبيرا. وعثر الماركيز على عشرين رأسًا مقطوعة منسدلة الشعر لفتيات، وكانت موضوعة بنظام على درجات سلم الكنيسة، وفاءً نذر نذره أهالى هذه المنطقة فى اجتماع لهم فى غويثيخا Güecija وقت حدوث ثورة أهالى نهر المرية، حيث أقسموا أن يذبحوا عشرين فتاة مسيحية مع عشرين من القساوسة الذين يعبدون الأصنام – وهو الاسم الذى يطلقونه على التماثيل المصوَّرة – من أجل أن يساعدهم الله ورسوله. وقبل أن يهاجمهم الماركيز كانوا قد قاموا بذبح الفتيات، أما القساوسة فقد قاوموا مقاومة شديدة، فقاموا بحرق عشرين راهبا بعد إغراقهم فى زيت مغلى ليوفوا بنذرهم فى المنطقة نفسها بغويثيخا.

إنه تدين قاسٍ وكريه أن يُرضى الشخص ربه على حساب أرواح ودماء بريئة(*)، ولكن هذا النوع من التدين ظهر منذ القدم فى إفريقيا، قادمًا من تيرو Tiro حيث أدخلتها ديدو– مؤسسة مدينة قرطاجة– إلى المدينة، وهو مستمر إلى يومنا هذا بين سكان هذه المنطقة، ومن المشهور أن الإمبراطور دون كارلوس–

(*) لو أن ميندوثا تحدث عن قسوة أشخاص لما فقد حياده الذى اتصف به منذ بداية الكتاب، أما اتهام الإسلام نفسه فيدل على أن المؤلف– رغم ثقافته الواسعة– لم يطلع على مبادئ الإسلام التى تحرم مثل هذه الأفعال. (المراجع)

وقد هزم أقوامًا كثيرة– عندما قام بمعركته ضد باربا روخا طاغية تونس، حدث وأن قام المسلمون بذبح خمسة أطفال مسيحيين عند ساحل قرطاجة عند رؤيتهم لقدوم جيشنا تكريمًا لخمسة أماكن مذكورة لديهم فى القرآن، من أجل أن يحميهم الرب ويدفع عنهم الأخطار(*).

وعندما وجد الماركيز أن الموقف فى صالحه، احتمى مع منْ أراد أن يبقى معه من الرجال فى تيركى Terque، وهو مكان عند نهر المرية، ثم انطلق للأمام. كانت الأمور فى مدينة غرناطة قد وصلت إلى الحد الذى وصفته. قام الملك بإرسال دون أنطونيو دى لوناAntonio de Luna – وهو ابن السيد ألبارو دى لوناAlvaro de luna– والسيد خوان دى مندوثا – وهما رجلان من أصل عظيم ولديهما خبرة فى الحرب، وأسند إليهما الكثير من المهام، وقاما بها على أكمل وجه – كمستشارين لكونت تنديا ليكونا على استعداد للأوامر التى يمليها عليهما الكونت فى غياب والده الماركيز، وأمرهما بإخباره بالخطط بطريقة مستساغة ومهذبة لكى يسند إليهما جزءًا من هذه المهمة. قام الكونت بوضع السيد خوان داخل المدينة مع المشاة بعد أن اطمأن على أسلحتهم، وقام بإسناد حراسة الغوطة إلى السيد أنطونيو، وكان معه مائتان من الفرسان وأيضًا جزء من المشاة. وعندما وصل كونت مونديخار إلى أورخيبا، ليواصل تحقيق هدفه، انشغل باستقبال القرى والأهالى التى قدمت دون أى شروط للاستسلام وترك الأسلحة. كما كان منشغلاً أيضًا بمهمة مطاردة جيش ابن أمية وأقاربه والمقربين إليه، حيث كانوا كثيرى العدد وينتشرون فى الجبال.

(*) الحديث عن ذبح أطفال مسيحيين ليس جديدًا؛ فقد كان هناك منْ يتهم المسلمين بأنهم يذبحون طفلاً مسيحيًا فى عيد الأضحى. ولا يخرج هذا الحديث عن كونه كتابات دعائية معهودة فى القرن السادس عشر. (المراجع)

كان موقع بالور الأعلى على وشك السقوط والاستسلام، لكن الهدوء كان يعمه، ووصلت الأخبار للماركيز بأن ابن أمية اتجه إلى هناك ليختبئ مع ثلاثين من رجاله فى منزل أبيه، وأن عمه ابن جوهر كان مختبئًا فى ميثيناMecina، فقام بإرسال فرقتين من المشاة للبحث عنهما ولكنهم لم يجدوهما فعادوا بعد أن نهبوا بالور وميثينا، لكن الماركيز أمر بإعادة الملابس والأسرى الذين تم الاستيلاء عليهم فى ميثينا منذ وقت قصير حيث إنها كانت تدخل تحت حمايته.

وقد تم إبلاغه أيضًا أن ابن أمية مختبئ بمثينا مع ثمانية أشخاص، فقام بإرسال فصيلتين على رأس كل منهما زعيم خبير فى هذه المناطق وأمرهما بإحضاره إليه حيًا أو ميتا. وتطلق كلمةAdalid(*) فى اللغة القشتالية(**) على المرشدين وقادة الجيوش الذين يدخلون أراضى العدو ليبحثوا عن الأعداء، وكانوا يطلقون على منْ معهم لفظ "المغاوير" almogavares، وقديمًا كانت وظيفة هؤلاء المرشدين فى غاية الأهمية، وكانوا يقومون باختيار الأشخاص الذين يقومون بمساعدتهم.

وكان هؤلاء يتعرفون على آثار أقدام الأشخاص أو الوحوش بسرعة فائقة، دون أن يتوقفوا للتكهن أو التخمين، فكانوا يستندون لبعض العلامات التى تبدو للناظر العادى غير مهمة لكنها كانت بالنسبة لهم فى غاية الأهمية، حيث إنهم عندما يجدون ما يبحثون عنه يبدو وكأنهم قاموا بعمل معجزة من المعجزات.

لم يجد هؤلاء أثرًا لابن أمية فى بالور الأعلى، إلا أنهم سمعوا عند بالور المنخفض أصوات لعب بالأقواس وغناء وأصوات أشخاص كثيرة، فلم يجرءوا على الهجوم عليهم وعادوا لنقل هذه الأخبار. قام الماركيز بإرسال قائدين هما

(*) واضح أن اللفظ تحريف لكلمة " الدليل". (المراجع)

(**) (اللغة التى تتحدثها إسبانيا اليوم هى لغة إقليم قشتالة، وقد انتشرت بين الإسبان بعد أن قام الملك ألفونسو العاشر الملقب بالعالم بمهمة ترجمة المعارف من العربية إلى القشتالية، وفى النهاية تحولت لغة قشتالة إلى اللغة الإسبانية). (المراجع)

أنطونيو دى أبيلا Antonio de Avila وألبارو فلوريس Álvaro Flores مع ثلاثمائة من حاملى البنادق تم اختيارهم من بين الأشخاص الذين بقوا هناك آنذاك، وكان حملة البنادق قليلين، حيث عاد معظمهم إلى بيته بعد نهب الغنائم فى لاس غواخارس، وظنوا أن الحرب قد انتهت، وهم ممنْ كانوا لا يتقاضون رواتبهم واعتبروا السرقة موردًا لهم وطغى عليهم الجشع. وقد رافق الثلاثمائة جندى أكثر من خمسمائة مغامر وطامع فى النهب والسرقة دون أن يهتم أحد بمنعهم. تلقى القادة الأوامر شفاهية بالسيطرة على الطرق وقطعها والقيام بمحاصرة المكان دون الدخول فيه، وأن يقوموا بالتحدث إلى نواب البلدية فى هذه المنطقة إلى الشخصيات المهمة هناك يطالبونهم بتسليم ابن أمية ملكهم، وفى حالة امتناعهم يقوم القائد بصحبة وفد من الكنيسة بالبحث عنه فى البيوت، وإذا لم يجدوه فعليهم أسر نواب مجلس البلدية وإحضارهم إلى الماركيز دون إلحاق أى خسائر بالمكان. توجهوا لتنفيذ هذا الأمر، وقبل وصولهم إلى بالور - حيث بداية كاستيل دى فييرو - لحق بهم أمبويرو Ampuero وهو قائد إحدى الفرق وسلَّم لهم الأوامر مكتوبة وأضاف عليها أن لا يمسوا بسوء أحدًا ممنْ يدخل تحت حمايتهم أو ممنْ هم من بالور الأعلى، وكانوا قد قدموا إلى بالور المنخفض. ويُقال إن أنطونيو دى أبيلا - والذى كان نذير شؤم - أجاب أمبويرو قائلاً « إذا ما كان هناك عصيان للأوامر فسيكون ذلك بسبب الجنود»، وعندما وصلوا إلى بالور سيطروا على الطرق وحاصروا المكان وخرجت الشخصيات المهمة تقدم خدماتها وتعرض عليهم الزاد والمئونة[*] إلا أن كل منْ قدم ناحية فرقة أنطونيو دى أبيلا قتل دون أن يسمعه أحد. وبدأت الفوضى تعم المكان ودخل الجنود يقتلون وينهبون وانضم إليهم رجال ألبارو فلوريس متحدين من أجل تلك المهمة. قُتل بعض الموريسكيين الذين لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم أو الهروب. تم نهب المنطقة بأكملها وقام الجنود بإخفاء ما قاموا

---

[*] كانت التعليمات فى القرن السادس عشر ونحوه تلزم أهل القرى التى يمر بها الجيش الإسبانى بتقديم الطعام وتوفير المبيت. (المراجع)

بسرقته فى الكنيسة. وقال القادة إن أوامرهم كانت تقضى بأسر الموريسكيين أحياءً وعدم تنفيذ الأوامر بطريقة أخرى إلا أن الموريسكيين عندما حدثت هذه الواقعة، قاموا بإرسال إشارات عن طريق الدخان لإخوانهم الذين كانوا فى الجبال ومنْ كان مختبئًا بالقرب منهم. وفى الصباح قام رجالنا بتوزيع الغنائم وكانت تضم ثمانمائة أسير وملابس كثيرة، ثم توجهوا نحو أورخيبا بالأحمال الثقيلة التى حملوها هم وبغالهم، وكان الأسرى وما حملوه يسيرون فى منتصف الكتيبة.

وبعد انطلاق طليعة الجيش، ظهر عند مؤخرته ابن ثابا Abenzaba وهو أحد قادة ابن أمية، وكان معه ثلاثمائة رجل يبدون مسالمين حيث أمرهم أن يقوموا هم ومنْ كانوا فى حمايتنا بالابتعاد عن الأسرى، ومحاولة الاستيلاء على الأشياء الأخرى، إلا أنهم لم يستطيعوا الحصول على ما يريدون فبدءوا فى اختراق صفوف الجيش وإحداث الفوضى فيه حتى ظهر أيضًا كمين كان عند أحد المشارف وبه مائتا رجل، وهناك نظروا إلى النساء قائلين: «إن رجالكن ليسوا بالضعفاء»، وفى أثناء ذلك قام الباراتال – وهو رجل حكيم وشجاع وهو أحد خمسة إخوة له- يحملون هذا الاسم نفسه، وكانوا يقيمون فى ناريلا Narila – بمهاجمة مؤخرة الجيش من أحد جوانبها. إلا أن جنودنا كانت مقاومتهم ضعيفة لأنهم كانوا حريصين على حماية الغنائم. وقامت طليعة الجيش بمحاولة التقدم للأمام ما استطاعت دون التوقف أو محاولة ترك الغنائم.

دبَّ الضعف فى صفوف الجيش وكان منْ هم فى المقدمة يحاولون الوصول إلى أورخيبا ومنْ فى المؤخرة يسعون للانضمام إليهم، وفى النهاية تمت هزيمتهم دون أن يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم أو الهرب وقتل القادة ورؤساء الكتائب، واستسلم الجنود وتم ذبحهم وهم يحملون الغنائم على ظهورهم أو بين أيديهم وقد نجا منهم نحو أربعين رجلاً، وقتل الآخرون، ولم يفقد الأعداء رجلاً واحدًا، ولم يتم أسر أحد من الخمسمائة الذين تجمعوا للقتال. وعندما حدث ذلك أرسل رجالنا إلى الماركيز يطلبون عفوه ويتعللون أن السبب فى هذه الخسارة هم القادة، وبدءوا

استعدادهم للمثول للعدالة. إلا أن الماركيز بعد أن علم بتلك الكارثة وضع حماية أكبر على أورخيبا، وقام بتوزيع فرق الفرسان وكأنه ينتظر هجوم الأعداء.

وصلت فى نفس هذا اليوم التحذيرات لغرناطة، فقام كونت تنديا بإرسال ألف من المشاة ومائة من الفرسان إلى السيد أنطونيو دى لونا وأمره بالاتجاه إلى لا نخارون -حيث الخطر- والقيام بوضع الجيش فى مكانٍ آمن ثم ترك قيادته للقائد الأعلى والعودة إلى غرناطة، وعندما وصلوا إلى أورخيبا فى اليوم الثالث لحدوث تلك الكارثة قاموا بتشديد الحراسة على قصر الحمراء، وفى المدينة وفى الغوطة حتى لا يقوم الموريسكيون بعد معرفتهم بهذه الواقعة بإحداث أى انقلاب جديد.

أرسل الملك إلى الماركيز يطلب منه أن يتريث قبل مقابلة الأعداء وألا يعرض نفسه للخطر، لأنه كان يخشى أن تتم هزيمتنا لقلة عدد الجنود. وبدأ الملك فى التفكير فيما يمكن أن يحدث من كوارث كحدوث الثورات فى المملكة ومجىء البربر إذا بدأ ظهور الجيش التركى فى المشرق، وإلى أين يمكن أن يتجه الأسطول التركى وفى الغالب كان يبدو أنه سوف يهدد قبرص.

وقد رأى الملك أن قوات الماركيز قليلة ولا تستطيع حماية غرناطة من الداخل والخارج. لكنه كان يعتبر أن ما حدث هو لون ما من الاشتباكات أو المناوشات وتفاقم أمر بعض الأشخاص غير المسلحين ولم يعتبره حربًا.

كان القائد يشعر بالمهانة فى المدينة التى كان ينبغى أن تحمى ظهره، والتى كان يجب أن ينطلق منها عصب الجيش، وكان هوى بعض أهل المدن والسادة يخالف هواه وكان الجنود غاضبين، وكان هناك الطامعون القريبون من الأمراء ومعاونيهم. لكل ذلك بدا حتميًا وقف القتال، خاصة عندما جاء نبأ الكارثة التى وقعت فى بالور.

كتب الملك إلى الماركيز يأمره بعدم التحرك. وكانت سلطة الماركيز فى بلده قوية جدًا وهى عادة متوارثة عن الأجداد والآباء. فكر الماركيز أن مملكة متسعة

كهذه يصعب معها السيطرة على جميع أجزائها حسبما علمته التجارب، حيث إنه أثناء وجوده فى أورخيبا قامت الثورة فى لاس غواخاراس، وعندما انتقل من لاس غواخاراس توصلت أوانييث إلى تقسيم المهام حيث اضطرت ماركيز بيليث إلى تولى مسئولية أنهار المرية، والمنصورة، وأرض بايثا، وغواديكس، واضطرت ماركيز مونديخار إلى تولى مسئولية باقى أراضى مملكة غرناطة. قرر الملك إرسال أخيه خوان دى أوسترياJuan de Austria إلى مملكة غرناطة ليكون قائدًا أعلى لهم، وليكون له القرار فى التقسيم والتوزيع، فلن يمانعه أحد حيث إنه بسلطته وباسم الملك سترضخ أمامه جميع القطاعات وسيقوم بحكم الأهالى بسهولة، وسيشارك معه الجميع وهم راضون، وسيقومون بالخدمة وأداء المهام لوجود أخى الملك بالقرب منهم شاهدًا عليهم. إن تعيين الملك لأخيه على مملكة غرناطة سيكون له صدى كبير لدى الأمم البعيدة فسيعمل على تثبيط همم البربر فيعزفون عن تسليح الموريسكيين، ويعوق إرسال الإغاثة إليهم حيث يصبح أمرًا عسيرًا وبدون فائدة. رأى الملك أنه بهذا القرار سيقوم أيضًا بإسناد مهام شئون البر لأخيه السيد خوان، كما كان يقوم بها فى البحر؛ وبذلك يكتسب حنكة فى جميع المجالات، وهو فتى يقظ وكله حماس وطموح فى تعزيز نفسه التى دائمًا ما كان يوقظ فيها عظمة والده وفضائل أخيه. ويُقال أيضًا إن الملك أراد أن يرى حماس ماركيز مونديخار الذى ينوى القيام بمهام عظيمة لينتقم من امتهان الموريسكيين لهم ولدينهم، وللثورة التى قاموا بها، وليكون مثالاً يُحتذى به فى الأمم الأخرى. لقد أشعلت قرارات الملك خلافات وآراء لأشخاص كانوا دائمًا يرون القرارات التى لا يتخذونها هم قرارات يسيرة، دون أن يقوموا بحساب الوقت أو التفكير فى إمكانية تحقيقها فى الحاضر أو المستقبل. لكن الأمراء يقومون بأخذ ما هو فى صالحهم من هذه العلاقات ويتركون العاطفة لأصحابها.

عندما وصلت الأمور إلى هذا الحد، تحمس الأعداء بعد حادثة بالور، وقاموا بالخروج، وقام ابن أمية بحكمهم بحكمة وسلطة قوية، ولم يكن بمثابة قائد لشرذمة

مهزومة ومتناثرة، ولكن كان سيدًا وملكًا عليهم. اتبع ابن أمية نفس ترتيباتنا للحرب، فقام بتوزيع الأشخاص فى فصائل ثم ضمهم وكوّن فرقًا، وقام بتعيين قادة. وأمر بأن يقوم هؤلاء فقط برفع الألوية، ووضعهم تحت قيادة ضباط كبار، وجعل رئاسة كل فرقة فى يد حُكّام يسمى الواحد منهم "قائد" وكانوا يسمون الفرق "طاعات" كان القادة يقومون بإصدار الأوامر الخاصة بالحرب، وهى تسمية كانت تُستخدم بينهم منذ القدم، وتطلقها على منْ لديهم حصون منيعة.

ولحماية نفسه، قام ابن أمية باستئجار حاملى البنادق، وأخذ عددهم فى التزايد حتى وصل إلى أربعمائة رجل، ثم قام برفع راية حمراء لتشير إلى مكان الملك. وسأتحدث الآن عن بدايات هذه المراسم التى كان يتبعها ملوك غرناطة والتى اندثرت بعد سقوطها فى أيدى القشتاليين. بعد موت ابن هود الذى كان يتخذ من المرية مركزًا للملكة، قام المسلمون – كما ذكرنا – باتخاذ محمد الأحمر ملكًا عليهم. وعندما حضر الملك القديس فيرناندو الثالث إلى إشبيلية وجد محمدا الأحمر ومعه فرسان كثيرون ليقدم له فروض الولاء والطاعة، حيث كان الملك هو الذى ساعده فى حصوله على المملكة. تبدى لمحمد الأحمر ضرورة أن يتخذ راية فاختار أن يكون لونها أحمر، وهو نفس لون علم ملوك قشتالة، تعبيرًا عن التقدير والعرفان للملك فيرناندو الثالث.

وقد نصّبه الملك فارسًا يوم دخوله إشبيلية وأعطاه لواء الأسلحة له ولكل منْ كان ملكًا على غرناطة. وكان اللواء لونه أحمر يحيط به شريط ذهبى ومرسوم عليه رأسا أفعى عند الأطراف، وهو المتبع فى أعلام ملوك قشتالة، وقد أضاف الملك محمد الأحمر عبارة كتبت باللون الأزرق: «لا غالب إلا الله»، ووضع صورة لأسدين متوّجين ويحملان درعًا. وهم يضعون الشعار أسفل الأسلحة بينما نضعه نحن فوقها، فهم عكسنا فى الكتابة وتوضيح الأماكن وفى الحسابات الفلكية والأرضية. غير أن الأسلحة التى ظهرت فى شعارات ملوك أندلوثيا القدامى كانت عبارة عن مفتاح باللون الأزرق وله خلفية فضية ومن تحته بعض الكلمات

القرآنية، وهو ما معناه أن المسلمين استخدموا الحكمة والقوة ليعبروا جبل طارق ويفتحوا الباب للغزو، ولهذا السبب فهم يطلقون على جبل طارق اسمًا آخر وهو "جبل المفتاح". ومازالت هذه الأسلحة نراها إلى يومنا هذا على الباب الرئيسى لقصر الحمراء بكلمات توضح سبب بناء هذا القصر واسم مؤسسه.

اتخذ ابن أمية بيوتًا له وللمقربين له فى مناطق ببالور وبوكييرا، وفى الأجزاء الوعرة من البشرات، وكانوا يأكلون الطعام الذى قاموا بتخبئته وكل ما كانوا يجدونه بلا صاحب، وكان القوت وفيرًا وبأسعار أقل مما لدينا. كانت الضرائب المفروضة لصالح إيرادات مملكته عُشر الثمار وخُمس الغنائم بالإضافة إلى ما كان يتم سلبه عنوة من الرعية.

توقفت الأمور عند ذلك الحد، وقام ماركيز مونديخار بجمع الجنود فى أورخيبا، وكان قلقًا لمعرفة إلى أين سيؤدى توقف الملك عن مواصلة الحرب، بينما كان ابن أمية يستغل الوقت، ويستجمع قواه وينتظر إغاثة البربر لمواصلة الحرب أو السفن التى تأتيه ليستطيع أن يهرب فيها ويترك المملكة بلا حماية.

ظلت الحرب خامدة وهادئة إلى أن وقع حدث فى غرناطة، وبالرغم من ضآلته فإنه آثار ضجة بسبب وقوعه فى هذا الوقت وعدم توقعه. كان هناك ما يقرب من مائة وخمسين من المسجونين الموريسكيين فى سجن المحكمة العُليا، وكان هناك جزء منهم سُجِنَ لدواعى الأمن – وكانوا كثيرى الشغب – والجزء الآخر بسبب ارتكابهم الجرائم أو الاشتباه فيهم، وكانوا كلهم من الأشخاص الثرية والموثوق فيهم فى المدينة وليس لديهم مهارة استخدام الأسلحة، وهم أناس من ذوى المعاملة الحسنة. وفى منتصف الليل بينما كان الجميع فى هدوء سُمعوا وهم يخططون لتحطيم السجون وقتل الحراس والهروب والانضمام إلى مسلمى الغوطة والبشرات للقيام بثورة فى البيازين وذبح المسيحيين وتسلّق قصر الحمراء والسيطرة على غرناطة، وهى مهمة صعبة حتى على الأشخاص الكثيرة وذوى الخبرة حتى ولو كان هناك سهولة فى الحصول على ما يريدون. إلا أن هذا الحدث

كانت له أسبابه حيث كانت هناك معلومات وشهود على تخطيطاتهم، فالأشخاص المشتبه فيهم تجعل المستحيل يبدو هينًا.

وقد زاد من الاشتباه فيهم للقيام بذلك وجود بعض السلالم التى على الرغم من أنها مصنوعة من الحبال، فإنها كانت واسعة وقوية ومصنَّعة لتسلق الأسوار. وقد عثر عليها الكونت فى أحد الكهوف عند مرتفع سانتا إيلينا Santa Elena، وهى من العدة التى كان المسلمون يحفظونها للدخول إلى قصر الحمراء ليلة أن قاموا بثورة البيازين كما ذكرت من قبل.

عندما علم الأهالى بهذا المخطط هرعوا إلى السجون يطلبون العدالة ويجرمون المسئولية على هذا الإهمال، وازداد شعورهم بالغضب فقاموا بقتل جميع الموريسكيين المسجونين تقريبًا، حيث حاول الموريسكيون الدفاع عن أنفسهم بالأسلحة التى كانت فى أيديهم من أحجار وأكواب وألواح خشبية مما أجل مصرعهم بعض الوقت.

وكان من بين الموريسكيين الذين قُتلوا مجرمون تم الحكم عليهم فى قضايا بالأدلة والبراهين، وكان جميعهم يتشوقون للحرية، وكانوا ضعفاء وليست لديهم مهارة لأى شيء سوى أن حظهم كان عسيرًا.

لم يترك المسلمون أبدًا أى مكان فى الساحل حتى يروجوا لما يزمعوا القيام به ولاستعدادهم لاستقبال جيوش البربر، ولكن هدفهم الرئيسى كان موجهًا إلى الاستيلاء على المرية؛ حيث إن موقعها أفضل بالنسبة لهم من مدينة مالقة ثم يقومون بعدها بالاستيلاء على المدينة الأكثر أهمية. ومدينة المرية يسكنها مسلمون ومسيحيون قدامى وهى تقع بالقرب من موانئ رأس غاتا Gata وبها وفرة فى اللحوم والخبز والزيت والفواكه، وتقع عند مدخل أودية كثيرة بعضها يؤدى إلى مدينة غرناطة، والبعض الآخر يؤدى إلى نهر المنصورة وأرض بايثا، كما تحدها من الشرق أرض كارتاخينا، ومن الغرب المونيكار وبيليث ومالقة، وقد كانت فى

عهد الرومان- كما هى الآن- مركزًا لإقليم بيرخى Virgi، وفى عهد المسلمين كانت مركزًا للمملكة بعد طردهم من قرطبة. وقد قطنها أهالى تيروTiro الذين قدموا إلى قادش لانعزالها عن البحر، وانتقل إليها المسلمون حيث وجدوا سهولة فى الحصول على المياه وأقاموا بها حتى اليوم. وقد قام ألونسو السابع Alonso امبراطور إسبانيا بتدميرها بعد أن استأجر كونت برشلونة لمساعدته بستين سفينة حربية كبيرة ومائة وثلاث وستين سفينة بها محاربون من جنوفا ومعهم بالدوينو Balduino وأنسالدو دى أوريا Ansaldo de Oria كقادة للسفن، وقام الملك بمنح هذا الأخير الكوب الأخضر الذى يظهرونه فى عيد القديس خوان كراتب لهم، ويُقال إنه مرصع بالزمرد، وهو أمر ليس بعجيب إذا ما أخذنا فى الاعتبار الثروات التى بدأت فى التكاثر بعد اكتشاف العالم الجديد، والتى تحدث عنها الكتّاب القدامى. وهذه القصة يرويها تاريخنا أما مؤرخو جنوة فيذكرون أنهم أخذوا هذا الكأس عندما قاموا بالاستيلاء على القيصرية فى آسيا، وكان قائدهم هو غييرمو Guillermo ويدعونه "رأس المطرقة " Cabeza de martillo وتصديق أى رواية منهم متروك لحرية القارئ.

وقد قام ابن هود بإعادة بناء المدينة بعد ذلك. أما عن اسم المدينة فقد عرفته من المسلمين الذين نشأوا فيها، حيث يرجع إلى مصنع للمرايا كان واسع التجارة، فاسم Almería يعنى "أرض المرايا". ويذكر مسلمو فالنسيا أن هذه التسمية تعود إلى أنها تُعَد مرآة المملكة.

وتذكر الحكايات العربية التى تتسم بالخيال الواسع، أنه كانت هناك مرآة شبيهة بأخرى فى لاكورونيا كانت توضع فى مكان مرتفع جدًا لكشف أساطيل الأعداء. وتروى الروايات القديمة فيما قبل عهد المسلمين أنه كان بها مرقب- كان الرومان يطلقون عليها specula – كما هو فى كورونيا، وكان يستخدم لكشف السفن التى تأتى إلى الساحل ومنها أتت تسمية المدينة بالمرية.

ولكن الكاتب الذى أتبعه- وهو أكثر الكتّاب مصداقية بين العرب[*]- يذكر أن المسلمين عند دخولهم إسبانيا أرادوا العودة إلى وطنهم، ولكى يجعلوهم يعزفون عن ذلك جعلوهم يسكنون الأراضى التى تشبه إلى حدٍ كبير موطنهم الأصلى. قاموا بتسمية هذا المقاطعات قرى أو كورات "Coras" وهى تعنى " كروية الأرض التى تكشفها العين المجردة ". ويمكن لمنْ يجد غرابة فى الاسم أن يُطلق عليها " أفق". وقد قام أهل المرية – وهى مدينة كثيرة السكان بمقاطعة فريخيا Frigia – والتى كانت رأسها طروادة العظيمة، باختيار بيرخى Virgi منطقة لسكنهم حيث كانوا يرون أنها تشبه مدينتهم الأصلية وأطلقوا عليها اسمها كما ذكرنا أن أهل دمشق أطلقوا اسم مدينتهم على غرناطة.

وكانت مدينة المرية فى آسيا قد دُمرت على يد الإمبراطور قسطنطين فى عهد معاوية الرابع، خليفة محمد.

وعندما رأى الملك أن المسلمين يصرون على الاستيلاء على المرية، وأنهم إذا قاموا باحتلالها فسوف يتملكون بوابة للمملكة وستقوى شوكتهم ويقومون بتأسيس مركز لهم كما كان الأمر فى عصور ماضية. وعلى الرغم من أن المدينة كانت تحت حماية جيدة على يد السيد غارثيا بيا رويل، فإن الملك أراد أن تكون المدينة تحت حماية سلطة أقوى، فأمر بأن يتولى هذا الأمر السيد فرانثيسكو دى كوردوبا Francisco de Córdoba ومعه عدد كبير من الأشخاص المساعدين. وكان السيد فرانثيسكو يعيش منعزلاً فى داره، وهو رجل محنك فى أمور الحرب ضد المسلمين حيث شارك مع الإمبراطور فى بعض هذه الحروب. وقد تعلم على أيدى قائدين عظيمين هما والده السيد مارتين دى كوردوبا Martín de Córdoba كونت الكاوديتى، وعمه بيرناردينو دى مندوثا Bernardino de Mendoza .

---

[*] ترى منْ هو ذلك المؤرخ العربى الذى ينقل عنه مندوثا ؟ هل يكشف باحث عربى النقاب عن هذا الموضوع فيثرى البحث العلمى فى قضية التأريخ؟ (المراجع)

وعندما كان السيد فرانثيسكو في المرية وصل خيل دى أندرادا Gil de Andrada في السفن التي كان قائدًا عليها، بالإضافة إلى سفن أخرى كانت تقوم بحراسة الساحل. وفي أثناء ذلك جاءهم تحذير بأن عددًا كبيرًا من المسلمين يختبئون مع نسائهم وأبنائهم في جبال غادور – وهم من الفارين الذين قام ماركيز مونديخار وماركيز بيليث بمطاردتهم – وبصحبتهم ثلاثون شخصًا من الأتراك. وخوفًا من أن يقوم هؤلاء بالتجمع وإحداث القلاقل في المرية؛ قام السيد فرانثيسكو بتجميع حراس من البر وحوالي ستمائة من حاملي البنادق وأربعين فارسًا ممنْ كانوا في السفن الحربية، وتوجه نحو الأعداء الذين كانوا محصنين يظنون أنهم يستطيعون حماية أنفسهم بفضل مهارتهم وصعوبة المكان. ويطلقون على هذه الأرض الكوديا Alcudia وعلى القرية إنوكس Inox وهي تقع على بُعْد فراسخ قليلة من المرية. لكن السيد فرانثيسكو توقف حوالي أربعة أيام – لسوء حالة الجو في أواخر شهر يناير– عند طرف الجبل وفقد الأمل في إتمام هذه المهمة، فقرر مهاجمتهم من ناحيتين على الرغم من صعوبة صعود الجبل. قام الأعداء بالمقاومة بالحجارة بقدر ما استطاعوا وعلى الرغم من كثرة عددهم الذي وصل إلى ألف وخمسمائة رجل كان من بينهم فقط أربعون من حاملي البنادق والأقواس. تمت هزيمتهم وقتل الكثيرون منهم على الرغم من ثباتهم الشديد أكثر من مواقف أخرى؛ فحتى النساء كانت تحمل الأسلحة. سقط حوالي ألف من الأسرى منهم، وخرج المسلمون وبينهم قائد يُدعى كوركوث دى دالياس Corcuz de Dalias الذي وقع في أيدي جنودنا بالقرب من بيرا Vera وقُتِلَ عند أدرا بعد أن فقأوا عينيه ووضعَ في عُنقه جرس، وقام الصبيان بشده منه، انتقامًا لما قام به من أعمال القرصنة عند السواحل.

أمر السيد فرانثيسكو منْ معه بالعودة إلى المرية، وكانوا سعداء بعد أن حصلوا على الكثير من الثروات، وقام بتقسيم الغنائم بين الجنود وزود سفنه الحربية بالعبيد. وبعد مرور بضعة أيام رأى السيد فرانثيسكو كيف أن ماركيز

بيليث قد جاء بوصفه قائدًا عامًا لهذه المنطقة، فوجد أن المدينة يكفيها وجود قائد واحد ليحميها؛ فطلب إذنًا من الملك بالعودة إلى بيته ومنحه الملك الموافقة عليه.

زاد التسيب وأصبح الإهمال يعم جميع النواحى وبدأ تهاون المسئولين فى التزايد، فبدا البعض راضيًا بالوضع وآخرون تهاونوا فى العقاب وآخرون كان يتبدى لهم أن مخالفة الجنود للأوامر، هى لون من الانتقام وآخرون لم يحزنهم تزايد عمليات الانتقام هذه، وأن تؤدى إلى تهيئة الفرصة لأن يقوم الموريسكيون المسالمون بإحداث الثورات والقلاقل. واجتمع رجال العدالة وكلهم إصرار على رأيهم ومتشوقين لإنزال العقاب سريعًا بمنْ يستحقه من الموريسكيين، وكانوا قليلى الخبرة لمعرفة التوقيت المناسب لذلك. وزادت أيضًا رغبة منْ يريدون الانتفاع من العوائق وطمع الجنود واستغلال إحساس الأمير بالغضب وارتفع صوت الأهالى – وربما صوت الرب أيضًا – لكى يعم العقاب جميع منْ يستحقه كما عمت الإهانة.

كانت غوطة غرناطة على وشك القيام بثورة، وكان يفد منها الكثيرون بحجة أنهم يعانون فى أماكن أخرى من الخطف والسرقة واغتصاب البنات والنساء وأسر الأشخاص. وكانت منطقة السلاسل الجبلية تنعم بالهدوء، وكانت كذلك حقول روندة وهويا hoya، وشرق مالقة وجبال بنتومث Bentomiz ونهر بولودوى، وhoya وأرض باثا وغويسكار ونهر المنصورة وجبال فيلابريس La Sierra de Filabres والبيازين بالإضافة إلى أحياء من غرناطة آهلة بالمسلمين.

وكانت الثورة قد اندلعت فى بعض المناطق فى المونييكار والبال دى لكلين(*) el Val de Leclín والبشرات وأرض غواديكس وثينيتى ونهر المرية، أى جميع المناطق الآهلة بالموريسكيين.

ولم يترك ابن أمية أية فرصة دون أن يستحث الموريسكيين عن طريق بعض الشخصيات التى كان لها سلطة بينهم أو عن طريق أقارب زوجاته. كان

(*) هى بال دى لكرين. (المراجع)

يستخدم أسلوبًا لينًا ويريد أن يسيطر على عقولهم أكثر من أن يعتبروه مجرد ملك عليهم.

كان قاسيًا وطماعًا لكنه استطاع فى البدء أن يخدع الكثيرين، إلا عمه ابن جوهر الذى ترك جزءًا من الثروات لابن أخيه، بينما احتفظ هو بالنصيب الأعظم وحمله معه وقرر الهروب إلى بلاد البربر وتعلل بأنه ذاهب ليحث منطقة جبال بنتوميث للقيام بثورة. وعندما وصل إلى بورتوغوس Portugos مات هناك من ألم فى جنبه. وقد مات شيخًا كبيرًا يشعر بالحزن والندم. وقد حزن ابن أمية حزنًا شديدًا ليس لفقدان عمه ولكن لفقدان محارب وقائد، وقام بأخذ الأموال والممتلكات التى كانت فى حوزة عمه. كانت هذه هى نهاية السيد فيرناندو الصغير ابن جوهر، الذى كان مسئولاً عن قيام الثورة بالبشرات، والذى ابتدع اسم ملك بين مسلمى غرناطة، وكان قائدًا قويًا استطاع أن يجعل ممنْ سلبه ثرواته – عنوة، وكان سببًا فى موته – سيدًا له شأن عظيم.

كان ذلك هو تنكر ابن أمية لمنْ هو من دمه ومنْ كان سببًا فى إعطائه السيادة ومنحه لقب ملك، على الرغم من أنه كان يمكن أن يجعل نفسه ملكًا. إن هذه هى عادة الأمراء النبلاء والطغاة على السواء، تبدو لهم الخدمات مستحبة عندما يكون باستطاعتهم مكافأتها، ولكن عندما تكثر الخدمات يأتى تذمرهم وضجرهم بدلاً من الوفاء والشكر(*).

عزم الملك على أن يأتى أخوه إلى غرناطة للقيام بالمهمة التى أعدها، والتى على الرغم من تمكنه منها فإنها كانت محفوفة بالمخاطر؛ نظرًا لقرب جيرانهم من البربر، يبدو أن الحرب ستكون عنيفة وطويلة لكونها حربًا تدور فى الجبال فى

(*) لا يتحدث المؤلف عن المسيحى هنا بالضرورة، بل نفهم أنه يتحسر على جهوده التى لم يقدرها الملك كما ينبغى. (المراجع)

حالة حضور قوات ملك الجزائر مسلحة ووقوف جيوش السلطان التركى ضد الفينيسيين.

قام الملك بإعداد خطتين: إحداهما أن يقوم السيد لويس دى ريكيسنس – الذى كان سفيرًا فى روما ونائبًا للسيد خوان دى أوستريا فى البحر– ليقود السفن التى كانت تحت إمرته فى إيطاليا، والتى كان قائدها الميدانى السيد بدرو باديا للمساعدة فى تأمين هذه المهمة. وأن ينزل الجنود إلى البر حيث يستطيع السيد خوان التصرف فى توجيه الجنود، حيثما تبدى له، ثم يضم إلى سفنه السفن الحربية الإسبانية بقيادة السيد سانشو دى ليبيا Sancho de leiva، وهو ابن سانشو مارتينيث دى ليبيا، حتى يقوم بإعاقة مرور أية إغاثة يمكن أن تأتى من بلاد البربر للأعداء، ويزود المناطق الساحلية الغرناطية بالمئونة، وكذلك الجيش إذا سنحت الفرصة لذلك. واشتملت الخطة الثانية [بعد قراره بخوض حرب عظمى] على أن يأمر ماركيز مونديخار الذى كان موجودًا فى أروخيبا لكى يخرج للحرب تاركًا مكانه السيد أنطونيو دى لونا أو السيد خوان دى مندوثا– حسبما يرى– بعد أن يأمرهما بعدم إجراء أية تعديلات أو اتخاذ قرارات للحرب، وأن يتوجها إلى غرناطة ليكونا فى استقبال السيد خوان ويحضرا معًا مجلس شئون الحرب والسلام، وذلك دون أن يتخلى عن وظيفته كقائد عام لشئون مواطنى مملكة غرناطة. إما ذلك أو أن يظل ماركيز مونديخار فى أروخيبا ليحارب هناك، وأن ينتظر الأوامر من السيد خوان دى أوستريا الذى أرسله قائدًا وسيدًا لهذه المهمة.

رأى الماركيز أنه من الأفضل أن يختار الحضور إلى مجلس شئون الحرب والسلام، إما لأنه اعتقد أنه لخبرته فى الحرب السابقة ولمعرفته المكان والأشخاص هناك ولتمرسه فى فنون الحرب التى تربى عليها – وهى ذات طبيعة مختلفة عن كل ما هو تقليدى – كان يرمى إلى كسب ثقة الناس وامتلاك الحكم والأمور فى يديه، أو أنه خشى أن يعمل تحت إمرة شخص غريب عنه فلا يتم تزويده بالمؤن كما ينبغى، ينتظر ليتلقى الأوامر وأحيانًا يقومون بالافتراء عليه وذمه لبُعده عن

أرض المعركة. لذلك قرر أن يترك فى أورخيبا السيد خوان دى مندوثا الذى سرَّه ذلك بعد أن قام بمنحه العطايا وشرف الإنابة عنه. وقد اختاره لخبرته ولعدم انشغاله ولسمعته، وقد كانت تربطه صداقة قديمة بأقاربه – على الرغم من أن البعض يرون أنه لم يكن ذلك هو السبب – اتجه الماركيز إلى غرناطة وعندما خرج من أورخيبا، كانت هذه المنطقة هادئة فلم يقم الأعداء بمهاجمتها ولم يتم محاربتهم بل كانوا يتنقلون بحرية من مكان لآخر.

وصل السيد خوان دى أوستريا وبرفقته لويس كيخادا Luis Quijada – وهو خبير فى إدارة المشاة حيث كان يتولى قيادتهم فى عهد الإمبراطور – وهو رجل عظيم السُلطة أرسله الملك وأسند إليه كل ما يتعلق بتربية أخيه وقراراته؛ نظرًا لخبرته فى تربيته هو نفسه أثناء حكم الإمبراطور. تم استقبال السيد خوان بحفاوة وثقة بكل أشكال الاحتفالات فيما عدا تلك الخاصة باستقبال الملوك، حتى أنهم تملقوه لدرجة أنهم نادوه بلقب «سمو» alteza على الرغم من أن الملك كان قد أمر بأن يُلقبه الوزراء والمستشارون بلقب "سعادة" أو "سيادة " excelencia كما أمر بألا يقبل هو أن يناديه منْ يقومون بخدمته بلقب آخر.

أقام السيد خوان فى دار القضاء لأنها كانت فى وسط المدينة، وكان يُطلق عليها المسلمون قديما دار الشؤم، وها هو هلاكهم قد خرج منها بالفعل. وصل بعد بضعة أيام غونثالو إيرنانديث دى كوردوبا دوق سيسا وحفيد القائد الأعلى الذى بعد أن ترك حكم ميلان – بسبب خصومة وليس بسبب رغبة الملك – كان يعيش فى بيته متحررًا من الأعباء، ولكنه فى الوقت نفسه كان لديه الكثير من الأهداف التى يبغى تحقيقها. قاموا بدعوته لمجلس الحرب والسلام واتخذوه وزيرًا لهذه المهمة نظرًا لخبرته قائدًا للكثير من المهام فى لومبارديا Lombardía. وكان من أهم ما تم مناقشته فى المجلس تأمين مدينة غرناطة ضد الأعداء سواء الذين كشفوا عن أنفسهم خارج المدينة أو المستترين الذين يعيشون بها، بالإضافة إلى زيارة الأهالى المقيمين فى البيازين والمناطق الأخرى فى المدينة وفى الغوطة وعلى الحدود،

وتوزيع الحراسة – وكان ذلك فى الغالب من أجل الاستطلاع والتقصى وليس بسبب الحاجة إلى الحراسة – وقد بقى جزء من المقر الملكى عدة شهور بلاحراسة عرضة لهجوم بعض الأعداء. وفى الريف كان هناك فرقتان فقط من الجنود ولم يكن هناك أى مراقبين للطريق فكان من السهل تشجيع الأعداء على إثارة القلاقل فى المدينة وجعلنا نضطر إلى البحث فى الطرقات هنا وهناك، وأحيانًا كنا كالتائهين لانعرف أى طريق يسيرون فيه. ويطلق أهل الريف كلمة atajadores(*) على المعينين للبحث فى جميع المناطق– سيرًا على الأقدام أو ممتطين الخيول– عن الأعداء ومعرفة إذا كانوا قد دخلوا المدينة أو خرجوا منها. وقد كانت هذه الطريقة فى الدفاع عن الأرض مقبولة بسبب قبول الأهالى للمخاطر حيث إن ألوية الجيش كانت تضم عددًا قليلاً من الجند الذين يقبضون أجورهم، وكانت المدينة كبيرة وتحيط بها الجبال. وإذا كانت المعابر بالجبال فى وقت سقوط الثلج قليلة وآمنة فإنها تكون عند زوال الثلج كثيرة وغير آمنة، وقد ترك المسلمون وراءهم الجيش فى أورخيبا واتجهوا إلى غرناطة على الرغم من بُعدها.

أريد التحدث بإيجاز فيما يلى عن موقع غرناطة نظرًا لأهمية ذلك فى فهم ما سأكتب. تتكون أرض غرناطة من جزء جبلى وجزء منبسط. يمتد الجزء المنبسط بطول نهر صغير يُدعى دارّو Darro يقسمها إلى نصفين وينبع النهر عند جبال سييرا نيبادا، بعيدًا قليلاً عن منابع نهر شنيل، لكن ليس عند الثلوج، حيث الهواء والماء الصّحيان، يأتى إليها المرضى للاستشفاء، وكان المسلمون يأتون من بلاد البربر أيضًا للاستشفاء على ضفاف هذه الينابيع حيث كان يتم استخراج الذهب أيضًا هناك، ومعروف بين كبار السن أن رودريغو ملك إسبانيا كان يمتلك مناجم غنية جدًا بالذهب أسفل الربوة التى يدعونها "ربوة الشمس". ويقع الجزء الوعر من المدينة فى أربعة مرتفعات:– فى الشرق قصر الحمراء وهو مبنى قطنه الكثير من الملوك، وبه البيت الملكى، وسان فرانثيسكو، وقبر الماركيز إنييغو دى مندوثا الذى

(*) كلمة معناها فى الإسبانية من يستولى على الماشية بالقوة أو بالخديعة. (المراجع)

كان أول حاكم للقلعة وقائدًا، وهو مبنى متواضع ويشتهر بذلك. وقد تم إنشاؤه حصنًا لحماية المنطقة التى لا يمكن رؤيتها من قصر الحمراء، وبه ضاحية لاتشورّا La Churra وشارع لوس غوميريس وعلى امتداد ذلك كله تظهر جبال غويخار Güejar وانتيكيرويلا el Antequeruela والأبراج الحمراء التى يطلقون عليها ماورور Mauror . والمرتفع الثالث هو البيازين الذى يتجه إلى الشمال وبها أخاريث Hajariz ثم القصبة وهى تقريبًا خارج المدينة على يمين باب البيرا التى تتجه ناحية الغرب. وتقع جبال كوغويوسCogollos والجبال التى نطلق عليها البونتال على امتداد البيازين والقصبة، وتمتد المبانى حول هذين المرتفعين وعلى سفحهما فى الأراضى المنبسطة حتى نهر شنيل الذى يتجه خارج المدينة. وفى مدخل المدينة نجد الميدان الجديد فوق أحد الجسور وفى نهايتها نجد ميدان بيبارامبلا الكبير والمربع وقد أطلق عليه اسم بوابة بيبارامبلا. والميدانان يجاوران شارع ثكاتين ويوجد قبلهما الكنيسة الكبرى وهى تلى كاتدرائية سان بدرو بالفاتيكان من حيث المكانة والقداسة، ودُفن بها الملك فيرناندو والملكة إيسابيل اللذان استردا غرناطة، كما دُفن أبناؤهما وأصهارهما. وهناك أيضًا نجد القيسرية Alcaicería، والتى يعود اسمها إلى اسم القيصر الرومانى وكانت بيت القيصر. وتروى الحكايات العربية واليونانية أنهم أطلقوا عليها هذا الاسم لأن العرب كانوا يحفظون ويصنعون داخل هذا المبنى الحرير الذى يتم شراؤه وبيعه فى جميع أنحاء المملكة حيث إن الإمبراطور خوستينوJustino كان قد عهد إلى العرب وحدهم تكريمًا لهم تربية دود القز والاستفادة منها. وعندما قوى سلطانهم فى جميع أنحاء العالم تحت لواء محمد قاموا بنقلها معهم أينما ذهبوا، وكانوا يُطلقون على البيوت التى تقوم على هذه التجارة اسم القيصرية، وفيما بعد ضموا إليها أنواعًا أخرى من التجارة بعد سقوط المملكة فى أيديهم، وكانوا يقيمون العلاقات التجارية مع الأباطرة. وفى خارج المدينة يوجد المستشفى الملكى الذى أنشأه الملك فيرناندو والملكة إيسابيل وسان خيرونيموSan Hieronimo وهو مقبرة مقدسة للقائد العظيم غونثالو إيرنانديث وشاهد على انتصاراته، ويوجد أيضًا نهر شنيل الذى يكاد أن يصل إلى

مبانى سينخيليا Singilia القديمة. وينبع النهر من سييرا نيبادا- والتى يُطلقون عليها سولاريا ويسميها العرب سولايرا (شُليرة) Solaira- من بحيرتين عند الجبل المرتفع والذى يطل على البحر. ومن فوق الجبل يتفاخر البعض بأنهم يستطيعون رؤية بلاد البربر. وعند سيرا نيبادا لا توجد أية أرض أو مخرج سوى مخرج النهر الذى تعد منابعه مقدسة لدى القاطنين هناك حيث يقولون إن أحد القديسين ويُدعى سانت الكاثارين Sant Alcazaren قام بمعجزة ثقب الجبل، وقد دُفِنَ هذا القديس فى الجبل المقابل له. وتتجه جبال سييرا نيبادا ناحية الشمال حيث يقل حجمها ثم تتسع بعد مسافة قليلة حيث تبدأ الجداول الصغيرة فى الظهور وتتجمع عندما ينصهر الجليد من فوق الجبل. وقد سكن هذه المناطق شعوب لم يبق منها حتى اسمها، وكانوا يدعونها إيليبرتانوس أو ليبرينوس فى عهد الإسبان القدامى، ونطلق عليها إلبيرا Elvira التى حلت محلها غرناطة وتوجد هناك بعض المزارع والبرج الصغير وبرج روما حيث كانت تقضى هناك "لا كابا" ابنة الكونت خوليان الخائن أوقات الفراغ. والمقيمون هناك كانوا من الجنود الذين جاءوا مع باكو Baco عند قدومه لإسبانيا، كما توضح الأسماء واللافتات والصور التى نُحتت فيها مشاهد المواكب الدينية والشخصيات التى تؤدى الألعاب والاحتفالات بالإله باكو(*) فى منطقة الغوطة. وتلى هذه المنطقة لوخا وأنتيكيرا Antequera واسمها الأصلى سنخيليا Singilia حيث تحمل نفس اسم النهر وإثيخا Ecija واسمها أستيخيسAstigis وكلها مستعمرات رومانية قديمة، وهى اليوم مدن آهلة بالسكان فى أندلوثيا والتى يمر بها نهر الوادى الكبير الذى يروى أراضيها بالمياه ويعطيها شهرة واسعة.

توقفت شئون الحرب والحكم فيما عدا القضاء مع قدوم السيد خوان، وكانت مهام السيد خوان مطلقة وغير محدودة، إلا أن حريته كانت محدودة حيث إنه لم يكن يقضى فى أى أمر كبير أو صغير دون الرجوع إلى المستشارين والملك، فيما

(*) هو إله الخمر عند (الرومان). (المراجع)

عدا الأمور التى تتعلق بالتصدى للأعداء، فإن قراره حيال ذلك نافذ. وقد كان السيد خوان فتى كله حماس وتواضع وطاعة للملك، وكان مهتمًا بأمور الحرب متحمسًا لها وكله رغبة فى المشاركة فيها. وقد أشعل من ذلك الحماس مجد أبيه وعظمة أخيه وانتصاراتهما. وكان أول ما انشغل به السيد خوان هو إصلاح إسراف القادة والجنود فى المسكن والمساهمات واستغلالهم للأجور؛ فقلل من المصروفات ولكنه لم يمنع مع ذلك أسباب شيوع الفوضى. وكانت خبرة السيد خوان قليلة فى كل تلك الشئون لكن ذكاءه ومهارته ساعدتاه كثيرًا.

كان لويس كيخادا رجلاً شديدًا غليظًا، وكان مولعًا بالآداب، وهو الذى أصدر أول أمر فى الموقعة التى أرسله فيها الإمبراطور ضد ملك فرنسا إنريكو الثانى. وقد اعتاد لويس كيخادا ودوق سيسا على التعامل فى شئون الحرب مع ذوى خبرة وذوى سلطات أقل، يملكون العدة الكبيرة ويتقاضون الرواتب الكبيرة المستمرة فى فنلندا ولومباردیا. كان كل منهما بعيدًا عن وطنه، وكان عليهما انتظار الرواتب والرضا بمصروفات الإعاشة بعيدًا عن إسبانيا حيث يفصلهم عنها البحر، ولكن الأمر هذه المرة كان على العكس من ذلك تمامًا.

وكان ماركيز مونديخار- وهو أيضًا قائد عام قبل أن يكون جنديًا- قد تربى على أوامر والده وجده، واعتاد الأجور الزهيدة والنقص فى الجيش الإسبانى، وكانت خبرته بالحرب المفتوحة قليلة. كان رئيس المحكمة عديم الخبرة فى كلا الأمرين، وقد أدت شدة بعض الشخصيات ولين بعضهم الآخر إلى بعض التردد وإلى مشاكل أخرى. كان هناك - مثل ماركيز مونديخار- منْ يؤمن بأن الحرب قد انتهت.

لقد قلَّ عدد القادة ذوى الكفاءة، وفقد الجنود احترامهم، وعمَّ الفساد فساءت وتدهورت سُمعة الجيش الحسنة. وقد أدت قلة عدد الجنود إلى الاحتياج إلى البحث عن جنود جدد ليس فحسب فى أندلوثيا وإكستريمادورا Extremadura، ولكن

أيضًا فى مدن أخرى بعيدة فى مملكة قشتالة حيث أرسلوا فى طلب العَوْن منها. وقد تم إرسال الجنود من مدن قريبة فتم سد العجز الذى كان فى الجيش.

قام ابن أمية بالإغداق على كل منْ جاء ليساعده فى الحرب، وقام بتسليحه وعاد مرة أخرى لطلب العَوْن من بعض أمراء البربر حسب ما يُفهم من الردود التى جاءته. وقام بإرسال الأموال والملابس والأسرى(*) والاقتراب من حصوننا وبصفة خاصة الواقعة فى أورخيبا حيث علم أنها تعانى من نقص فى المئونة. وعلى الرغم من أن جنود السيد خوان دى مندوثا كانوا منظمين ومشغولين بتحصين المكان وفقًا لما يحتاجه من قوة، فإن السيد خوان دى أوستريا طلب منه أن يتزود بالإمدادات فى بادول، وأمره أن يقود جنود الحراسة خوان تشابيث دى أوريانا Juan de Chávez de Orellana وهو أحد القادة الذين جاءوا من تروخيّو Trujillo.

لكن السيد خوان كان مريضًا فأرسل نائبه ويُدعى موريث Moriz على رأس الفرقة، وكان من النبلاء، لكنه كان حذرًا وشديد الاعتداد بنفسه. سار فى صحبة مائتين وخمسين جنديًا وكانوا جميعًا ممنْ ينقصهم حُسن التدبير. علم المسلمون عن طريق جواسيسهم بخروج الحراسة، فقاموا بجمع ثلاثمائة من حاملى المدافع وحاملى الأقواس يقودهم ماكوس Macox وهو رجل رشيد وخبير فى معرفه هذه الأماكن. وقد ألقى القبض عليه فيما بعد السيد فيرناندو دى مندوثا قائد الحملات، ثم قام بمحاكمته دوق أركوس فى غرناطة. قام موريث بعمل أحد الكمائن فى منحدر تاليرا Talera عند نهر صغير يمر بها، ثم كمين آخر عند المنازل، وترك الأعداء ليمروا سالمين من أول كمين ثم هاجم فى الوقت المناسب من كانوا فى المؤخرة والمقدمة، فهزم جنودنا هزموا وقتلوا جميعًا، وقتل أيضًا الضابط لجهله، ويُقال إنه كان ثملاً وفى حقيقة الأمر أنه كان واثقًا من النصر ولم

(*) لا يحدد المؤلف إلى منْ أرسل ابن أمية الأسرى والنقود، هل إلى شمال إفريقيا ؟ (المراجع)

يكن سكيرًا بطبعه. وقد هلك المتاع ومنْ يحمله والمئونة، ولم ينج سوى عدد قليل من الجند، وإلى يومنا هذا يمكن رؤية هياكلهم العظمية فى هذا المكان. ولم يعلم أحد عن التدبير لهذه الواقعة، وكان سببها ما عُرف عن الأعداء من أنباء تفيد بأن كثيرًا من الموريسكيين المعاهدين قد اجتمعوا مع ماكوس، وكان الناس فى هذا المكان يؤون المسلمين إليهم، ويمدونهم بالمؤن، وكانت بينهم معاملات كثيرة، فأضحى ضروريًا معاقبتهم وتدمير المكان ليكونوا عبرة لغيرهم ولكى يتم معاقبة الساخطين على الأوضاع.

تقع البونيويلاس Albuñelas على سفح الجبل عند مدخل بال دى ليكرين وهى مخزن لكل الثمار والثروات، وهى تبعد مسافة خمسة فراسخ من غرناطة، وتنقسم إلى ثلاثة أحياء متباعدة عن بعضها البعض، ويتصف أهلها باللين وبمدنية أكبر من قاطنى الجبال. واتسم رجالها بالشجاعة والقدرة على الصمود أمام أسلحة الملك الكاثوليكى فيرناندو حتى حصلوا على امتيازات كبيرة عند تسليم المدينة.

تلقى السيد أنطونيو دى لونا، قائد الغوطة أمرا بالخروج على رأس خمسة ألوية من المشاة ومائتين من الفرسان والنزول صباحًا بالبونيولاس وذبح رجالها وأسر الجميع ونهب الثروات وإشعال الحرائق وهدم البيوت. إلا أن السيد أنطونيو – وهو رجل حذر وحريص – وصل متأخرًا عندما كان جزء من الأهالى قد فر إلى الجبال، والجزء الآخر تأهب للدفاع عن الطرق والمنازل بعد أن اتخذوا مسلمًا يُدعى لوبي Lope قائدًا لهم. ويرجع سبب تأخر السيد أنطونيو إما لعدم حسابه للوقت جيدًا أو لأن الجنود الذين كان قائدًا عليهم تباطأوا فى السير. تمت المهمة فى بطء شديد، وحارب الجنود بفتور شديد فقتل عدد قليل من الأعداء أغلبهم من الشيوخ والمتثاقلين والمرضى وقتل من جنودنا البعض وتم أسر الأطفال والنساء الذين لم يستطيعوا الهرب إلى الجبال. وتم نهب أحد الأحياء الثلاثة، وكانت المواجهة ضعيفة، حيث كانوا يخرجون من مكان فيدخلون هم فيه وقد دخل الأعداء

المنازل وأقاموا بها وحصدوا محاصيلهم وقاموا بالزراعة للعام التالى دون أية عوائق.

فى تلك الأثناء عم الهدوء المدينة وتوقفت القلاقل التى كان يحدثها المسلمون ثم قام قائد يُدعى ناقوس بحكم المسلمين فى المنطقة الواقعة عند الوادى وفى الغوطة، وكان له حضور بينهم فى جميع الأوقات والأماكن.

كان ناقوس قد تقابل فى إحدى المعارك مع أنطونيو دى لونا، وكانت أعداد الجنود المشاة فى الجيشين متساوية تقريبًا، إلا أن السيد أنطونيو كان يتفوق عليه فى عدد الفرسان وانتهت المعركة بالتساوى للطرفين تقريبًا بلا قتال، ونجا ناقوس، وكان الوهد يفصل جنوده عن فرساننا. ويقال إن ناقوس قام بعد ذلك بعبور سلسلة جبال المجرة Almijara الجبلية، ثم انطلق من المونييكار نحو أراضى البربر حاملاً معه ممتلكاته وعائلته. رأى السيد خوان أن أعداد المسلمين وخبراتهم فى تزايد، حيث كان موريسكيو غرناطة يقومون بإبلاغهم وتحذيرهم من إغارتنا عليهم، وكان يتم تزويدهم بالإمدادات والمساعدات من قبل شباب الغوطة، كما أن المعاهدات والمؤامرات لم تكن قد انتهت، وكان خطر تنفيذ أولى هذه المؤامرات لا يزال قائمًا، حيث كان هناك تحديد لليوم والساعة التى سيقومون فيها بالهجوم على المدينة، بعد أن اتخذوا قادة لهم من الموريسكيين، أمثال خيرون وناقوس وأحد أفراد عائلة الباراتال وفراج وتشوكون وريانداتى، ومن الأتراك كاركاكس وحسينى ودالى القائد العام الذى قدم بأمر من ملك الجزائر، لذلك قام باتخاذ الحذر فى كل مكان وزاد من خطر انضمام الأعداء إلى أهالى غرناطة والغوطة، كما أصلح الضعف الذى كان يجده فى الناس بسبب فساد الأخلاق واندلاع الحرب.

أمر الملك بخروج جميع الموريسكيين القاطنين فى غرناطة ليعيشوا متفرقين فى مناطق بقشتالة وأندلوثيا، حيث رأى أن استمرار وجود الموريسكيين بالمدينة سيكون سببًا فى استمرار التآمر والخطط والرغبة فى الثورة داخل وخارج المدينة. دبَّ الإحساس بالريبة والقلق وانعدام الأمان بين رجالنا وبدا لمن هم قليلو الخبرة

فى حكم الشعب أن قمع أو خداع الأعداء داخل المدينة ومقاومة من هم خارجها هو تعرض كبير للخطر. لذلك قرر السيد خوان فى الثالث والعشرين من يونيو حبس جميع الموريسكيين فى الكنائس، وقدم إلى المدينة عدد من الجنود المرتزقة التى تطمع فى الحصول على رواتب من الملك، فقام السيد خوان بتسليح الجنود، وتوزيع الفرسان والمشاة على الكتائب، وأمر ماركيز مونديخار بالصعود إلى البيازين لإقناع الموريسكيين بالتجمع فى الكنيسة. وعندما تم تجميع الموريسكيين بهذه الطريقة قاموا بإرسالهم إلى المستشفى الملكى خارج غرناطة، دفعة واحده، تمامًا كمن يطلق طلقة من مدفعه. وخرج السيد خوان فى الطرقات مع حراسة من الفرسان ومرشد له. ورأى كيف أن الموريسكيين يخرجون لينفذوا أمر التجمع فى الكنيسة وكلهم حيرة حول ماهية المصير الذى ينتظرهم، وقد بدا عليهم أنهم قد أجبروا على تنفيذ هذه الأوامر، فكانوا يسيرون منكسى الرؤوس يبدو عليهم الحزن والأسى الذى أدى إلى قيام أحدهم بجرح أحد الأشخاص القريبين من السيد خوان، ويقال إنه كان يقصد الهجوم على السيد خوان نفسه، و لكنه لم يتمكن من ذلك حيث قاموا بتقطيعه إربًا. ولو كنت شاهدًا بنفسى على هذه الواقعة لحكمت بأن ما فعله هذا الرجل مع الجندى كان انعكاسا للحنق الذى يشعر به، ولم يكن ترتيبا مسبقًا. مكثت النساء فى ديارهن بعض الأيام لبيع الملابس والحصول على المال لإعالة أزواجهن، وتم إخراج الموريسكيين من المدينة وهم مكبّلو الأيادى بالحبال وتحيط بهم حراسة من المشاة والفرسان من جميع الجوانب، وكانوا تحت إشراف بعض الأشخاص الذين أسندت إليهم مهمة توزيعهم على مناطق محددة فى أندلوثيا وحراستهم حتى لا يقوموا بالهروب ولا يقوم أحد بالاعتداء عليهم. تبقى بالمدينة بعض التجار والمسئولون عن القيام ببعض الخدمات والمعاملات فى المدينة، كما تبقى البعض الآخر بسبب علاقتهم النفعية ببعض الأصدقاء. وقام الشباب ممن تكهنوا بسوء الأحداث بالهروب إلى الجبال، ووجدوها شديدة الارتفاع. وكان عدد من خرج منهم ثلاثة آلاف وخمسمائة، الغالبية العظمى منهم من النساء. لقد كان خروجهم مثيرا لشفقة من رآهم من قبل ذلك ينعمون بالراحة والخيرات فى ديارهم.

مات منهم الكثيرون فى الطريق بسبب المشقة والتعب والحزن والجوع، وقد تم إجبارهم على هذا الوضع بقوة الحديد والنار من قِبل من كلفوا بحراستهم، وبدلاً من الحراسة قاموا بسرقتهم وبيعهم كأسرى.

كان الملك قد أرسل فى طلب أشخاص لرعاية شئون المالية، حيث لم يكن هناك من قبل من يقوم بذلك، وقام بتعيين محاسب وصراف ومراقب عام وآخرين خصوصيين، وخصص لهم مجلسًا يرأسه مونياتونيس Muñatones الذى عمل عمدةً للعاصمة أيام الإمبراطور وكان عضوًا فى مجلسه. وهو رجل شريف، تأرجح حظه كثيرًا بين اليسر والعسر. وعندما خرج الموريسكيون من غرناطة فقد الجنود امتيازاتهم فقد توقف صرف رواتبهم ولوازمهم، وتوقفت أنشطة تجارية كثيرة مثل توفير الأسرَّة وأدوات المائدة، وكلها أشياء تستخدم فى الضيافة ولا يمكن الاستغناء عنها والعيش فى راحة بدونها. كانت المدينة والجنود لا يزالون يفتقرون إلى المؤن، لكن بدأ وصول الإغاثة والإمدادات وتعديل الأحوال السيئة. وكان القواد وضباط الجيش هم أكثر المستفيدين من هذه الإمدادات فكانوا يستولون عليها[*] بدلاً من أن تصل إلى الجنود أو الأهالى. وكان هؤلاء يدفعون الضرائب التى كانت مفروضة على الموريسكيين، أما الحمالون ومن يقومون ببناء المساكن فكانوا معفيين منها. تفشت السرقة بينهم فلم يفرقوا بين صديق أو عدو ولا بين مسلم أو مسيحى، وبدأ الجنود يشعرون بالتعب والمعاناة، وشرعوا فى الرحيل، وتفاقمت الفوضى وساءت الأحوال وكانت تدعو إلى الشفقة فى الغوطة. ثم توصل المسئولون إلى فكرة أنهم يجب ألا يتخذوا أية إشارات حتى لا يعلم الأعداء بقلة عدد الجنود، وألا يقوموا بأية تعديات تجاه الجنود حتى لا يقوموا بالتمرد والهروب. كان عدد الأهالى داخل المدينة كبيرًا، وكانوا من الأخيار المسلحين، أما الموريسكيون فكانوا بالخارج وعدد الجنود بالداخل لم يكن بالقليل ولم يتفوق عددهم – بالإضافة إلى عدد الأهالى – على عدد الأعداء. وكانت هناك حراسة من المشاة

---

[*] لاحظ النقد الذاتى الذى يمارسه المؤلف. (المراجع)

والفرسان فى الغوطة، بينما كان السيد خوان دى مندوثا متسلحًا فى أورخيبا. إننى أتساءل ممَ كان الخوف الذى يعيق تنفيذ المهمة؟، وقد فرَّ مسلمو الغوطة إلى الجبال فرارًا من المعاملة السيئة. لقد دامت هذه الأحوال أشهرًا كثيرة وتسببت فى اختلاف مقاصد الأفراد وكثرة الشكوى بسبب زيادة الأزمات والفقر.

قرر الملك – كما كان متفقًا عليه – أن يقوم ماركيز بيليث بتولى مسؤولية القوات فى المرية وغواديكس وباثا ونهر المنصورة وجبال فيلابريس، وعندما أراد الخروج لقتال الأعداء بدا له أنه من الأفضل تأمين الميناء الذى يدعى راباها Ravaha، وهو معبر بين البشرات وأرض غواديكس وغرناطة، فقام بأمر غونثالو فيرنانديث ــ وهو قائد قديم، شهد اشتباكات وهران ــ أن يخرج إلى أعالى الميناء بصحبة أربعمائة رجل من غواديكس ثم ينتظر الأوامر منه. بدأ غونثالو فى صعود الجبل، إلا أن المسلمين كانوا يختبئون فى الجزء العلوى منه، وفى الجزء السفلى أيضًا، فقاموا بترك قوات السيد دييغو فى الصعود قليلاً، ثم هاجموا مقدمة الفرقة بأربعين من حاملى البنادق، وهاجموا مائة من الجنود فى جانب الفرقة، مما أحدث خللا بها، وقاموا بسحقها فقتل الكثيرون عند محاولتهم الهرب وفقدت الأسلحة والزاد والمئونة التى كانت معهم، فعاد عدد قليل من الجنود بصحبة قائدهم إلى غواديكس. خشى السيد خوان أن يقوم الأعداء بمهاجمة غواديكس، فقاموا بتزويدها بالحماية بقيادة فرانثيسكو دى مولينا Francisco de Molina الذى كان قائدا للإمبراطور فى حروب ألمانيا.

وبعد حادثة راباها Ravaha اندلعت الثورة فى جبال بنتوميث وأرض بيليث مالقة، ولم تحدث تجاوزات فى البشرات، واكتفى الثوار بحزم أمتعتهم والتوجه إلى الأماكن الحصينة دون إحداث أضرار، واتفقوا على ألا يقوم أحد بقتل أو أسر مسيحى أو حرق الكنائس أو سرقة المسيحيين أو المسلمين الذين رفضوا الذهاب معهم. قام من خرج منهم بتحصين جبل يُدعى فريخيليانا القديمة وتأمينه، وهو يختلف عن جبل فريخيليانا الحديثة الذى يقع بالقرب منه والذى أصبح مهجورًا منذ

وقت طويل، وقد أطلق عليه الإسبان القدامى والرومان سيكسيفيرموم Sexifirmum

إلا أن مراقب مالقة وبيليث الذى يُدعى أريبالو دى سواثو Arévalo de Suazo، عندما علم من رسائل السيد خوان أن المسلمين المختبئين بالجبل يعتزمون القيام بثورة واحتلال بيليث، أيقن أن هذه الثورة يمكن أن تمتد إلى منخفض مالقة وحتى أراضى روندة إذا لم يتم إخمادها فى الوقت المناسب، فغادر مالقة بصحبة أربعمائة من المشاة وخمسين فارسًا أملاً منه فى الاتفاق مع المسلمين والتوصل معهم إلى حل سلمي. وعندما وصل إلى بيليث قام بإخراج الأهالى من مساكنهم المنيعة، والذين كانوا قد تركوا الأراضى دون حماية أو تأمين. استعد دى سواثو للدفاع عن هذا المكان وشرع فى إنقاذ قلعة كانيليس Castillo de Caniles التى كانت مقرًا لماركيز كوماريس - وكان قد تم التضييق عليه - وقام بطرد المسلمين من الأراضى، فقاموا بالانضمام إلى مسلمى سيديا Sedella ومنْ هم فى الجبال إلى أن قاموا بالثورة التى أشرت إليها. عاد سواثو إلى بيليث بعد أن ضم إليه ألفا وخمسمائة من المشاة وعددًا من الفرسان، وتوجه إلى الجبال حيث يختبئ المسلمون، لكشف الأماكن التى يحتمون بها وقتالهم. وهناك وجدوهم يختبئون بجبال فريخيليانا القديمة، وكان يقودهم غوميل بمعاونة بعض القادة الآخرين، وكانوا جميعًا تحت إمرة بنغـــواثيل ولكن عند صعود الجبل اعتقد الجنود أنه يكفى لإخافتهم مجرد إظهار الأسلحة التى يحملونها، وقام بعض الجنود بالدخول تحت لواءين من المشاة دون أن يتلقوا أية أوامر بذلك واشتبكوا مع المسلمين دون أى نظام. ولم يستطع أريبالو إثناءهم عن ذلك حيث كان منشغلا بألا يتبعهم من تبقى من الجنود، إلا أن المسلمين الذين صمدوا فى هذا الاشتباك عندما رأوا أن الجنود بدءوا فى معاودة القتال، أصابهم الاضطراب، فانسحبوا إلى حصونهم، ولكنهم قاموا باستخدام البنادق والسهام بالتضييق على جنودنا التى أوشكت على الانهزام، وقتلوا الكثيرين فى ساحة المعركة. وبعد أن قام أريبالو بالقتال تم الانسحاب وتأمين

الجنود، عاد معهم إلى بيليث بعد أن قتل بعضهم وجرح البعض الآخر، وهناك قام بحراسة المكان. وعاد المسلمون إلى حصونهم فى الجبال مرة أخرى ليستعيدوا قوتهم. وعندما رأى السيد خوان ما حدث بدا له أنه من الأفضل أن يعين قائدا آخر لهذه المهمة يقوم بها مع تحمل خسائر أقل ويكون له سلطة أعلى على الجنود، فاختار بأمر من الملك ماركيز كوماريس السيد دييغو دى كوردوبا، وهو سيد عظيم داخل أندلوثيا وخارجها، علقت عليه آمال كثيرة، حيث كان جزءًا من بلده يقع فى هذه الجبال، وهو رجل مسالم ورصين، لذا عندما وقع عليه الاختيار عرض عليه الأمر بحيث رفض لأسباب واضحة وجلية. وفى تلك الآونة بدأت ترتيبات ملك الجزائر لمحاربة ملك تونس مولاى حميدة، ولم يتدخل ملك فاس. انطلق ملك الجزائر على رأس جيش من سبعة آلاف من المشاة الأتراك والأندلسيين واثنى عشر ألفًا من الفرسان جزء منهم من رجاله والجزء الآخر من المزارعين، وتجمعوا كلهم بالقرب من بيخا Beja وهى مدينة كبيرة، على بُعْد عشرين فرسخًا من تونس. إلا أن ملك تونس هُزم فى هذه المعركة وانسحب مع مائتين من الفرسان نحو مكان يدعونه أرض البلح. سقطت بيخا وتونس – وهى اليوم تحت سلطة الأتراك – كما سقطت بنزرت Biserta التى بدءوا فى تحصينها، وهى تعد إقليما خصبًا لمنْ يتمكن من استغلاله والمحافظة عليه، وقد أسماها اليونانيون هيبون دياريتوس Hippon Diarritos،أما أغاتوكليس Agatocles – وهو طاغية صقلية – فقد أطلق عليها بونا Bona وذلك فى معركته الكبيرة ضد القرطاجيين. ولكى أزيل أى غموض فسأوضح ما أعرفه عن هاتين المملكتين. كانت مملكة فاس فى يد سيفاكس Sifax الذى حارب الرومان وبقى اسمه خالدًا فى قصصهم. وبعد تغييرات كثيرة توالت على المدينة قام إدريس – وهو من سلالة على والذى فتح أرض البربر – بإعمار المدينة وهم يحتفظون بخنجره معلقًا فى مسجدهم الرئيسى تكريمًا له. وقد أطلق "على" اسم فاس على المدينة نسبه إلى النهر الذى يقطعها عند المنتصف. وشيَّد مبانيها أمير المؤمنين يوسف زهير بن يعقوب الذى ينتسب إلى بنى مرين، والذى هزمه الملك ألونسو فى معركة طريفة Tarifa. ولكى يتمكن من

محاربة ملك تلمسان بسهولة جعل نقيب الأشراف من فاس مركزًا للمملكة. وكان الشريف داعيًا دينيًا وله منزلة القديسين، وهو من نسل محمد، وقد جمع بين الدين والسيادة، حيث كان له مُلك المغرب وفاس تمامًا كما فعل الكثيرون من ملته بدءًا من محمد حتى المرابطين والموحدين وبنى مرين، وهم جميعهم اليوم من المتدينين المسلحين الذين استطاعوا الوصول إلى الحكم من خلال هذين العاملين. أما عن مملكة تونس فهى ضاربة فى القدم حيث تأسست على ما تبقى من مدينة قرطاج العظمى التى دمرها سيبيون الإفريقى Scipión Africano وأعاد تأسيسها مرة أخرى القناصل الرومان أولاً على يد تيبيريو جراسكو، ثم نقلت إلى مكان أكثر اتساعًا على يد القيصر أغسطس Augusto وقطنها الرومان وحكمها الأباطرة، ثم سقطت فى أيدى الفندال واستردها مرة أخرى بيليساريو Belisario وهو قائد للإمبراطور قسطينيانو Justiniano، ثم شكلت فيما بعد حوالى ثلث مملكة اليونانيين حتى قدوم العرب الذين فتحوها بقيادة عقبة بن نافع، قائد معاوية، بعد أن سحق وهزم وقتل الكونت غريغوريو مساعد ونائب الإمبراطور قسطنطين ـــ ابن قنسطانط ـــ على رأس سبعة آلاف من الفرسان المسيحيين فى معركة كبيرة بالقرب من إفريقيا والتى يدعوها المسلمون مهدية(*) (نسبة إلى أمير يُدعى موحدين Moahedín، ويدعوه الرومان أدرومنتم Adrumentum وهو الآن مكان خرب كان قد دمره جيش الإمبراطور كارلوس. وقد كان فى حيازة الكونت غريغوريو ـــ ويطلق عليه العرب اسم غروغير Groguir ـــ الكثير من النساء الشديدة الجمال والمتزينة بكافة أشكال الحلى. وكان يُحمل على محفة مطعّمة بالأحجار الكريمة ومطلية بالذهب ويحيط به دائمًا شابان يقومان بنفض أى أتربة تعلق بملبسه بمذبة مصنوعة من ريش الديك الرومى.

احتل معاوية مدينة قرطاج بعد أن سلمتها ماريا – ابنة الكونت غريغوريو– وتعهد معاوية بالزواج منها، لكنه فيما بعد لم يكن مسرورًا بهذه الزيجة فتركها.

(*) الثابت أن عبيد الله المهدى قد اتخذها عاصمة للبلاد نحو عام ٩١٢ ميلادية. (المراجع)

وقد أخلى معاوية المدينة من السكان ونقلهم حيث مدينة تونس اليوم، والتى كانت حينئذ مكانا صغيرا وقد حملت دائمًا نفس الاسم. وقد تم توزيع الرومان على اثنتى عشرة قرية، وهى اليوم مِلك لمزارعين مسلمين عند ساحل قرطاج التى كانت تنافس مدينة روما. ولا يزال اسم مدينة قرطاج باقيًا إلى اليوم حيث يطلق على قرية صغيرة خالية من السكان. إنه حال العالم الذى هو دائمًا فى تقلب مستمر وليس من ضامن لبقاء الأمم.

كان نظام الحكم فى تونس جمهورى حتى عهد أمير المؤمنين يوسف الذى أرسل قائده عبد الواحد ـ وهو من إشبيلية ـ ليحكمها ويدافع عنها ضد العرب وقد أصبح ابنه سيدًا على تونس وكان أول ملك عليها حتى قدوم موزتاوكس Muztaucoz(*) الذى رفع من مكانة المدينة وخلفه حميدة الذى يحكم اليوم ـ وهو دوره فى الخلافة وفقًا لروايتهم ـ ولكن الحقيقة أنه أعمى بصر والده مولاى حسن لكى يأخذ الحكم منه بعد أن كان قد انتزعه من الإمبراطور كارلوس - الذى هزم العديد من الممالك - وقام بطرد بارباروخا Barbaroja الذى ولاّه السلطان التركى.

أما عن بدايات مملكة الجزائر وتأسيسها فقد كانت أقل حجما من مملكة تونس، لكنها اليوم لها شأن عظيم. أطلق عليها المسلمون اسم الجزائر نسبة إلى جزيرة تقع أمامها، أما نحن فنطلق عليها أرخيل Argel، وقديمًا عَمّرها أهالى ثيساريا Cesarea والتى تُدعى اليوم شرجيل Xargel وكانت الجزائر دائمًا تحت حكم ملوك القوط الإسبان حتى قدوم المسلمين، ولم تدم طويلاً تحت حكمهم الذى كان فى يد شيوخهم، إلا أنه فيما بعد قام الملك فيرناندو الكاثوليكى بفرض الضرائب على ملكها مقابل إعمار جزيرة البنيون Peñón . وبعد موت الملك قام

(*) الذى سبق مولاى إحميدة فى حكم تونس هو أبوه مولاى الحسن، وبعد مولاى إحميدة أعقبه مولاى محمد. لعل أقرب الأسماء إلى الاسم المذكور هنا هو "المستنصر" الذى حكم تونس عامى ١٤٣٤، ١٤٣٥). (المراجع)

الكاردينال الراهب فرانثيسكو خيمينيث - الذى حكم إسبانيا فى بدايات مملكة الإمبراطور كارلوس - بالاستيلاء على بجاية - وهى البيت الملكى للملك بوتشو ملك موريتانيا، وقد أسماها العرب على اسمه - وأراد رفع الضرائب وحاول الاتفاق من جديد مع الشيخ الحاكم، إلا أن المسلمين غضبوا من ذلك، فقام الكاردينال - وهو رجل حرب كانت لا تزال حماسته للمعارك متأججة - بالإغارة على حاكم الجزائر فى معركة قادها دييغو دى بيرا Diego de Vera وخوان ديل ريو Juan del Río. واستأجر من كانت لهم أعمال متواضعة لكى يشاركوا فى المعركة وفى مقابل ذلك يستطيع أولادهم أن يتقلدوا نفس وظائفهم، ومنْ لا يستطيع الذهاب والمشاركة فى القتال فعليه أن يقدم من ينوب عنه، وذلك تبعًا لأهمية وظيفته. لكن الكاردينال خسر المعركة لسوء اختيار الوقت ولاضطراب وقلة خبرة الحكام، وكانت هذه أول مرة تحدث فيها هزيمة فى معركة على الجزائر. إلا أن الشيخ الحاكم خشى أن يتم استئناف القتال مرة أخرى فاستقبل بارباروخا(*) Barbaroja - وهو شقيق حاكم تونس الطاغية - كضيفٍ ومحارب وأصبح نائبًا ومساعدًا له وقويت شوكتهما بعد أن كانا من المنهزمين. وكان عروج بارباروخا - هذا هو اسم الشقيق الأكبر- قد شارك فى المعركة التى سقطت فيها بجاية، لكنه خسر الوقت والجنود، كما فقد إحدى ذراعيه وجيشه، لكنه استطاع أن يجمع أربعين من التراك واحتمى بأحد الحصون الصغيرة ثم طلب منه شيخ الجزائر القدوم لمساعدته مقابل أجر. وبالفعل ذهب إلى الجزائر وقام بالاتفاق مع رجال الدولة ذوى السلطة وقام بقتل الشيخ - وكان يُدعى سليم إتينرى (الثانى؟) Selín Etenri - أثناء تناوله الطعام بأحد الحمامات ثم فرض سيادته على المملكة وأطلق على نفسه لقب ملك، وأسند لأخيه خير الدين حكم الجزائر، إلا أنه طرد على يد قواد حاكم لوس دونثيليس - وهو جد ماركيز كوماريس الذى كان قائدًا لوهران - وعندما قتل فى أثناء هروبه ظل حكم الجزائر فى يد أخيه. كان السيد هوغو دى

(*) يقصد عروج بارباروخا شقيق خير الدين. (المراجع)

مونكادا Hugo de Moncada قد قام بفرض الضرائب على لوس خيلبس Los Gevles بعد مرور عدة أعوام على هزيمة الكونت بدرو نابارو Pedro Navarro، وموت السيد غارثيا دى توليدو Garcia de Toledo – وهو ابن دوق ألبا السيد فادريكى Don Fadrique والد الدوق السيد فيرناندو والذى يحكم اليوم ولايات فلاندیس – قدم السيد هوغو إلى الجزائر على رأس جيش بأمر من الإمبراطور محاولاً تدميرها وتأمين سواحل إسبانيا. إلا أنه اشتبك مع جيش السيد دييغو دى بيرا وخوان دل ريو اللذين انتقما منه وتسببا فى فقدانه العديد من جنود الجيش. وعندما حاول إدخال المزيد من الجنود لتلاشى نقصان أعدادهم بسبب خوفهم من عبور البحر، تمت هزيمته، وخسر السيد هوغو كل شيء.

قويت شوكة بارباروخا وامتد سلطانه فى بقاع الأرض وقام بهدم جزيرة البنيون، ثم مد إليها الجسور ليضمها إلى الأراضى الثابتة، كما احتل مناطق فى البحر واحتل شرجيل Xargel وجيجان Guijan وبريسكا Brisca ومملكة تونس بالرغم من صغرها.

ذاعت الأخبار عن عزم السلطان التركى احتلال إفريقيا لتأمين أبنائه، وكان ينوى تعيين بايزيد Bayaceto – الذى انتحر فيما بعد – على مملكة تونس، فزوَّد بارباروخا بالقوة والسلطة من أجل تحقيق هدفه ولكى يقوم بالضغط والتضييق على الإمبراطور. قام السلطان التركى بتزويد بايزيد بأسطول لاحتلال وتأمين مملكة تونس، ولكن الإمبراطور قام بطرده منها، فتوجه إلى القسطنطينية حيث أصبح قائدًا لجيش السلطان التركى، وأصبح من المقربين المكرمين إلى أن وافته المنية، وقد زاده شرفًا هزيمة الإمبراطور له، حيث إن الأشراف المنتصرين يمنحون الشرف حتى لمنْ يقومون بهزيمته. وقد بقى ملك الجزائر فى سلطة الحكام الذين كان يرسلهم السلطان التركى، إلا أن الإمبراطور خشى أن يهدد السلطان التركى مملكته انطلاقًا من الجزائر، وعندما كان فى ألمانيا فى التوقيت نفسه الذى حاول فيه السلطان التركى الإغارة عليها لم يجرؤ على التصدى له حيث كان يفتقد إلى

المال. وقد كان ذلك شيئا مخزيا قلل من شأنه(*)، فحاول تدارك الموقف واسترداد سمعته فهاجم مملكة الجزائر، لكنه هزم بسبب العواصف وانسحب بجيشه إلى بجاية، وفقد عددًا كبيرًا من الجنود، لكنه استطاع إنقاذ ما تبقى منه وأنقذ بذلك سمعته كقائد مقاوم وبارع وشجاع. ومنذ ذلك الحين قويت شوكة الأتراك بالجزائر دون أن يلقوا أية مقاومة، فاستولوا على تلمسان Tremecen وبجاية Bugía، وقام قراصنتهم بالاستيلاء على خايونا Jayona وأخذها من المسلمين، كما احتلوا طرابلس والتى كانت تابعه لفرسان القديس خوان. قام الأتراك أيضًا بتحطيم العديد من السفن ولم ينهزموا قط سوى فى المعركة التى قام فيها السيد بيرناندينو دى مندوثا Bernandino de Mendoza بهزيمة على حامدى Ali Hamete وكاراماى Cara Mami – وهم من قادة السلطان التركى – وذلك فى جزيرة أربولان. وكانت كل تلك الأحداث سببًا فى عظم شأن مملكة الجزائر وفى القوة الهائلة التى تمتلكها اليوم.

(*) لاحظ انتقاد الإمبراطور ولم يكن ذلك شيئا مألوفا. (المراجع)

الكتاب الثالث

جدد السلطان التركى، بالاتفاق مع ملك الجزائر، الآمال فى نفوس مسلمى غرناطة لكى يشغل - من خلالهم- كما قلنا، قوات الملك فيليبى بينما تستعد قواته لمواجهة فينيسيا؛ فكان كالذى لا يفوِّت فرصة يمكنه الاستفادة منها، مهما كانت صغيرة (مع التظاهر بأنه لا يعيرها اهتمامًا). وفى أثناء ذلك قام القائد الأعلى السيد لويس دى ريكيسينس بإخراج قوات المشاة الإسبانية من المملكة وأنزلهم فى السفن الشراعية العملاقة الإيطالية، تاركًا أمرًا للسيد ألبارو دى باثان بأن يعبر الجزر بأربع عشرة سفينة من نعبولى، كانت تحت قيادته، وثلاثة ألوية من المشاة الإسبانية، وأن يؤمِّن تلك البحار ضد اعتداءات القراصنة الأتراك.

أتى إلى سبتة القديمة Civitavieja؛ ومنها إلى ميناء سانتو استيفانو، حيث انضمت إليه تسع سفن شراعية كبيرة وغليون دوق فلورنسا، ولكن منعته الأحوال الجوية فدخل إلى مارسيليا.

وبعد قليل، وعندما ظهر له تحسن الأحوال الجوية، استمر فى رحلته، ولكن عند دخول الليل بدأ ينخفض معدل درجات الحرارة، وهبت رياح ناربونية - وهى رياح تثير عواصف شديدة فى ذلك الخليج والممر الذى يؤدى إلى ساحل البربر شمال إفريقيا، مع أنه بعيد - وقد تعرض الأسطول لهذه الظروف على مدى ثلاثة أيام، حيث ضاعت بعض السفن عن السفن الأخرى؛ وتحطَّمت المجاديف، والأشرعة، والدفَّات؛ وفى النهاية استطاعت بارجة قائد الأسطول وحدها أن تصل إلى جزيرة مينوركا، ومنها إلى بالاموس؛ حيث حاول الأتراك - الذين كانوا متأكدين من ضعف قواتنا بسبب عدم النوم واستمرار العمل - الاستيلاء على البارجة، ولكن لما شعر بهم القائد الأعلى أعدم ثلاثين رجلاً منهم.

وقد لحقت الهزيمة ببارجة القائد الأعلى ولحقت بها تسع سفن من السفن الأخرى؛ وفُقدت أربع منها بالجنود والرعاع والسفينة التى كان يقودها استيفانو دى مارى، وهو رجل لطيف وأنيق من جنوة، ووسط حضور كل السفن الشراعية فى الخليج هجمت سفينة من أحد الجوانب على سفينة أخرى، فنجت التى وقع الهجوم عليها، أما التى هاجمت فقد غرقت، وهو حدث نادرًا ما يقع فى البحر؛ السفن الأخرى ارتطمت بالشاطئ فى كورسيكا وسردينيا، أو وصلت إلى مناطق أخرى وقد ضاعت الملابس، والطعام، والمؤن والمعدات وأشرعة الحبال، دون وقوع أضرار بين الناس. وبعد هدوء العاصفة، وصل السيد ألبارو دى باثان إلى سردينيا ومعه سفن نعبولى؛ وقد أعدّ ونظّم خمس سفن ظلت متأهبة للإبحار؛ وأنزل بها الجنود الذين استطاع إنزالهم؛ ووصل إلى بالاموس Palamos، وانضم إلى القائد الأعلى، وأبحروا إلى شاطئ مملكة غرناطة، فى الوقت الذى وقعت قبله بقليل حادثة بينتوميث وحوادث أخرى، وكلها فى صالح المسلمين أكثر مما هى فى صالحنا.

وأخذ معه من كارتاخينا السفن الإسبانية التى أحضرها السيد سانشو دى ليبا (Sancho de Leiva)؛ وعند عودة السيد ألبارو لحماية شواطئ إيطاليا، رحل ومعه خمس وعشرون سفينة فى طريقه إلى مالقة.

ولكنه عندما نبّهه أريبالو دى سواثو (Arévalo de Sauzo) بما حدث فى بينتوميث Bentomiz أرسل السيد ميغيل دى مونكادا Miguel de Moncada ليستمر مع السيد خوان فى محاولته، وقد علم أيضًا بالخطر الذى يهدد تلك المنطقة بأكملها، إذا لم يجد حلاً لذلك بسرعة، ودون انتظار مشورة الملك.

وفى أثناء ذلك أعدّ سفنه وهيّأها؛ وأعاد تنظيم المشاة وسلّحها وقسّمها إلى عشرة ألوية تضم ألف جندى من القدامى وخمسمائة من الجنود المحاربين فى السفن؛ وجمع وسلّح ثلاثة آلاف من جنود المشاة من مالقة، وبيليث وأنتيكيرا، عن طريق أريبالو دى سواثو وبدرو بردوغو Pedro Verdugo.

عاد السيد ميغيل مع وفد السيد خوان، ورحل القائد الأعلى لمحاربة الأعداء. وعند وصوله إلى تورّوكس (Torrox)، أرسل السيد مارتين دى باديّا (Martin de Padilla)، ابن قائد قشتالة، مع إحدى فرق المشاة السريعة لاستطلاع حصن فريخيليانا (Frexiliana)، فعادت الفرقة وقد جلبت معها بعض الماشية. ثم توقف عند سفح الجبل؛ وبعدما تعرّف عليه واستكشفه من مسافة قريبة جدًا، سلّم قيادة الجبهة للسيد بدرو دى باديا مع جزء من ألويته وغيرها، وأمده بحوالى ألف جندى من المشاة، وأمره أن يصعد مباشرةً. وأمر السيد خوان دى كارديناس (Juan de Cardenas)، ابن كونت ميراندا، بالصعود من جانب البحر بأربعمائة من المغامرين وبعض أفراد من ألوية إيطاليا، ومن الجانب الآخر أمر السيد مارتين دى باديّا بالصعود بثلاثمائة جندى من المحاربين فى السفن وبعض الجنود من مالقة وبيليث؛ والآخرون الذين كُلِّفوا بالهجوم من خلف الحصن ــ وهو مكان يبدو فيه طريق الصعود أكثر وعورة، ولهذا فهو أقل حراسة – كانوا تحت قيادة أريبالو دى سوائو ومعه أحد ألوية الفرسان لحماية سفح الجبل والبحر. لكن السيد بدرو، مع أنه تدرب منذ صغره على الأسلحة وعلى تواضع الإمبراطور، وكان أحد جنوده فى حروب فلاندس، قلل من شأن أمر القائد الأعلى – والذى كان ينص على أن ينتظر بعضهم البعض حتى يتساووا (لأن جزءًا منهم كان عليه أن يلفّ حول المكان)، وعندئذٍ يهاجمون فى وقت واحد– هاجم هو بمفرده، ووصل أولاً عبر الطريق الأقصر.

تصدّى الأعداء لهذا الهجوم ودافعوا دفاع أناس مجربين، وقاوموا جميعًا فألحقوا بنا أكبر خسارة ولحقت بهم أقل خسارة ؛ ولكن فى النهاية سمح ذلك لقواتنا أن تهاجم الحصن، وأن تبدأ بالرماح لصدّهم وتشتيت شملهم ولهدم أحجار الحصن، وأن يقوم الجنود المسلّحون بإزالة الحواجز، وكانوا صامدين حتى خرج رجل تركى من جنود البحرية، وقد أرسله القائد الأعلى للتعرّف على الحصن من

الداخل، بعد أن وعده بعتقه. وقد أبلغ هذا التركى عن صعوبة الجزء الذى وقع فيه الهجوم، وأبلغهم أنه من الأسهل أن يكون الدخول من الجانب ومن الخلف.

ورحل الناس، وحاربوا الأعداء من حيث أبلغهم التركى، وقد فعل الأعداء الشيء نفسه للمقاومة، ولكن مع إنزال أكبر الخسائر بين رجالنا، الذين وقعوا بين قتلى وجرحى بتأثير نيران بنادقهم، عندما انتشروا من أجل الدفاع. وبينما كانت القوى لا تزال محطمة ومقسّمة وضعف الأفراد الذين كانوا يشكلون الجناح الأمامى، تمكن السيد خوان دى كارديناس من الوصول، والشيء نفسه حدث للقوات القادمة من مالقة وبيليث التى أتت من الخلف. ولكن عندما رأى المسلمون أنفسهم محاصرين من كلا الجانبين، خرجوا من الجانب الذى كان أكثر وعورة ومكشوفًا، وكانوا حوالى ألفى فرد، من بينهم ألف رجل من أكثر الرجال جسارة وخبرة ودراية بالأرض: واشتد القتال بين الجانبين حتى وصل إلى حد المواجهة بالسيوف، والذى لا يبرع فيه المسلمون مثلنا، لأن سيوفهم لها حد، وهم غير معتادين على الطعن أو الوخز بطرف السيف. وبخروج هؤلاء وقوّادهم لم تجد قواتنا مقاومة كبيرة؛ فدخلوا بالقوة من الجانب الأكثر وعورة والأقل حماية والذى اقتحمه أريبالو دى سوائو، حيث تأكدت شجاعته وشجاعة رجال مالقة وبيليث؛ ولم يدخلوا بسرعة كبيرة حتى يتيحوا الفرصة لكل من السيد بدرو دى باديّا والآخرين أن يدخلوا أيضًا فى الوقت نفسه.

وقد قُتِلَ من الأعداء داخل الحصن خمسمائة رجل، وكان أغلبهم من العجائز؛ وتدافع حوالى ألف وثلاثمائة من النساء والأطفال فزعوا وغضبوا بسبب دخول قواتنا وبعد فرارهم خارجين كانوا فى متناول أيدينا فقتلتهم سيوفنا، وقد جرح ما يقرب من خمسمائة شخص. وأُسِرَ حوالى ألفين شخص.

القائد غارّال (Garral) والميليلو (Melilu)، القائد الأعلى لكل القوات، وصلا مع من خرجوا إلى بالور (Valor) محطّمين، حيث استقبلهم ابن أمية Aben Humeya، ومن هناك أمرهم بعد عدة أيام بالرجوع إلى حصن فريخيليانا

نفسه. لكن الميليلو، وهو رجل غنى وشجاع، أمر بشنق شاكون (Chacon) الذى كان يتعامل مع المسيحيين، بسبب أنهم وجدوا خطابًا من زوجته، وفى هذا الخطاب كانت زوجته تحاول إقناعه بالمصالحة وترك الحرب. يُقال إن كبار السن فى الحصن كانوا متفقين على أن يضحوا بأنفسهم، حتى يتمكن الشباب من الخروج أثناء ذلك، وهذا على عكس ما يحدث وعكس النظام المعهود، الذى يقتضى أن يكون الشباب أقوياء وشجعان للدفاع وتنفيذ أوامر الذين يأمرون، والعجائز هم من يصدر الأوامر والنواهى، وبالطبع يكونون أكثر ضعفًا عما كانوا أيام الشباب.

وجرح من بين رجالنا أكثر من ستمائة، ومن بينهم جرح بالسهم السيد خوان دى كارديناس، الذى حارب بشجاعة وبسالة فى ذلك اليوم. ومن بين الذين قتلوا فى هذه المعركة السيد بدرو دى ساندوبال (Pedro de Sandoval)، ابن أخى أسقف أوسما، وقد تجاوزوا أكثر من ثلاثمائة جندى، جزء منهم مات فى ذلك اليوم، وجزء منهم مات من جراء إصابته فى مالقة، حيث أرسلهم القائد الأعلى، وأمر ببيع الغنائم وتوزيعها فيما بينهم، كل منهم حسب دوره الذى كان يؤديه، وقد وزع عليهم أيضًا الخمس الخاص بالملك.

إن بيع الغنائم وإعطاء نصيب كل واحد عادة فى إسبانيا، والخمس هو حق قديم للملوك منذ الملك الأول السيد بيلايو (Pelayo)، عندما كانت الإمكانيات الخاصة لقواته أقل؛ أما الآن، ولأن الإمكانيات أصبحت أكبر، فإن الخمس يحمل له كنوع من الشكر ورمز للسيادة؛ ولكن الملوك يتفضلون بجعله منحة تُقسَّم بين الجميع ودليلاً على مكافأة الذين كانوا يحاربون، وهذا ما يثير الحماس أكثر؛ أما إذا أعطى لكل واحد ما يكسبه ووزع الخمس على الجميع بشكل عام بعد انتهاء الحرب، فهى فرصة لكى يأتى الجميع للعمل فى هذه المعارك بعزيمة أكبر. ولكن هذه العزيمة تتحول إلى طمع، وكل واحد يرى أن ما يكسبه هو ملك له، فيتخلى عن دوره كجندى، لحماية نصيبه، ومن هنا تنشأ خلافات كبيرة بسبب ضعف النفوس وقلة الخبرة؛ فيهرب البعض بالغنيمة، والبعض يموت فوقها على أيدى

الأعداء، عاجزين وضعفاء؛ والبعض يترك الأعلام والألوية بلا حماية، ويعود إلى بيته بالغنيمة. ومن هذا الطريق يأتي تفكك وانحلال الجيوش المكونة من أبناء البلد، الذين يحاربون وهم في وطنهم. وهذا المثل يُرى في إيطاليا بين أبناء البلد، كما شُوهِدَ في هذه المعركة في داخل إسبانيا.

الأحداث الطيبة التي وقعت في فريخيليانا Frexiliana هدّأت سكان مالقة ورونده في ذلك الحين. وقد تولّى القائد الأعلى حماية الساحل، وعمل على تزويد الأماكن الساحلية بالسفن الشراعية الكبيرة؛ ولكن في غرناطة، كان سوء المعاملة التي كان يقوم بها الجنود والجيران ضد الموريسكيين في الغوطة، وعبء المخيمات، والاشتراكات والإنشاءات، والقرار الذي اتُخِذَ لِهَدم البونيويلاس (las Albunuelas) والذي تم تنفيذه بتراخٍ ، يعطي فرصة للكثير من البلاد التي كانت في مأمن، أن تظهر وتصعد الجبال بعائلاتها وأمتعتها وملابسها. ومن بينها نهر بولودوي (Bolodui) حيث صعد السكان إلى جانب غِوّاديكس (Guadix)، وإلى جانب غرناطة صعدت قرية غويخار (Guejar)، والتي بدورها أثارت قلقًا كبيرًا. فقد قام سكانها بحمل أمتعتهم وملابسهم ونقودهم، وطعامهم، وأخفوا ما لم يستطيعوا حمله معهم، مع الذين يرغبون في اتّباعهم، فقد صعدوا الجبل وظلوا في العراء بلا مأوى بسبب وعورة الأرض، والجليد والبرد.

أراد السيد خوان استطلاع المكان واستكشاف الموقع فأخذ معه السيد لويس كيخادا (Luis Quijada) ودوق سيسا (Sesa) وكان الهدف من الاستطلاع هو محاولة التعرف على إمكانية الاحتفاظ بالموقع أو تركه؛ ولم يبدُ ضروريًا في ذلك الوقت الاحتفاظ به وتقويته كموقع ضعيف وقليل الأهمية من أجل سلامة وأمن غرناطة – ولكن الظروف أظهرت عكس ذلك – فأهمل حمايته في نهاية الأمر؛ إما لأن النقود لم تكن كافية لسكان المدينة من أجل حماية غرناطة في الوقت نفسه وضرورة إنقاذ غيخار كما كان المنطق يتطلب ذلك؛ أو لأنهم لم ينتبهوا إلى أن الأعداء قد يتجرؤن على إنشاء حامية لهم فيه تكون قريبة جدًا من مواقعنا؛ أو كما

يقول الناس (يجب أن تستكشف وتفحص النوايا دون ترك الشك، بسبب أو بدون سبب)، من أجل احتواء الحرب؛ وكانوا مغتاظين لأن ماركيز بيليث كان فى موقع أفضل، وكان الفراغ يصيبهم بحالة من الضجر والسأم، ويتطلعون إلى أن يشغلوا هذا الفراغ، ولو بذلوا الأنفس والأموال من أجل ذلك. وكان يقال إنه من الضرورى إخراج حامية قوية إلى غيخار، كما فعلوا ذلك فيما بعد بعيدًا عن غرناطة لحماية الأماكن الواقعة فى الوسط، وكل واحد دون دراسة للأسباب ولا للإمكانيات، جعل من نفسه قاضيًا على رؤسائه.

لكن الملك رأى أن أخاه كان مشغولاً بالدفاع عن غرناطة وعن بلاده، وكان لديه كل أفراد الحكومة فكان من الضرورى أن يكون هناك قائد يملك القيام بتنفيذ الإجراءات؛ فعين ماركيز بيليث قائدا لكل المشروع، وكان يقوم بأكبر عمل حينذاك، بسبب خروجه للحرب على نفقته الخاصة. كان من حسن حظه أن ما يقرب من نصف المملكة كان تحت مسئوليته، بالإضافة إلى دفء الأصدقاء، والأقارب؛ وهى أشياء عندما تحدث فإن الملوك تميل إليها بشكل كبير.

وقد أضيف إلى هذا أنه عرض من خلال خطاباته فكرة طرد ابن أمية الطاغية، فهكذا كان يلقب، وإنهاء حرب مملكة غرناطة بخمسة آلاف رجل وثلاثمائة فارس مدفوعين الأجر، وكان هذا هو السبب الرئيسى الذى جعلهم يكلّفونه بهذه المهمة. ويبدو لكثير من العقلاء، أنه يجب ألا يكلف أحد نفسه بواجب معين، أو إتمامه وإنجازه إذا كانت عرقلة أداء هذا الواجب أو عدم أدائه هى مسئولية الغير. فوقع الاختيار على الماركيز، وكان اختياره ضد رغبة المقربين من السيد خوان، الذين كانوا يتصورون أن الملك انتزع من بين أيدى كل واحد منهم شرف القيام بتلك المهمة وتولى ذلك المنصب.

وقد زادت قوة ابن أمية، ووصلت إليه إمدادات عسكرية تتكون من عدد من الأتراك والقادة المدربين، طبقًا لأسلوبه فى القتال والحرب؛ مسلمون من البربر،

وأسلحة، جزء منها قد أحضر، وجزء تم الاستيلاء عليه من قواتنا، وطعام ومؤن بكميات وفيرة، وجنود من أكثر الناس خبرة فى مجال الحرب.

كان الملك حريصًا على ألا تتقاعس الناس وألا تنقص المؤن والزاد؛ فخطر بباله أن وصوله إلى مملكةِ غرناطة، سيكون بمثابة حافز كبير لكى تتحرك المدن ويتحرك سادة إسبانيا بحماس كبير لكىْ يقدموا على المساعدة بأكبر عدد من الناس وبطريقة أسرع، وباسمه وهيبته وسلطته فى الحضور فإن أمراء البربر سيتوقفون عن تقديم المساعدات والنجدة، متأكدين من أن الحرب لابد من دخولها بقوة أكبر، وعند انتهائها، يحمل على ممالكهم بكل هذه القوى ولهذا أرسل الملك فى استدعاء حكام قرطبة فى يوم محدد، حيث بدأ نواب المدن فى التجمع وبدأوا فى إقامة مخيماتهم.

خرج ماركيز بيليث من تيركى (Terque) لكى يعوق وصول النجدة والإمدادات التى كان يجلبها مسلمو البربر باستمرار والتى تتكون من الناس، والأسلحة، والطعام والمؤن، والتى كان يستقبلها سكان البشرات (Alpujarra) من جانب ألمرية. وصل إلى بيرخا (Berja) (وقديمًا كانت تسمى بنفس الاسم)، حيث أراد أن ينتظر الناس المرتزقة والأفراد الذين كانوا يعطونهم الأماكن فى أندلوثيا. ولكن لاعتقاد ابن أمية أن الماركيز كان بصحبة عدد قليل من الناس وغير محاط برعاية كافية، قرّر أن يحاربه قبل أن تنضم إليه القوات. يقول المسلمون إنهم اتفقوا مع بعض عبيدنا، على أن يخفوا ألجِمة الخيول، ولكن هذا لم يُفهم بيننا؛ ولأن المسلمين يجيدون الحرب زحفًا على الأقدام ولا يجيدون استعمال الرماح، فكانوا يخشون الجياد، فأراد أن يحاربه داخل المكان قبل حلول يوم المعركة.

فاستدعى أفراد من منطقة نهر ألمرية وأفراد من منطقة بولودوى، وأفراد من منطقة البشرات، ممنْ رغبوا فى القدوم من نهر المنصورة (Almanzora)، كانوا حوالى أربعمائة تركى مغربى. وكانوا جميعًا حوالى ثلاثة آلاف جندى من حملة البنادق والرماح، وألفين بأسلحة حادة. أرسل أمامه قائدًا، كان يقوم له بدور

السكرتير، وكان يدعى موخاخار (Mojajar)، ليدخل مباشرةً بثلاثمائة جندى مسلح إلى البيوت التى كان يقيم فيها الماركيز، وأن يهاجم الحرس (ما نسميه اليوم بالحرس، يا هواة الألفاظ الأجنبية، كان الإسبان يسمونهم متنصتى الليل escucha وطلائع النهار atalaya ؛ وهى أسماء خاصة جدًا بالمهنة التى يمارسونها)، ويصل معها بعد وقت معين لاستعمال السلاح، ضد أفراد الحراسة. وتبعه أفراد آخرون، وظل هو فى مؤخرة الجيش فوق جواد، مرتديًا ملابس باللون القرمزى. لكن الماركيز الذى نبهه أحد الجواسيس الذين جلبتهم له قواتنا، عبر بعض الشوارع التى تؤدى إلى الميدان، وضع الجنود المسلحين على الأبواب والنوافذ، واستولى على المخارج وترك المداخل التى فهم أن الأعداء سيأتون من خلالها بلا حراسة، وأمر سلاح الفرسان أن يكون على استعداد وحذر ومعه ابنه السيد دييغو فاخاردو (Diego Fajardo)؛ وفتح طريقًا لكى يخرج، وبهذا الأمر انتظر الأعداء.

دخل موخاخار من خلال الشارع الذى يؤدى مباشرةً إلى الميدان، باندفاع شديد فى البداية؛ بعد ذلك بخوف واحتراس عندما وجد القرية بلا حراسة، شمّ رائحة كمين، وقبل أن يأخذ حذره، شعر من هذا الجانب ومن الجانب الآخر بإمكانية وقوع ضرر عليه من الأسلحة النارية؛ ولكن عندما أراد أتباعه المقاومة، لم يستطيعوا؛ فخرج مع القليل منهم وبشكل غير منظم إلى الساحة. فى الوقت نفسه الذى خرج فيه الماركيز، ومعه سلاح الفرسان وبعض الجنود المسلحين بالأسلحة النارية، خرج السيد دييغو، ابنه، والسيد خوان، أخوه، والسيد بيرناردينو دى ميندوثا (Bernardino de Mendoza)، ابن كونت كورونيا، والسيد دييغو دى ليبا (Diego de Leiva)، ابن السيد أنطونيو دى ليبا (Antonio de Leiva)، وغيرهم من السادة، وهاجم وقاتل هؤلاء الذين كانوا ينسحبون وأولئك الذين كانوا يحمون ظهورهم، فحطمهم مرة أخرى، ولكن مع أن الأرض كانت سهلة ومنبسطة، كان العُشب والسلاح النارى للأتراك والمسلمين، يعوقان فرساننا. انسحب المسلمون بنظام، ولذا لم نتمكن من القضاء على الأعداء. ومات منهم حوالى

ستمائة رجل؛ وأعاد ابن أمية الجرحى والمصابين إلى الجبال، ورجع الماركيز إلى بيرخا. علم الملك بالخبر، وعلم به السيد خوان متأخرًا، وهو رجل له خبرة حربية كبيرة أكثر من خبرته فى الكتابة. أو أنه أراد أن يبدو هكذا مع أنه درس الآداب.

بدأ السيد خوان – بأمر من الملك – فى تقوية جبهة الماركيز، وقبل أن يعيد تشكيلها من جديد؛ وضع السيد رودريغو دى بينابيدس (Rodrigo de Benavides) بألفى رجل على حراسة غواديكس؛ وأرسل فرانثيسكو دى مولينا (Francisco de Molina) بخمسة ألوية إلى أورخيبا (Orgiba)؛ وأرسل السيد خوان دى ميندوثا (Juan de Mendoza) بحوالى أربعة آلاف من جنود المشاة ومائة وخمسين من الخيول إلى حيث كان الماركيز؛ والقائد الأعلى، الذى أخذ الألوية من السيد بدرو دى باديّا (وقد أعيد إصلاحها بعد الضرر الذى لحق بها فى فريخيليانا)، وضعها فى أدرا (Adra)، حيث أتى الماركيز إلى بيرخا Berja لإعداد الناس.

ووصل السيد سانشو دى ليبا فى الوقت نفسه ومعه ألف وخمسمائة من رجال قطالونيا ممن يسمونهم بالمطاريد، حيث يهيمون بين الجبال هربًا من العدالة، لأن عليهم أحكامًا قضائية لارتكابهم بعض الجرائم، فجاء أكثرهم للخدمة فى هذه الحرب بعد العفو عنهم: وكان قائدهم أنتيك ساريّيرا (Antic Sarriera)، وهو رجل قطالونى، وكانت معهم الأسلحة، وهى بنادق من الطراز القديم الطويل، ومسدسين من النوع الذى يجيدون استخدامه. وصل لورنثو تييث دى سيلبا (Lorenzo Téllez de Silva)، وماركيز فابارا (Favara)، وهو فارس برتغالى، ومعه سبعمائة من الجنود، تم إعداد معظمهم فى غرناطة وعلى نفقته؛ عبر بلا أذى من البشرات من بين قوات الأعداء؛ ولأنهم كانوا منشغلين فى أثناء ذلك تجمّع الجيش، والحاميات فى أمان من تابلاتى (Tablate)، ودوركال (Durcal)، والبادول (Padul) (وكان يهددهم مسلمو الوادى الذين عادوا إلى البونيويلاس)؛ ولكى يمنعوا أيضًا أن ينضم هؤلاء إلى أولئك الذين كانوا فى جبال

غيخار وغيرهم من الذين كانوا فى البشرات؛ ولكى يعرقلوا أيضا القلق والاضطراب الذى وضعوا فيه غرناطة بفعل الغارات التى يشنّها عدد قليل من الناس، وحتى يمنعوا عنهم المساعدات والإمدادات الغذائية التى كانت تصلهم من الوادى؛ أمر السيد خوان أن يذهب السيد أنطونيو دى لونا (Antonio de Luna) بألف من المشاة ومائتين من الفرسان ليقوموا بهذا الدور، وليحرقوا ويهدموا ريستابال (Restaval)، وبينّيوس (Pinillos)، وميليخيكس (Melejix)، وكونتشا (Concha)، والوادى حتى البونيويلاس. رحل بالأمر نفسه وفى الساعة نفسها، التى رحل فيها فى المرة السابقة لحرقها، ولكن بظروف مختلفة؛ لأنه عندما وصل متأخرًا، وجد المسلمين قائمين فى الساحة ومستعدين بالسلاح فى أيديهم؛ وكان لديهم من الوقت ما يكفى لإبعاد نسائهم، وأبنائهم، وماشيتهم، وما يكفيهم لكى يتجمّعوا، وكان يقودهم كل من ريينداتى (Rendati)، وهو رجل ذو شهرة واسعة، ولوبى، وهو من البونيويلاس، ولعب المكان دورًا مهمًا لأنه كان عبارة عن أرض كثيرة المنحدرات والحفر، فساعدهم ذلك. هاجموا قوات السيد أنطونيو، التى كانت تقوم بإشعال الحرائق والنهب والسرقة؛ واستطاعت هذه القوات بصعوبة كبيرة أن تقاوم وأن تتراجع وتنسحب بأقل الخسائر، فطاردوها وحاربوها فى أسفل الوادى، وكان ذلك سيئًا بالنسبة لسلاح الفرسان. ولكن السيد أنطونيو، الذى كان يساعده السيد غارثيا مانريكى (García Manrique)، ابن ماركيز أغيلار (Aguilar) ولاثارو دى إيريديا (Lazaro de Heredia)، قائد سلاح المشاة، كان أحيانًا يجعل من طليعة الجيش مؤخرة له، وأحيانًا، على العكس، وكان يتقهقر بعض الخطوات تحت غطاء الأسلحة النارية؛ فأخذ ينسحب حتى خرج إلى منطقة الخلاء التى كان الأعداء قد تركوها خوفًا من سلاح الفرسان.

مات فى هذا الاشتباك، بعيدًا عن السيد أنطونيو، القائد ثيسبيديس (Cespedes) على يد ريينداتى الذى كان برفقته عشرون من الجنود الذين كانوا يحاربون، وهرب سبعون؛ ونجا الباقون بوصولهم إلى تابلاتى، حيث كان مقر

الحراسة هناك. ولم تُقدّم له المساعدة بشكل سريع لأن سلاح المشاة كان مشغولاً بالحرق والسرقة؛ ولذا لم يتمكن السيد أنطونيو من إصدار أوامره لهم. ولم يصل أيضًا السيد غارثيا (الذى أرسله ومعه أربعون من الخيول)، لأن المسافة إلى الجبل كانت بعيدة وكانت الطريق إليه وعرة، والأعداء كثيرين. ولكن عامة الناس الجهلاء، الذين كانوا يحكمون عشوائيًا، لم يتركوا الفرصة إلا وأدانوا كل واحد منهما: فلو كان السيد أنطونيو قد أظهر الجياد فى أعلى هضبة فى المكان، لكان الأعداء قد توقفوا أو انسحبوا؛ وكان على السيد غارثيا أن يصل فى الوقت المناسب وكان على ثيسبيديس أن يحتمى فى بنايات قديمة معينة، كانت قريبة بالنسبة له؛ وكان أنطونيو يدبر له أمرًا من قبل، ولهذا خرج حينئذ من تابلاتى دون إذنه، مع أنه قد حذره من الخروج(*). أما بالنسبة لى وأنا أعرف طبيعة هذه الأرض، فيبدو من المستحيل نجدته فى الوقت المناسب حتى لو أن الجنود أرادوا أن يتحركوا، ولو لم يكن هناك أعداء فى الطريق أو فى المؤخرة. هكذا لقى ثيسبيديس مصرعه، وكان فارسًا أصيلاً من ثيوداد ريال، والذى جلب الناس على نفقته الخاصة، وكانت قوته الفائقة معروفة فى كل أنحاء إسبانيا؛ وقد صاحب قواته حتى النهاية بشجاعة، وبسالة، وروح عالية، وبصوت وأسلحة هائلة.

عاد السيد أنطونيو بعدما حرق بعض المؤن، وجلب الغنائم من الماشية إلى غرناطة؛ وانطلق قادة الجيش المرابط من مكان لآخر، وهم مسلّحون أكثر من تأكدهم من مكان وجود الأعداء؛ فهم يواجهون بالسلاح من جانب، ويسوقون الماشية من جانب آخر. وقد أمر حينذاك السيد خوان أن يعود السيد لويس دى كوردوبا (Luis de Córdoba)- ومعه مائتا فارس إلى غرناطة، وأن يعود المشاة إلى الغوطة. وقد أخذت إحدى فرق سلاح الفرسان عددا من الماشية، وهى مهمة كانت لها فائدة أكثر من الاستفادة من الذين أُسروا لأنه لا يمكن الاحتفاظ بهم

(*) بعد أن عرض تعليقات العامة على الأحداث يدلى برأيه الخاص. (المراجع)

ورعايتهم، فكان من الضرورى إعادتهم إلى أماكنهم ولكن بعد أن تناقص عددهم إلى النصف، وكان تناقص عدد الجنود أمرًا مشتركًا بيننا وبين الأعداء.

وفى أثناء ذلك كان ماركيز بيليث موجودا فى أدرا (بنى هذا المكان قديمًا بالقرب لما تسمى الآن أبديرا Abdera)، ومعه حوالى اثنى عشر ألفًا من جنود المشاة وسبعمائة فارس: أناس مسلحون، مدربون، لديهم خبرة قتالية، فلا يمكن أن يتجنبوا أية معركة مهما كانت صعوبتها، وكانت شهرتهم ممتدة فى كل أنحاء إسبانيا بسبب حادثة بيرخا، وهذا ما أعطى لهم مصداقية كبيرة وثقة عالية.

توافدت أعداد كبيرة من المتطوعين للاشتراك فى الحرب، فقَوِىَ الجيش وأصبح مستعدا لها؛ لكن الجدب الذى حدث هذا العام، ونقص الأموال، وفقر هؤلاء الذين كانوا يصنعون الكعك فى مالقة، وقلة الرغبة فى تصنيعه بسبب كثرة واستمرار الإصلاحات قبل الحرب، بسبب الغلاء، وقلة بائعى الأطعمة للجنود الذين اعتادوا تسلية الجيوش بالمرطبات، وظاهرة المد والجزر فى البحر، والتى تعوق أحيانًا عملية الشحن فى مالقة، وهى نفسها التى تعوق حركة التفريغ فى أدرا، كل هذا كان سببًا من الأسباب التى جعلت السفن لا تتزود بالكثير من المؤن والزاد وبشكل مستمر.

كان المعسكر فى قليل من الأحيان يعتمد فى غذائه على صيد الأسماك، ويعتبر هذا من الأشياء الشائعة العادية على هذا الساحل؛ ومع انتشار البطالة؛ لم يجد الجنود المكاسب التى كانوا يعقدون آمالاً عليها ولم يجدوا منْ يدفع رواتبهم وأجورهم، فبدأ الناس يتذمرون ويتحررون ويتحدثون بما يدور فى رؤوسهم. وكان القائد رجلاً متقدمًا فى العمر، سريع الغضب، معتادًا على أن يكون محترمًا ومهابًا كذلك، يغضبه أى شىء، فأصبح ينسى البعض، ويراعى البعض الآخر قليلاً، ويتعامل بغلظة مع آخرين؛ فكان يسمع ألفاظا نابية، فيرد عليهم بمثلها. كان جيشًا كبيرًا، مدججًا بالأسلحة، وفيه من النبلاء ما يكفى لقيام حملة إلى بلاد البربر، بدأ هؤلاء يفقدون الحماس والنشاط ويتلهون بالسباحة وأكل السمك الطازج، ولم يعودوا

يهتمون بمطاردة الأعداء؛ وأصبحوا يجهلون قيمة الانتصار؛ وتركوا الأعداء يتزايدون، ويقوون، ويتسلحون، ويتزودون بالمؤن والزاد والمعدات، ويشعلون نار الحرب على أبواب إسبانيا وعندما رأت بعض الشخصيات الضرر وشعرت بالخطر المحدق، استدعت الماركيز ونبهته خشية سوء العاقبة، فطلبت منه أن يخرج للبحث عن ابن أمية، فلديه من المؤن ما يكفى لثمانية أيام.

عندما وصلت الأمور إلى هذا الحد أصبح مكروها مغضوبا عليه من الجميع، ومن هنا أصبح يتّهم الشخصيات الرئيسية بأنهم سيئو النية، وبدأ يكره الجميع وبدأ الجميع أيضا يكرهونه.

على عكس ما حدث لماركيز مونديخار(*)؛ فقد أتى من طبقة النبلاء ليلتحم بالشعب؛ ولكن بتؤدة وتواضع أكثر (ويقولون بتعال مماثل). أنا شخصيًا لم أر تصرفات هذا ولا ذاك؛ ولكن فى رأيى فإن كليهما كان مذنبًا دون أن يرتكب أخطاءً مهنية، بل كانت الأخطاء غير مهنية وهذا شيء معهود فى قواد أكبر الجيوش.

وبالعودة إلى ما يحدث فى الحاضر فإن ماركيز بيليث لم يجد نفسه مزودًا بالمؤن أبدًا مثل هذه المرة، ولم يزد الطعام عن حاجته اليومية منه ليحمل معه كميات يستهلكها على المدى البعيد؛ ولكن بسبب قلة الطعام، وعدم الأمان من البحر، رأى أنه يمكنه التزود بالمؤن من غرناطة وأندلوثيا، وغواديكس (Guadix) وولاية ثينيتى (Cenete)، ومن هناك إلى موانئ رابا (Ravaha) ولوه (Loh) التى تعبر الجبال حتى البشرات؛ فكتب إلى السيد خوان (مع أنه اعتاد أن يفعل ذلك فى قليل من المرات)، أن يأمر بإعداد المؤن والزاد فى كالاأورّا (Calahorra)، لأن بهذه المؤن وبتلك التى ستأتى من خلال البحر، فإن الجيش يستطيع أن يعتمد عليها فى البشرات ويطرد بها الأعداء.

(*) يقارن هنا بين ماركيز بيليث وماركيز مونديخار فيعرض آراء الناس ثم يعرض رأيه الشخصى. (المراجع)

ولم يترك القائد الأعلى، بسبب قلة المعدات، القيام بأى عمل ممكن ولو كان فى ذلك خطر، إلى أن حصل فى أدرا على المؤن والزاد الذى كان معدًا لوقت طويل، حيث تم تزويد الماركيز بالمؤن من جانب لآخر (حتى لو كان ذلك بالاستيلاء عليه من الأعداء)، وهكذا تمكّن من خوض المعركة دون الشعور بالجوع، وانتظار الإمدادات من غواديكس؛ ولكن عندما رأى أن الماركيز، غير متأكد من المؤن التى قد يجدها فى كالاأورّا، توقّف، وقد تعجّله علنا وطلب منه فى جلسة أن يخرج لمواجهة الأعداء. ولكن الماركيز تعلل بأسباب تبرهن على أنه من غير المناسب التعجل بالخروج، ويقولون إنه تقدم للأمام، فى حضور شخصيات مهمة فى المجلس، وقال له إن لم يفعل(*) هذا سيأخذ هو الناس وسيخرج بهم إلى ساحة المعركة.

فى غرناطة لم يتم أى مسعى لإمداد الماركيز بالمؤن والزاد لأنه لم يرد، ولهذا فقد اعتقدوا أنه لا حاجة له بها، وأنه قد تزود بما يكفى فى أدرا، حيث كانت الطريق أكثر أمنًا وسلامًا، إذ كانت طريق كالاأورّا أكثر مشقة؛ وكان الأعداء كثيرين، وكانت القوافل قليلة، والأرض شديدة الوعورة والتى قالوا عنها إن الماركيز كان قليل الخبرة بدراستها. لكن الشعب، الذى تعود على أن ينصّب من نفسه قاضيًا، أدانه بكلمات وأفعال موجعة على حد سواء، من عامة الناس أو من خاصتها؛ كما أدان ضباطه وقال إنهم كانوا متساهلين عند تقسيم العمل التطوعى، وكانوا متشددين عند توزيع العمل الضرورى؛ أدانوا توقف الجيش فى أدرا للبحث عن أسباب لإشعال نار الحرب، بينما كان عليهم القيام بأعمال أخرى؛ وقد تبادلوا كتابة الرسائل، حيث لم يبق شىء إلا وينذر بسقوطهم فى الوقت المناسب، وقد تلاشت الأحداث مع مرور الوقت؛ وقالوا عن تلك الأحداث أنها لم تضايق السيد خوان أو المقربين له، وأن الرئيس هو الذى كان حليفه فحسب، ولكن فى بعض

(*) من ضمن مشاكل النص الأساسية أنه يتحدث عن عدة شخصيات بضمير الغائب مما قد يؤدى إلى لبس عند القارئ. (المراجع)

الأحيان، إما أنه لم يستدع، أو أنهم كانوا يستبعدونه عن المجالس وعن المواعيد وأماكن اللقاء، مع أنه كان خبيرًا بالذى كان يحدث فى المملكة وبالاضطرابات السابقة. ومرت هذه الإشارة حتى تنبه المجلس عن طريق خطابات من بعض الشخصيات والوزراء المهمين (طبقًا لما ذكره الشعب)، وأيضًا مع توجيه اللوم، حيث تبين أنه ليس له نفوذ وأنه غير موثوق به، فى عدم استدعاء رجل مهم وذى خبرة وشرف. ولكن ليس من المثير للدهشة أن تطلق عامة الشعب مثل هذه الآراء، إذ إنها من جانب آخر اجترأت على التدخل فى أدق الأمور، والتشكيك فى نوايا المجلس.

يقولون إن دوق سيسا Sesa وماركيز بيليث كانا صديقين، بسبب إرادة الماركيز أكثر من إرادة الدوق؛ وعلى الرغم من أنهما كانا عمًا وابن أخيه. كان ماركيز مونديخار والدوق، يتنافسان منذ عهد الأجداد والآباء وانتقالاً إلى الأبناء حول شئون الحياة فى غرناطة، مع أنهما فى العلن كانا يظهران الصداقة؛ فقد كانت هناك عداوة قديمة بين مجموعة ممن حملوا لقب الماركيز وآبائهم، وقد تجددت تلك العداوة لأسبابٍ مختلفة أو بسبب التكالب على المناصب والاختصاصات؛ وحدث الشىء نفسه بين ماركيز مونديخار والرئيس، حتى أصبح كل منهما يلعن الآخر فى قضايا ضد بعضهما البعض. كان لويس كيخادا (Luis Quijada)، حاقدًا على ماركيز بيليث، ومهانًا من ماركيز مونديخار، لأنه بصفته كونت تنديا (Tendilla)، لم يوافق للماركيز والده على أن يعطيه ابنة له ليتزوج بها؛ وهو صديق حميم لإيراسو (Eraso)، ولغيره من أعداء بيت الماركيز. دوق فيريا Feria، وهو عدو سليط اللسان وجرىء فى كتاباته ضد ماركيز مونديخار؛ وكلاهما منذ زمن السيد بيرناردينو دى ميندوثا (Bernardino de Mendoza)، الذى كان له نفوذه حتى بعد وفاته، كان يشعره بالإهانة، وأحيانًا كان يتفق دوق سيسا ولويس كيخادا، بما يكفى لإبعاد الماركيزين، وأحيانًا يتصالحان بسبب ما تتطلبه المصالح، ويشيد كلاهما بالآخر، ولكنهما فطان وحذران، وكلاهما شكاك.

وقد انشغل مونياتونيس Muñatones، الذى كان يعانى ويخفى معاناته، بإدانة أخطاء الموردين واستغلال القادة، وكان هذان العيبان بلا علاج. ولأن الأمر لا يعنى السيد خوان، فإن أية بادرة من الحرية كانت تسعده؛ كان ملتزمًا بأداء مهمته، دون تعيين ضباط، ودون توزيع للنقود، ولا للأسلحة والمؤن ولا للطعام، إذا لم تمر أذونات الصرف على لويس كيخادا؛ الذى كان فى هذا الشأن وفى غيره من الأشياء يظهر علامات غطرسته وتكبره بما يجعل الآخرين يتوقعون سوء رد فعله، ولو كان ذلك على حساب نفوذ السيد خوان؛ الذى كان يدرك كل هذه التحركات، ولكنه كان يتحملها بصبر وحكمة أكثر من التجاهل والمداراة. كان يبدو له من باب العصيان أن ماركيز مونديخار أو الكونت ابنه يستخدمان مهامه مع أنها لم تكن مستبعدة ولا متوقفة بأمر من الملك. كما كان هناك أيضًا بعض القلاقل والاضطرابات التى كانت يثيرها بعض الفتيان وغيرهم، والتى ازدادت بينهم وبين الكونت. كان هذا هو وضع الحكومة، ولكن ذلك لم يكن مدعاة إلى عدم ترك العناد وتنفيذ ما هو أفضل للصالح العام وخدمة الملك؛ لأن الوزراء والمستشارين لا يدخلون معهم مشاحناتهم إلى المكان الذى يجتمعون فيه، وإن وُجدت بينهم خلافات فى وجهات النظر، فكل واحد منهم يطوّع وجهة نظره لما هو مناسب؛ ولكن الكُتّاب يكشفون كل شىء، لأنهم – وإن لم يجب عليهم قبول مثل هذه الأحكام – عليهم ألا يتجاهلوها عندما يكتبون بهدف ترسيخ وضرب أمثلة فى التاريخ حيث يتجنب الرجال ما هو شر ويتبعون ما هو خير.

منذ يوم العاشر من يونية إلى يوم ٢٧ من شهر يوليو عام (١٥٦٩) كان ماركيز بيليث متمركزًا فى أدرا دون فائدة؛ فلما أدرك أن ابن أمية قد استرد قواه، رحل ومعه عشرة آلاف من المشاة وسبعمائة من الخيول. أناس، كما قلت، مدرّبة ومسلّحة، ولكنها كانت حينذاك غير راضية. فحمل معه طعامًا ومؤنًا تكفى لثمانية أيام، وكانت بداية الخروج تتصف بشىء من عدم النظام. فأمر بتوزيع طليعة الجيش ومؤخرته والقوات على ثلاثة أقسام؛ على أن يقود الطليعة أول يوم السيد

خوان دى ميندوثا، وفى اليوم الثانى بدرو دى باديّا؛ ومع أنه حدَّد عدد الأُمتعة ومهمات العسكر التى يجب أن يحملها كل ثلث، فقد علم بأن السيد خوان اصطحب معه عددًا أكبر منها؛ وبما أنهم كانوا من الجنود الخاصة، التى كانت فى حوزته وتحت رعايته من أجل راحته- ومع أنهم رحلوا لكى لا يعودوا إلى أدرا- أمر بعودة السيد خوان إلى المعسكر ومعه طليعة الجيش، لكى يتمكن من أن يرسل إليه لكى يُحصى العراقيل والمشاكل ويُصلحها؛ وهو شىء لم يحدث فى المعركة إلا وسبب مشاكل كبيرة وخطيرة؛ لأنه بهذا أعطى للأعداء فرصة كسب مهلة يومين من الوقت، وهو ما يعتبر وقتًا ضائعا بالنسبة لنا. خرج فى اليوم التالى بعدما وجد القليل أو لا شىء من العراقيل ليصلحها؛ سار على نفس النظام، مضيفًا إلى ذلك أن القوات يجب أن تكون ملتصقة بالطليعة، ومؤخرة الجيش فى قلب المعركة، بحيث أنه عندما تغادر الواحدة مكانًا، تضع الأخرى فيه أقدامها، لكى تحمى المواقع من العراقيل؛ وبحيث ينتقل سلاح الفرسان من جانب إلى آخر؛ حتى لا يجد الأعداء ثغرةً للدخول. وصل إلى بيرخا، ومن هناك ذهب إلى السهل الذى يقولون عنه إنه لوكاينينا (Lucainena)، حيث رأوا عند نهايته بعض الأعداء فاشتبك معهم دون وقوع خسائر؛ وقد ظهرت طليعة جيش ابن أمية، والتى كان بها ثلاثة آلاف من الجنود المسلحين بالبنادق القديمة، والقليل من حملة الرماح؛ ولكن قليل الحياء صعد الجبل: وذهبت طليعة جيشنا لتبيت فى السهل، والماركيز فى أوخيخار (Ujijar) حيث توقف لمدة يوم، إضافة إلى الوقــت الذى استغرقه فى السير، وهو تأخــير لا يقره ذوو الخبرة، فقد أعطى فرصة للأعداء حتى يبعدوا نساءهم، وأبناءهم، وملابسهم، وأمتعتهم، وأن يخفوا ويحرقوا الزاد والمؤن، كل ذلك على مرأى منا وعلى مسافة نصف فرسخ من معسكرنا.

خرج من المعسكر فى اليوم التالى، ظهر الأعداء فى شكل جناح، كما هى عادتهم، وكانوا يصيحون، وهاجموا السيد بدرو دى باديّا- الذى كان عليه أن يقود طليعة الجيش فى ذلك اليوم- بعزم، طبقًا لما شوهد، خلال تلك المعركة. كان

عددهم يقارب ستة آلاف رجل ما بين مسلحين بالبنادق وحملة رماح، وكان البعض الآخر مسلحًا بأنواع من الحراب؛ وقد شوهد ابن أمية وهو يتنقل بين قواته علنًا مرتديًا ملابس ملونة وتتقدمه رايته؛ وقد أحضر معه أمراء القلاع والقادة الموريسكيين والأتراك وكان جميعهم من الشخصيات المشهورة. فخرج عليهم السيد بدرو بألويته وبالمغامرين الذين جلبهم ماركيز فابارا (Favara)، وقاوم اندفاعهم، وجعلهم ينسحبون كلهم تقريبًا؛ ولكنه تابعهم قليلاً، لأن ماركيز بيليث رأى أنه يكفى مقاومتهم والاستيلاء على معسكراتهم وتشتيت شملهم. فانسحبوا إلى أماكن وعرة فى الجبل، بعدما فقدوا خمسة عشر من رجالهم. فى ذلك اليوم أظهر ماركيز فابارا- الذى استُبعِدَ مع بعض الخاصة الذين تابعوه- شجاعة، فتقدّم وحارب وطارد الأعداء: وقد فعل السيد دييغو فاخاردو (Diego Fajardo) الشىء نفسه مع آخرين.

وكان نتيجة تعرُض ابن أمية للضغط الشديد، أنه فرّ هاربًا ومعه ثمانية من الجياد إلى الجبل، مما عرضهم للهلاك، ولكنه أنقذ نفسه بأن ترجّل؛ وقد توزعت قواته بلا مزيد من القتال: قوات عازمة على تلمّس الوضع دون الخوض فى معركةٍ؛ وكان عندهم أمل كبير أن تصلهم المساعدات خلال ساعات أو يصلهم أفراد من المقاومة، أو تصلهم سفن لتأخذهم إلى شواطئ البربر؛ وقد قادهم هذا الضعف والخوار إلى الهزيمة والخسارة. وقد شعر الماركيز بسعادة عظيمة لتحطّمهم والاستيلاء على معسكراتهم وتشتيت شملهم؛ وكان على يقين بأنه كان يكفى ما حدث، دون مواصلة المطاردة ليخرجهم من البشرات، إما أنه كان ينتظر ارتباكًا أكبر بين صفوفهم، أو كان يبدو له أنه سيغامر إذا أشعلت مملكة غرناطة المعركة ، فبالنسبة للشهرة كان يكفى ما حدث. وقد وجد نفسه قريبًا جدًا من الطريق، وبمائتين من الجياد قرر قضاء تلك الليلة فى استكشاف المؤن والزاد فى كالاأورّا، حيث لم يجد ما يأكله، فعاد فى يوم آخر إلى المعسكر، الذى كان فى بالور Valor العليا والسفلى.

وقد توقّف فى هذين الموضعين مدة عشرة أيام، وهو يأكل الطعام الذى جلبه والزاد الذى استولى عليه من الأعداء دون أن يحدث أثرًا، وكان ينتظر الزاد الذى يجب أن ترسله غرناطة إلى كالاأورّا، فضلاً عن عدم تأكده من وصول الزاد من أدرا، كان يعتقد بأنه سيكون قليلا؛ ومع أن المسئولين الذين لجأ إليهم كانوا يؤكدون أن السفن جلبت الكثير والكثير من الزاد والطعام، قرر الانتقال إلى كالاأورّا، التى تعتبر قلعة وبيتًا لكل من حمل لقب ماركيز ثينيتى (Cenete)، وهى من موروثات الكونت خوليان فى زمن القوط، وفى عهد المسلمين فإن الزناتيين الوافدين من بلاد البربر، وهم واحد من خمسة أجيال من أحفاد العرب الذين غزوا إفريقيا وعمّروها. وأفضل نصيحة قُدِمت للماركيز هى أن يترك للأعداء البحر والجبل، أفضل من أن يتتبّعهم فى الأرض الوعرة وبلا زاد، وبأناس متعبين وغاضبين وجائعين، وأن يؤمّن أراضى غواديكس، وباثا (Baza)، ونهر المنصورة (Río de Almanzora)، وفيلابريس (Filabres)، التى كانت على وشك التمرد؛ وأن يعمل على تهدئة الوضع فى نهر بولودوىّ، الذى كان ثائرًا، وأن يأكل الطعام القادم من غواديكس والمنطقة التابعة للماركيز.

ولكن الناس، مع البطالة، والجوع وعدم الراحة فى الغرف، بدءوا يمرضون ويموتون. لا يوجد كائن حى أكثر ضعفًا ورقة من معسكر مشترك، حتى لو كان كل رجل فى حد ذاته قويًا وشديد التحمل لأعباء العمل ومعاناته؛ فإن أى تغيير فى الهواء، والماء، والرعاية، والتغذية، والنبيذ؛ أى برد، ومطر، وعدم نظافة، وعدم النوم والراحة، وقلة الأسرّة، تمرضه وتقضى عليه؛ وفى النهاية فإن كل الأمراض تنتقل عدواها إليه.

تفشت بينهم النميمة، والشكاوى، والانفلات، وتفرق الجنود فى كل جانب، حيث فضلوا وقد هربوا تقريبًا فى جماعات بلا نظام ولا احترام للقادة. وبما أن نهاية الغضب إما التمرد، أو الانفصال عن القوات رويدًا رويدًا، إذن فقد حدث هكذا، حتى ظلت الألوية بلا رجال؛ وفيما بعد حلت الفوضى، حيث تجمّع أربعمائة

من الرجال المسلحين بالبنادق، وبالفتيل في قداحات الأسلحة النارية، خرجوا أمام المعسكر؛ فذهب السيد دييغو فاخاردو، ابن الماركيز، ليستوقفهم، فكان ردّهم عليه بطلقات أعيرة نارية أصابته في يده وفي ضلعه، وقد عرضته للخطر وقُطِعَتْ يده على إثرها. والغالبية العظمى من الناس التي أرسلها الماركيز معه، انضمت إليهم وذهبوا معًا: وهكذا زاد الغضب إلى درجة الكراهية وعدم الاحترام في زمن قصير جدًا.

في النهاية، وصل الماركيز إلى المكان، ولما كان يخشى على حياته، فقد اختبأ في القلعة؛ وبات الناس في المعسكر، يأكل كل جندي أقل من رطل من الخبز، دون أن يتناول أي طعام آخر؛ لكن بعد عدة أيام أصبح كل واحد يأخذ رطلين في اليوم، ورطلا من لحم الماعز في الأسبوع، وفي الأيام التي يقدم فيها السمك كانوا يعطون رأسًا من الثوم وبصلة لكل رجل، لأنه كان لديهم الكثير منه؛ وقد عانت ألوية نعبولي وهي تضم الجنود الكبار والشخصيات التابعة لطبقة النبلاء؛ وظلت هذه الفِرَقْ منعزلة تقريبًا ومعها مائتان من الخيول. وهذا ما حدث في ذلك اليوم، الذي أخذ فيه الأعداء المهزومون البحر والأرض، وحققوا بذلك قوة كبيرة وشهرة، بينما ظل المنتصرون بدون أرض وبدون شهرة.

في الوقت نفسه اشتكى مواطنو بادول (Padul)، التي تبعد نحو ثلاثة فراسخ من غرناطة، من أنهم تحمّلوا مدة من الزمن حامية عسكرية كبيرة العدد، وأصبحوا غير قادرين على تحمل المزيد من العناء، وغير قادرين على الإنفاق على الرجال والجياد. فطالبوا بعدة أمور إما انتقال الحراسة أو تقليل عددها، أو أن يرحلوا هم أنفسهم للعيش في مكان آخر. ومن جراء هذا الموقف، وفي الليلة التالية، خرجوا وانضموا إلى المسلمين الموجودين في الجبل، وهاجموا الحامية، فقتلوا ثلاثين من الجنود وجرحوا الكثيرين عندما حاولوا اللجوء واحتموا بالأرض الوعرة: وعندما وصلت مساعدات غرناطة، كانت الخسائر قد وقعت بالفعل وكان الفارون قد نجوا.

أعمال الفوضى التى وقعت فى معسكر الماركيز نبهت السيد خوان إلى أن يتزود بما يجده فى أراضى باثا؛ لأن المدينة أصبحت بدون حراسة عدا حراسة الأهالى. فأرسل السيد أنطونيو دى لونا بألف من جنود المشاة ومائتين من الخيول، ظلت منذ أواسط شهر أغسطس وحتى منتصف شهر نوفمبر دون حدوث أى جديد أو أى شىء معين، إلا استغلال الجنود، الذين ظهروا وهم يحصلون على الغنائم من الأصدقاء والأعداء على السواء. فوضع فى مكانه السيد غارثيا مانريكى García Manrique على حراسة الغوطة، دون اسم ودون عنوان للمهمة. فرأى نفسه ذات مرة فى مواجهة الأعداء، فقتل منهم بعض الناس، دون أن يصاب أتباعه بأذى.

وفى أثناء ذلك لم تتوقف الأحقاد والأقاويل ضد حاملى لقب ماركيز، وخصوصًا الأحقاد القديمة ضد ماركيز مونديخار؛ لأنه وعلى الرغم من أن رفاقه كانوا متساوين فى الكفاءة، فإن وجهة نظره فى معرفة طبيعة الأرض والناس والأماكن التى عاشوا فيها وأقاموا حياتهم، ومعرفة ما يخص المؤن والزاد، بسبب خبرته الطويلة فى تزويد الأساطيل والقوات، كانت تلقى قبولاً كبيرًا لكونها معتدلة؛ ولكنه دائمًا كان مضطهدًا، حتى أن ماركيز بيليث ترقى فى الخدمة وأصبح قائدًا للجيوش. عندئذ تركوا ماركيز مونديخار، وعادوا ليطمسوا كل شىء أحسن صنعه ماركيز بيليث. ولكن عندما بدأ ماركيز بيليث يفقد الحظوة، عادوا لماركيز مونديخار؛ فأعادوا إليه الأسلحة والقوات التى كانت قد سلبت من قبل، وبالطبع فقد كانوا من قبل يتجاهلون دعوته للاجتماعات ويطعنون فى وجهات نظره: فمن جانب كانوا يذيعون القرارات ومن جانب آخر كانوا يتهمونه بإفشاء الأسرار؛ وبدا لهم أن يتبعوا رأيه لبعض الوقت إلى أن يقع الموريسكيون فى قبضة أيديهم، وبعد قمعهم، سيتوقف القتال ولهذا السبب تنتفى الحاجة إلى بعض الشخصيات.

كانت فرقنا ومجموعاتنا مكتظة تمامًا بالموريسكيين الذين يتحدثون لغتنا، وإذا شئت فقل كان لهم جواسيس: النساء، والعبيد من الأطفال، وكان المسيحيون

القدامى أنفسهم يحذرون المسلمين، وكانوا يبيعون لهم الأسلحة والزاد، والأحذية، والأقمشة، والطعام.

ومن جانب كان الملك على علم بصعوبة المهمة، ومن جانب آخر كان يصدق هؤلاء الذين كانوا يمدونه بالمعلومات، فلما اطلع على المصروفات التى كانت تنفق، وباعتقاده أن ماركيز مونديخار -وهو نظير لماركيز بيليث ولغيره - أعطى الفرصة لكى يحملونه بالذنب، فقال إن يده إذا ما كانت مشتركة فى هذه المفاوضات والتعاملات فإن إعدادها كان سيئًا؛ وإن المدينة - يحركها القاضى خوان رودريغيث دى بيّافورتى (Juan Rodríguez de Villafuerte) الذى كان صاحب مصلحة فى الأمر - غير راضية عنه، ولا عن الرئيس الذى كان يدافع عنه ويمده بالنقود وبالرجال بنفس راضية، فى غيابه وفى حضوره، ولم يكن أحد يمده بمعلومات أكثر منه؛ فأرسل إليه يأمره بأن يأتى إلى مدريد بسرعة، ويقول البعض إنه بالاتفاق مع أقرانه؛ تبين له أن نية الملك كانت تهدف إلى إبعاده عن المفاوضات. ولكن لأنه يرى فى نفسه أنه كالأمراء، فإنهم يريدون تبرير قرارهم ليبدو وكأنه بسبب شريف؛ وقد صيغت كلمات الخطاب هكذا:

"إلى السيد ماركيز مونديخار، وابن عمنا، وقائدنا الأعلى فى مملكة غرناطة: لأننا نود أن نكون على علم وعلاقة بالحالة الراهنة للأوضاع فى هذه المملكة، وما يناسب ذلك من إعداد وتموين لعلاج تلك الأوضاع، فإننا نكلفكم بمجرد وصول خطابنا هذا إليكم أن تسلكوا الطريق، وأن تأتوا إلى بلاطنا الملكى لإبلاغنا عما يحدث، لكونكم شخصًا على علم كبير ودراية بهذه الأمور، بهذا وبإنجازكم لهذه المهمة بسرعة، فإننا سنكون راضين تمامًا عن أدائكم وخدمتكم. حُرِرَ هذا الخطاب فى مدريد، فى ٣ سبتمبر عام ١٥٦٩".

وصل الماركيز وأحسن الملك استقباله، وتلقى منه الأخبار على انفراد فى بعض الأحيان؛ وعامله الوزراء معاملة تتصف بالأدب أكثر من الرضا؛ فلم يستدعوه أبدًا فى المجلس، لأنهم كانوا يظهرون أنهم كانوا على علم بما يدور على

مدى طويل من خلال طريق آخر. إن مونياتونيس (Muňatones) –وهو محاور لبق وذو خبرة فى مثل هذه الاستدعاءات، وهو أعور ــ عندما أظهروا له الخطاب قال، "افقأوا لى العين الأخرى، إذا عاد الماركيز من هناك أثناء الحرب". وأمضى الماركــيز أيامًا كثيرة موقوفًا ومهانًا، مع أنه كان دائمًا يتّبع إرادة الملك ولا يهتم إلا بها. ولكن بين الملوك ووزرائهم، يكون جانب الملوك هو الأكثر ضعفًا؛ كانت المعلومات التى أدلى بها الماركيز، وكانت المعلومات التى كانوا يرسلونها متناقضة جدًا فيما بينها، فرأى المسئولون أن يضموا إليها تلك المعلومات التى صرح بها السيد إنريكى مانريكى (Enrique Manrique)، قائد حصن ميلان السابق الذى كان يستريح فى بيته.

مر على غرناطة ففهم ما كان يحدث هناك، فأتى إلى حيث كان ماركيز بيليث، ثم رحل من جديد بلا أى شيء آخر سوى مزيد من أخطاء ارتُكِبَتْ أثناء الحرب، منها تحميل بعض المسئولية لغيرهم، ومن باب التبرير، والحاجة إلى مزيد من القوات، حيث زادت قوة الأعداء وضعفت قوتنا.

بدا للوزراء أن القوات التى عرضها الماركيز لطرد الأعداء من البلاد قليلة، وأن هذا العرض متهور وغير محكم التفكير؛ إذ إنه بمضاعفة العدد لم يحدث أثر كبير، ولم يتركوا هذا الحدث الطيب يمر دون أن يفسدوه بقولهم إن عدد قتلى المسلمين كان أقل مما كتب. ولكن الملك، الذى اتخذ جانب الماركيز أجاب: "إنه كان من المهم تحطيم الأعداء وتشتيتهم، حتى ولو بأقل خسائر لهم كما قيل". كان كلام الملك هذا لإحباط أية نية ضد الماركيز، أكثر من كونه مديحًا، كما سيرى ذلك بعد قليل. قال الماركيز إن نقص الزاد كان سببًا فى تشتت قواته؛ وتحامل على السيد خوان، وعلى مجلس غرناطة؛ لقد صار إجمالى عدد معسكره أكثر قليلاً من ألف وخمسمائة من جنود المشاة ومائتين من الجياد، وفى نهاية الأمر، كان محتاجًا ومضطرًا إلى أن ينسحب إلى الداخل فى المكان، وأن يتحصّن بالخنادق، وأن يهدم المنازل. ولكن منذ عدة أيام قليلة أرسلوا من غرناطة مؤنًا كثيرة، حيث لم يجدوا

مَن يقدمون إليه هذه المؤن، ولم يكن هناك نظام جيد، وأصبح سعر المائة رطل من الخبز يعادل ريالاً واحدًا.

ولم تكن غرناطة أحسن حالاً فى التزود بالطعام والمؤن، ولم يكن توزيع المؤن يتم بكثير من الحذر، مع أن الرئيس كان يعالج جزءًا من هذه الأضرار بمهارة؛ لم تنفذ الأوامر الخاصة بالجند والرواتب التى أصدرها السيد خوان ، الذى لم يسامحه شعب غرناطة – وهو المعروف عنه جرأته فى التعبير عن رأيه، ولكن فى حضور الرؤساء فهو عبد ذليل، سريع الموافقة أو التأييد بسهولة دون أن يفرّق بين ما هو حقيقى وما هو مزيف – فالمدينة جديدة، وعبارة عن جسد مركب من سكان من مختلف الأرجاء، كانوا فقراء ومتعبين فى بلادهم، وأتوا إلى هذه المدينة من أجل الكسب؛ وهم بقايا أولئك الذين رفضوا البقاء في بيوتهم، عندما أمر الملوك الكاثـــوليك بإعمار غرناطة؛ كما يحدث فى الأماكن التى يعاد إعمارها من جديد. لا أقول هذا لأنه يوجد أيضًا فى غرناطة طبقة من النبلاء اختارها الملوك أنفسهم عندما تأسست الجمهورية، فقد تكونت طبقة النبلاء من شخصيات متميزة فى الآداب، جعلتهم من الأثرياء، كما تكونت من سلالات هؤلاء وغيرهم من النبلاء فى النسب أو نبلاء فى الشجاعة أو الفضيلة، كما أظهروا ذلك فى هذه الحرب، هم والعامة؛ لكن لأن حال المدن الجديدة يكون هكذا، فإن الفضيلة والغنى يتعرضان للشيخوخة والهرَم، إلى أن ينصهر النبل. عمَّت الأهواء الجميع، دون أن نستثنى أحدًا، وانطلقت ألسنة مَن تجاسر، ولم يكن ذلك بلا سبب؛ ففى حرب اشترك فيها ناس كثيرون، واستمرت لفترة طويلة، وتنوعت فيها الأحداث والوقائع، لم تكن هناك مواقف تُمدح أو تدان. كانت فِرَق غرناطة ناقصة تمامًا وسيئة التنظيم، فلم يكن من الممكن حبسها فى الداخل، ولا الخروج بها؛ ولكن الفوضى العظمى حدثت عندما أمر الملك بمعاقبة الجنود الوافدين من قِبَل ماركيز بيليث بقوة، وسعى السيد خوان إلى تنفيذ ذلك، وكان المسئولون مستائين من تنفيذ الأوامر وكان السيد خوان متعبًا من إصدار الأوامر، ولكنه رأى وأيقن أنه لن يحقق أدنى استفادة من ذلك،

فلزم الصمت؛ وحتى لا يقل العدد ، فضّل أن ينضم إلى الفرق أولئك الذين لم تحمهم ألوية الماركيز، ولم يحدث ذلك دون إهمال؛ وكان هذا سببًا فى أن يتعرض المعسكر للفوضى وأن يظل مفككًا، وأن يستولى الأعداء على البحر والأرض، وأن يظهر ابن أمية فى ساحة المعركة ومعه سبعة آلاف من الرجال، وخمسمائة من الأتراك والبربر، وستون من الخيل، وذلك لإظهار النفوذ والهيمنة.

تمرد خيرغال (Jergal) فى نهر ألمريّة، موطن كونت لابوبيلا (La Puebla)، بناءً على طلب بورتوكارّيرو (Portocarrero)، كبير خدمه. إما بسبب المهارة وخفة الحركة أو بسبب الخوف احتل القلعة بعدد قليل من المدفعية والسلاح، وطرد منها القائد ووضع عددًا من الأفراد بالداخل؛ ولكنه بعد قليل من ذلك وقع فى أيدى كونت تينديّا (Tendilla)، وتم تعذيبه فى غرناطة. وقد ثار أيضًا أهل الوادى ونهر بولودوى، وهى طريق بين أراضى غواديكس، وباثا والبحر المتاخم للبشرات.

ولكى يشغل الناس، ويسمح لهم ببعض المكاسب، ولكى يبرز أهمية الحرب، قرر الماركيز الذهاب بنفسه عبر هذه الطريق، بعدما استشار فى ذلك الملك، الذى حاول الذهاب إلى هناك، أو إلى أرض باثا فى حالة إذا كان عدد الناس غير قليل، ولم يصل العدد إلى خمسة آلاف رجل. عندئذٍ اصطحب الماركيز السيد خوان دى ميندوثا بدون قوات، وذهب بقوات السيد بدرو دى باديّا، وجزء من قوات السيد رودريغو دى بينابيدس (Rodrigo de Benavides) الموجودة فى غواديكس، وبعض الأصدقاء والمقربين الذين تابعوا المعركة، ومعه مائتان وخمسون من الجياد، فرحل ليفرق مجموعة من الناس أرادوا التجمع فى بولودوى، لأنه خشى الخطر على أراضى باثا ، كما خشى تَعرُّض السيد أنطونيو دى لونا للاحتياج، وأن ينضم إليهم ابن أمية، وبهذا يتفاقم الخطر. فرحل من كالاأورّا Calahorra ، وذهب إلى فينيانا Fiňana، وكان يقود طليعة الجيش السيد بدرو دى بادّيا ومعه ألوية نعبولى.

وكان المكان الذى يتجمع فيه الأعداد يبعد عن فينيانا بسبعة فراسخ؛ لكن لعدم استطاعة الجنود السير على الأقدام لمسافة طويلة جدًا، فقد اضطروا إلى قضاء الليلة وهم متعبون ومبتلّون (لأن النهر كان يفيض فى كثير من الأحيان)، على مسافة فرسخين من الأعداء؛ وهذا موقف غير مناسب يحدث للذين لا يقيسون الزمن مع المسافة، وقدرة الناس مع إمكانياتهم(*).

وكان المسلمون مستعدين لقدوم قواتنا، وقد نبهوا الجميع بإشعال النار فى كل مكان، وأبعدوا عن الخطر كل ما استطاعوا من بشر وأمتعة. وقد تقدم الماركيز مع سلاح الفرسان مصطحبًا معه أربعمائة من الجنود المسلحين بالبنادق على ظهور الجياد بالإضافة إلى حملهم مهمات العسكر؛ ولكن بسبب إجهاد البعض والبعض الآخر، فقد تركوا الجزء الأعظم من الأمتعة.

وكان الأعداء ينتظرون إما على بُعد خطوة من النهر، وإما على بُعد مسافة من الجانب الآخر، طبقًا لما كانوا يرونه من تحرك فرساننا، وقاموا ببعض المقاومة، وفى النهاية انسحبوا إلى الجبل. وتركوا الكثير والكثير من الأمتعة والزاد، والنساء والأطفال، وهو ما شغل الجنود؛ وعندما رأوا أن الجنود تأخروا وشُغِلُوا بالنهب، دون أن يحمى ظهورهم جنود مسلحون بالبنادق، عادوا، وفى رجوعهم شنوا هجومًا شديدًا، بطريقة لا تخلو من الفوضى وعدم النظام، مما اضطر قواتنا للانسحاب، مع وقوع بعض الخسارة، وهى تحمل معها الكثير من الغنائم. حضر جزء من سلاح الفرسان بعد فوات الأوان، معتذرا بأنه لم يكن قد تلقى الأمر بعد، ولم ينتظروا الجنود المسلحين بالبنادق الذين تركوهم فى الخلف. لكن الماركيز، عندما رأى أن الانسحاب تم للاحتفاظ بالغنائم (وهو سبب يحرك الناس أكثر من غيره)، أرسل شخصًا ومعه عشرون جوادا وبعض الجنود المسلحين بالبنادق، وهذا تحت سلطة القانون من أجل أن ينزع الغنيمة من الفرسان، لكى توزع بالتساوى فيما بعد بينهم، وليستدعى الجزء المكون من جنود

(*) لا يكتفى مندوثا بسرد الأحداث وإنما يبدى رأيه فى كثير من الأحيان. (المراجع)

السيد بدرو دى باديّا الذين ظلوا بالخلف. وعندما وجد المندوب بعض المعارضة، اشترى ثلاث نساء من الإماء؛ وقد عرضت إحداهن أن تكشف له عن كمية كبيرة من الملابس والنقود؛ ولكنها، عندما رأت أنها فى المكان الذى كانت تتمناه، أعطت بعض الإشارات التى اجتمع على إثرها عدد من المسلمين؛ فقتلوا بعض الخيول وكل الجنود المسلحين بالبنادق؛ وهرب المندوب فى الجهة المقابلة للماركيز، منطلقاً حتى ألمرية، والتى تبعد عشرة فراسخ من حيث بدأ فى الهروب، وجرى كل ذلك على أراضى الأعداء، وظلت الغنيمة مع الفرسان، ولكن لانشغالهم الزائد بها كانت الفائدة قليلة، ولهذا عاد الماركيز ليتراجع بنظام (مع أن الأعداء هاجموه)، إلى أن انضمت إليه قوات السيد بدرو.

ومن هناك توجه إلى فينيانا على رأس مجموعة من الفرسان، وقد لحقت بهم خسارة مماثلة من قتلى وجرحى. ولكنه لما كان يدرك أن المسلمين الموجودين فى جبل باثا ونهر المنصورة كانوا يسيرون فى شكل فرق، وكانوا يثيرون الاضطرابات والقلق فى تلك البلاد، ولخوفه من أن تنضم إليهم قرى فى تلك المحافظة، وفيلابريس (Filabres)، حيث كان موقعه، وحصونه، ولعلمه بأن قوات السيد أنطونيو دى لونا لن تكفى للدفاع عنهم؛ فقد رحل إلى باثا فى بداية الشتاء ومعه ألف من جنود المشاة ومائتان وخمسون من الجياد التى كانت معه. ولكن السيد أنطونيو، وهو رجل حذر، ترك الناس قبل وصول الماركيز بأمر من السيد خوان، وعاد ليباشر عمله فى غرناطة، إما أنه سمع أنه لم يكن يتعامل بلطف مع قادة القوات؛ أو لأنه كان من الأفضل له أن يكون قائده السيد خوان، الذى كان يقضى وقته حينذاك فى الدفاع عن غرناطة، ضد هجمات الأعداء، وكان يشعر بعدم الرضا والفراغ أيضًا، ولكنه كان يتمنى أن يكلفه الملك بمهمة أكبر وأكثر أهمية. فقادة قواته لم يتركوا مناسبة دون أن يظهروا فى كل مكان فى المدينة، يتجولون فى الشوارع وهم مسلحون (فى مواضع خالية من الأعداء)، غير متأكدين من أى جانب سيأتى الخطر، وكانوا يواصلون السير عبر نفس الطرقات التى

خرجوا منها، دون أن "يقطعوا" الأرض، بما يسمح للأعداء للنجاة والانسحاب إلى الجبل. كلمة "يقطع" الأرض بلغة رجال الحرب معناها محاصرتها فى المساء والعودة فى النهار ليروا من خلال الآثار، أى أناس من الأعداء ومن أى جانب دخلوا أو خرجوا. وهذه المهمة تقوم بها كل يوم شخصيات معينة سيرًا على الأقدام أو على ظهور الجياد، ولها مواقع بالمقاطعة، وهؤلاء يسمونهم "قصاصى الأثر" وهى، مهنة فى حد ذاتها تختلف عن مهنة الجنود؛ لم أستطع فهم السبب فى أنهم لم يقوموا بهذا الإجراء فى أرض مظلمة ووعرة، وفى مكان مع أنه كبير، فإنه ليس ممتدا.

وعندما رأى ابن أمية أنه تخلص من ماركيز بيليث، وصل إلى أدرا ومعه سبعة آلاف من الرجال بهدف احتلال المكان، الذى كان يظن أنه مهجور ودون حماية؛ ولكنه رأى أنه يضيّع الوقت بذلك فرحل إلى بيرخا وأراد أن يقسمها إلى نصفين، ولكنه غادرها وذهب إلى أرض ماركيز بيليث، وهى كويباس (Cuevas)، فأتلفها وأحرق البساتين، وخرّب الأحواض، وكان كل ذلك محفوظًا بشكل عجيب منذ زمن بعيد للنزهة، وواصل الهجوم على أراضى بيليث فى جبل فيلابرس، وعاد إلى أنداراكس (Andarax)، حيث كان يعيش عيشة آمنة بفضل الثروة التى جعلته يحيا حياة الملوك، ولكن بطريقة الطاغية، السيد المتحكم فى الأموال والبشر. وكان يبدو للناس وديعًا مع أنه كان يخدعهم بكلمات معسولة، كان المدققون فى الأمر يرونها غامضة مصدرها السلطة لكنها غير صادقة. إنه طمعٌ كبير يكمن فى أعماق الصدر وشِدَّة لا تُكتشف أبدًا إلا عندما كان يغضب، بعدها كان يهدأ، ويريد أن يشكروه على هذا كما لو كان فعل خيرًا.

وكان يعدّ أموال من يتعامل معه بود كبير، وقد اختار بعضًا من أولئك الذين كان يفكر فى إلحاق الأذى بهم، كرفاق لمجالسه ومحاوراته. هكذا كان ابن أمية، وكنا ننظر إليه فيما بيننا على أنه برىء وكان يُدعى السيد إيرنانديّو دى بالور (Hernandillo de Valor)، لكن الظروف كشفت عن ماهية الرجل. ومع

كل هذا استمر فترة فهم خلالها أنه كان محبوبًا، وقد صدق هو هذا، وهو يجهل حالته؛ إلى أن بدأت عامة الناس تتحدث عن طريقته وأسلوبه، وعن حياته، وعن طريقته في الحكم، وكل هذا بحرية واحتقار، كما كان مستهانًا به. وقد ابتعد عن خدمته بعض القادة الغاضبين، الذين استكبروا: الناقوس (Nacoz)، فى أرض غرناطة؛ والمالكى (Maleque)، فى أرض باثا؛ وخيرون (Girón)، فى أرض المونييكار (Almuñecar)؛ وغارّال (Garral)، فى أرض بيليث؛ وموخاكار Mojacar، فى نهر المريّة؛ وابن مكنون (Aben Mequenun)، فى نهر المنصورة – وكانوا يدعونه بورتوكارّيرو (Portocarrero)، وهو ابن الرجل الذى أثار بلدة خيرغال؛ وفرج (Farax)، وهو أحد الأشخاص الرئيسيين الذين اشتركوا في تنصيبه ملكًا. وقد حمّلوه أخطاء، واستهزءوا به، وحتى مستشاروه أنفسهم سخروا منه؛ وهذه إلى حد كبير علامات تسبق القضاء على الطاغية.

ومن بين الكثيرين الذين شكوا أحوالهم، كان الأتراك، حيث اشتكوا من أنهم رحلوا عن بلادهم لكى يأتوا لخدمته، ولكنه لم يضعهم فى المكان الذى يمكنهم الكسب منه؛ فأصابهم الإحباط وعدم الرضا لحصولهم على رواتب عادية. ولكنه كان بطيئًا، ومترددًا لدرجة تعرضه هو نفسه للأذى، فقد أخّر الرّد كثيرًا حتى وقعت العداوة بينه وبينهم، مع أنه جلبهم من أجل توفير الأمن له. كان يضمر فى نيته حرق وتخريب موتريل (Motril)، وهو مكان يتمتع ببعض المميزات مثلما كان من قبل؛ ولكنه مكان كبير، ومفتوح، وسهل، وكذلك حرق وتخريب الساحل. ولكن من أجل أن يخدع قواتنا، قرر إرسال الأتراك (لكى يأمرهم بالعودة)، إلى لاس ألبونيويلاس، وهى على حدود غرناطة، مُبديًا رغبته فى أن يكافئوا وأن ينعموا بالملذات ورغد العيش فى بال دى ليكرين (Val de Lecrin)، وهو أحد الأحياء الثلاثة القوية، والتى يقع خلفها الجبل. كان من بين الأصدقاء الذين كان يثق بهم جدًا، واحدٌ يُدعى عبد الله بن عبو (Abdala Abenabó)، من ميثينا دى بومبارون (Mecina de Bombarón)، وكان ابن عمه، وكان أيضًا من نسل ابن

أمية، وكان قائدًا عامًا، وكان يتصف بالعقل والشجاعة، وله رأى صائب، وكان محترمًا بشكل عام، وكان خبيرًا بالحقل، وكان يتسلى بتربية الماشية أكثر من التسلية بفجور المكان. أرسل ابن أمية هذا الرجل كمندوب عام لكى يوطنهم ويقودهم، وأمر أن يخضع القادة لطاعته؛ وأعطاه أمرًا بأنه حيث يصله أمر منه، أن يرجع بهم وبأكبر عدد يمكن جمعه من الناس، وأن يحضر معه زادًا وطعامًا يكفى لستة أيام؛ وسيحدد له المكان الذى يجب أن يتوجّه إليه. وقد رحل ستمائة رجل، أربعمائة تركى ومائتان من البربر، يرتدون الثياب نفسها، وكلهم مسلحون بالبنادق؛ وكان قادته آنذاك حسينى (Hhusceni) وكاراباخى (Caravaji). عندما وصلت القوات إلى كاديار (Cadiar)، أرسل ابن أمية فى التو خطابًا يستعجلهم كثيرًا فى العودة إلى فيريرا (Ferreira). ومن هنا تم التخطيط لموته. سأتناول من بعيد السبب الحقيقى لهذه الوفاة، لأنها نشرت بشكل مخالف للحقيقة.

فى البداية كان غضبًا من الأتراك، الذين ظهر لهم أن ملكهم يحكم بلاد البربر؛ وأن أصدقاءه يخشونه؛ ولم يعد هناك أمن للأشخاص والموارد المالية، وكانت هناك شكوك فى أنه يتخابر معنا.

وكان الاتفاق كذا بعد أن اختاروه فيما بعد، على ألا يوجد أحد فى فرقتنا له صديقة موريسكية، إلا إذا كانت زوجته الشرعية، وأن يُحافظ على ذلك بشكل عام. ولكن كانت هناك أرملة من بين النساء، وهى سيدة من بيثينتى دى روخاس (Vicente de Rojas)، وهى إحدى قريبات دى روخاس، حمى ابن أمية؛ وهى سيدة جميلة ولها أصل عريق، ولطيفة كذلك، وتتصف بالحكمة فى أى موقف، وهى تتزين بملابس أنيقة جدًا أكثر لكونها وقورة، وماهرة فى العزف على آلة العود، وفى الغناء، والرقص على طريقتها وعلى طريقتنا، وتعتاد استمالة الآخرين والسيطرة عليهم. وقد وصل لهذه السيدة ابن عم لها، كما هى العادة بين الأقارب، بعد وفاة زوجها فى الحرب، الذى كان ابن أمية يثق فيه، وكان يدعى دييغو ألغواثيل؛ وعاشا معًا، وكان التعامل فيما بينهما أكثر مما هو عائلى ومألوف؛ وكان

هو يتحدث مع ابن أمية مادحًا جمالها وحديثها، حتى مال ابن أمية إليها ورغب فى رؤيتها؛ وقد سرَّ بها، ولكى لا يجرح مشاعر الصديق، فقد عمل على إخفاء رغبته؛ فتعمّد إرساله فى مهمات تجعله يغيب؛ وفى النهاية تغلبت الشهوة على الاحترام؛ فأمر ابن العم، على الرغم من أنه متزوج من أخرى، أن يتزوج بها، ولما رفض ابن العم استضافها الملك وديعة فى بيته، وتعامل معها على أنها صديقة. فأخطرت الأرملة ابن عمها بذلك وهى تبدى استياءها، وشعورها بأنها مهانة بين زوجاته الكثيرات، لأن الملك لم يتخذها زوجة؛ وأنها مجبرة على البقاء هكذا، وتتمنى لو تتحرر من هذا الوضع؛ فبحث ابن أمية، الذى شعر بأن ابن عمها يرغب فى الانتقام، عن فرصة لقتله. فهرب ألغواثيل، وانضم إلى فرقة من الشباب تعرضوا لشتى أنواع الأذى والإهانة لأسباب مختلفة، فسار متخفيًا دون أن يدخل بالور. ولكن بعد عدة أيام علم من السيدة نفسها كيف أن ابن أمية سيرسل الأتراك فى مهمة معينة، وأنه سيذهب للانضمام إليهم من أجل الحصول على بعض المكاسب؛ فلما أخبره الرسول بالقصة، وعلم منه أن ابن أمية سوف يستدعى الأتراك قتله؛ واستولى منه على الخطابات واستعمل الحيلة نفسها مثلما فعل الكونت خوليان مع قادة الملك رودريغو (Rodrigo) فى سبتة. لم يكن ابن أمية يعرف الكتابة وكان يوقع بالحروف العربية بشكل سيئ؛ ولكن كان يعمل لديه مساعدًا ويوقّع له فى بعض الأحيان ابن أخ للغواثيل، كان موجودًا مع عمه آنذاك، وكان قد تعرض هو أيضًا للإهانة. وبدلاً من الخطاب كتبوا خطابًا آخر إلى ابن عبو، يأمره فيه بالعودة فى تلك الليلة مع الأتراك إلى ميثينا، والانضمام إلى أهل البلد ومائة رجل كان يصطحبهم معه دييغو الغواثيل، وأن يقوم بذبحهم وذبح قادتهم وهم نائمون ومتعبون؛ وأن يفعل الشيء نفسه مع الغواثيل، بعد الاستعانة به.

أرسل هذا الخطاب مع رجل يثق به، وكان يحسب الوقت بطريقة تجعل وصوله مع الرسول إلى كاديار فى الوقت نفسه تقريبًا. أعطى الرجل الخطاب قبل قليل من وصول دييغو ألغواثيل، الذى وجد ابن عبو مرتبكًا ومتعجبًا؛ فأبلغه كيف

أحضر الناس معه ولكنه لم يظن أنه سيجد نفسه فى مثل هذه القسوة، لأنها شخصيات أتت لمساعدة جماعته وهى واثقة فيه، فضلاً عن أنهم جميعًا رهنوا حياتهم من أجل ثرواته، ومن أجل حريته، ومن أجل حياة قومه؛ ولكنهم الآن قد تعبوا من خدمة رجل متطوع، وجاحد، وقاس، فماذا يمكنهم انتظاره إلا الشىء نفسه؟ طيب الكلمات، ولكنه سيىء الخلق وفاسد، فلا توجد نساء، ولا أموال، ولا أرواح يشبع بها الرغبة، ويروى بها تعطشه للمال والدم.

مضى حسينى قائد الأتراك (وهو شخصية لها مصداقيتها بينهم، لأنهم يتعاملون معه على أنه رجل حكيم، وشجاع وصديق للملك)، قبل أن يرد عليه ابن عبو، فأراد أن يتحدث إليه وهو غاضب؛ فأظهر ابن عبو الخطاب لكاراباخى وللحسينى، إما لأن الآخر لم يحذره، وإما لأنه خشى أن يقتله الأتراك، أو بطمع فى الملك، وفى هذا الخطاب يكون دييغو الغواثيل رفيقًا له فى الخيانة. يقولون إنه فى الوقت نفسه أخرج الغواثيل وصفة يعتادون استخدامها لكى تذهب عقولهم عندما يجب عليهم القتال وأحيانًا للسكر، وهى تصنع من الكرفس وبذرة القِنّب، وهى توليفة قوية للنوم الثقيل؛ وقال إن هذه التركيبة يجب أن تقدم فى العشاء ومع المشروبات للقادة والرؤساء، وهم مخدرون ومنهكون من الطريق، على نفس الطريقة التى يسميها العرب الحشيش. وبإدراك ما يدور، قرروا فيما بينهم إقصاء ابن أمية وقتله، لتأمين أنفسهم من جانب، ولسرقته من جانب آخر، لأنهم كانوا مقتنعين بأنه كان يملك كنزًا كبيرًا، وأن يتخذوا ابن عبو زعيمًا.

واستمالوا إليهم الناس الذين كانوا مع دييغوا الغواثيل، وساروا بهدوء حتى أنداراكس، حيث كان ابن أمية؛ واطمأن الحراس إليهم لكونهم شخصيات معروفة، وكان من المعلوم أن ابن أمية أرسل فى استدعائهم. وقد مروا على أفراد الحراسة، ودخلوا البيت، الذى كان ابن أمية موجودًا فيه فى حى يسمى لاوخار (Laujar)؛ وحطّموا أبواب غرفة النوم؛ فوجدوا ابن أمية عاريًا، يغالب النوم ، معانقًا امرأتين، إحداهما الأرملة صديقة دييغو الغواثيل ، فتم القبض عليه فى حضور الشخصيات

التى كان يعاملها بثقة وود، وهم رجال سوقة ورعاع (فقد كان يميل بشكل كبير لمثل هؤلاء وكان يثق بهم)، وكانوا يعملون خدما لديه، وهم المشوار (Mejuar)، وبارزانا (Barzana)، وديليار (Deliar)، وخوان كورتيس دى بلييغو (Juan Cortes de Pliego) وكاتبه، الذى كان من الديرة (Deire). وكان له داخل البيت أربعة وعشرون رجلاً، وأربعمائة من الحرس، وألف وستمائة يبيتون فى المكان، ومع كل هذا لم يظهروا أية مقاومة، فلم يضطر أحدًا لاستعمال السلاح ولا أن يرد بكلمة عليه. ولكن كما أن الملك فحسب يستطيع أن يبين لرجل أنه ملك، فالرجل فحسب يمكنه أن يبين لملك أنه رجل. لكن ابن أمية كان يعوزه مُعلِّم لأنه يفتقر لهذا ولذاك؛ لأنه لم يكن يعرف الاستعداد والقيادة كملك ولم يقاوم كرجل. فربطوا يديه بمئزر، واجتمع ابن عبو، والقادة ودييغو الغواثيل أمام السيدة لمعالجة موضوع الجريمة والعقوبة، فى وجودها؛ وأظهروا الخطاب ثم قرءوه لها، فأنكره هو متعجبًا، لأنه برىء، فعرف خط قريب دييغو الغواثيل؛ وقال إنه كان عدوًا له، وإن الأتراك ليس لهم حق فى محاكمته؛ [مستشهدًا بأقوال محمد[٢]، وإمبراطور الأتراك، وملك الجزائر]، بأنهم قاموا باعتقاله وأن يقبلوا بدفاعه. ولكن قوة العقل كانت أضعف وأقل مع رجال مذنبين ومفتونين بنفس الجريمة، وطامعين فى ثرواته. فنهبوا بيته؛ ووزّعوا النساء، والأموال، والملابس فيما بينهم، ونزعوا السلاح من الحرس وسرقوهم، واجتمعوا مع القادة والجنود، وفى صباح يوم آخر قرروا قتله.

واختاروا ابن عبو كزعيم علنًا، طبقًا لما اتفقوا عليه فى السر، مع أنه أظهر تأثره ورفضه للمنصب، وكل هذا فى حضور ابن أمية، الذى قال، إن نيته لم تكن أبدًا تتجه إلى أن يكون مسلمًا، لكنه قَبِلَ المملكة من أجل أن يثأر من الإهانة والظلم، اللذين اقترفهما ضده وضد والده رجال شرطة الملك فيليبى، وخصوصًا عندما نزعوا منه خنجرًا وعاملوه كرجل سوقى، مع أنه سيد نبيل ومن أصل عريق

---

[٢] يقصد المؤلف هنا أن ابن أمية استعمل فى ذلك أقوال الرسول (صلى الله عليه وسلم) فى الاحتجاج ضدهم. (المراجع)

جدًا، ولكنه قد انتقم من أعدائه، مثلما انتقم من أصدقائهم وأقاربهم، ومن أولئك الذين اتهموه وشهدوا ضده وضد والده فشنقهم وقطع رؤوسهم، وسبى نساءهم واستولى على أموالهم، وبما أنه قد نفذ رغبته، فلينفذوا هم رغبتهم. بالنسبة لاختيار ابن عبو، فقد كان (ابن أمية) مسرورًا لأنه كان يعلم أن ابن عبو سيصل إلى هذه النهاية نفسها وبسرعة؛ وأنه سيموت على العقيدة المسيحية التى كان ينوى أن يحيا ويعيش بها إذا لم يدركه الموت. وقام بخنقه رجلان، شدّ كل منهم الحبل من جانبه بعد أن لفوه حول عنقه، وقد استدار هو كما لو لم يحدثا به ضررًا ثم أصلح هندامه، وغطى وجهه.

كانت هذه نهاية ابن أمية، الذى أحيا ذكرى تلك العائلة التى حازت أكبر جزء من معارف العالم فى زمنها. والمناسبة تدعونا إلى تأمل أنه [كما أن كل شيء نراه فى العالم يظل فى شكل أجزاء، لأنها جميعًا تشكل هويته، وإحدى هذه الأجزاء هو الجزء الخاص بالسلالات أو بنسب الرجال. بعض هذه الأنساب كما يبدو الحال تصل إلى المزارعين الفقراء، وعند الآخرين تصعد إلى أن تصل إلى عظماء الملوك]. ولكن فى كثير من الأحيان فإن خالق كل شيء عندما لا يجد إنسانًا مهيئًا فإنه يخلق أشياء صغيرة تشبه الأشياء الكبيرة، كثمرة خرجت من أرض متعبة أو منسية، أو كأنه أراد أن يخلق رجلاً، فيخلق قزمًا، بسبب عدم وجود إنسان معين، وعدم توفر الزمان والمكان. لم يوجد فى شعب غرناطة موريسكيون، أو قوات، أو فرص، أو استعدادات لخلق ورعاية ملك: فخرج بناءً على كثير من الرغبات المجتمعة، رجال تعرضوا للأذى والإهانة فصنع كل هذا طاغية له ظل واسم ملك. وينحدر نسب هذا الرجل إلى سلالة منسية ولكنها كانت تسود لفترة طويلة. **يقولون أن من ابنة واحدة لمحمد واسمها فاطمة، ومن على ابن أبى طالب (Hali Abenseib)، جاءت سلالتان، واحدة من بنى أمية والأخرى من بنى العباس (Abanhabet)، وكان يرأسها عبد الله بن العباس أمير المؤمنين سيد إسبانيا، الذى طرد البربر من المملكة، ثم يوسف على حسن**

(Juseph Hali Atan)، الذى طرده من المملكة عبد رب مينهدالى (Abdurrabi Menhadali)، رأس سلالة بنى أمية، ثم الأخير وهو حسين(هشام؟) (Hiscen)، الذى تولى العرش وسط خلاف، لأن القائمين على أمور البلاد فى قرطبة قد طردوه بمساعدة حبوس (Habuz)، ملك غرناطة، فواحد من نفس السلالة اختار أن يكون ملكا لمدة يوم واحد، بشرط أن يقتلوه بعد مرور أربع وعشرين ساعة، فاختاروه، وقتلوه، وقضوا على سلالة بنى أمية ومملكة قرطبة معًا.

جاء أولئك الذين ينحدرون من أصل هذا الملك، الذى تولى الملك يوما واحدا، ليسكنوا جبال غرناطة، فقد سن المسلمون قانونًا ينص فيه على ألا يستطيع أى واحد من نسب بنى أمية تولى العرش فى قرطبة. لأنه بعد ذلك حكم فى أندلوثيا المرابطون، والموحدون، ونسب ابن هود (Abenhut)، فلم تعد قرطبة بالنسبة لهم رأس المملكة، حتى حدث ذلك بقوة الملك القديس فيرناندو الثالث. نقول هذا على سبيل المثال، ولنتذكر أنه لا توجد مملكة خالدة، حيث تلاشت مملكة قوية جدًا، مثلما كانت مملكة قرطبة.

اتخذوا عبد الله ابن عبو رئيسًا وسلموه مقاليد الحكم وقيادة كل شىء لمدة ثلاثة أشهر، إلى أن نصل الموافقة على ذلك من ملك الجزائر ومنحه لقب الملك، فأرسل مع ابن داود (Ben Daud)، وهو موريسكى صباغ يعيش فى غرناطة، وهو صاحب فكرة الانقلاب والمخطط له، أن يخبر ملك الجزائر باختيارهم هذا، وأعطاه مالاً وذهبًا لكى يقدمه له، كما أعطى له كل واحد من القادة مساعدات يذهب بها، وظل هناك، وأرسل الموافقة مبكرًا جدًا قبل الأوان. واحتفلوا بابن عبو وأقاموا له المراسم، ووضعوا فى يده اليسرى راية وفى يده اليمنى سيفًا، وألبسوه الحلل المنقوشة بالألوان، ورفعوه إلى أعلى، وأظهروه للشعب قائلين: "أعزّ الله ملك أندلوثيا وغرناطة عبد الله ابن عبو" وقدمت البلاد الموريسكية فروض الولاء والطاعة بشكل عام له والتى لم تقدمها لمحمد ابن أمية، كذلك قام القادة بتقديم

فروض الطاعة والولاء، فيما عدا ابن مكنون، الذى كانوا يسمونه بورتوكاريرو (Portocarrero)، وهو ابن الذى أثار الانقلاب فى خيرغال بأربعمائة رجل عند نهر المنصورة، والذى أعدمه دوق أركوس (Arcos) فى غرناطة، وباستثناء خيرون الأرشيدونى فى المونييكار (Almuñécar) والميخارا (Almíjara)، الذى مات مهزومًا فى خايينا (Jayena) بعد أن صدر العفو عنه.

وقام بتوزيع قيادة القلاع والحكومة بين رجال أصليين من الأقاليم نفسها؛ واختار لمجلسه ستة أشخاص بالإضافة إلى القادة الأتراك مثل كاراكاس (Caracax) والسيد دالى قائدًا، لأن كاراباخى بعد أن تم الاختيار رحل إلى بلاد البربر لجلب المزيد من الناس. واختار كقائد عام لأنهار المريّة، بولودوّى والمنصورة وجبال باثا وفيلابرس، وأرض ولاية ثينيتى وغواديكس، من كان يدعى الحبقى (Habaqui)، الذى كان على ما يبدو يحكم فى كل شىء؛ وقائدًا آخر فى سييرا نيبادا (Sierra Nevada)، وأراضى بيليث، والوادى، والبشرات، وغرناطة، وكانوا يدعونه شعيب دى غويخار (Joaib de Güéjar): وأطاع قادة الأقاليم الأخرى، شقيقه محمدًا بن عبو كحاكم تكون له السلطة العليا بعد الملك.

أرسل مع حسين هدية أخرى من الأسرى لملك الجزائر، وأرسل إليه ليطلب منه مزيدًا من القوات والأسلحة: فجمع جيشًا بلغ عدده أربعة آلاف من الجنود المسلحين بالبنادق، وأسكن الجزء الرابع بالقرب منه شخصيًا وكانت الحراسة تتكون من مائتين من الجنود المسلحين بالبنادق، وكان الخفر يوجدون خارج المكان متباعدين، ولا ينضمون إلى أفراد الحراسة، إلا من مكان أعلى أو بعيد، ولا يعطى لهم اسم آخر إلا كلمة السر الخاصة بالعبور من مكان معين، أما الذين يأتون من جانب آخر يتم القبض عليهم أو إطلاق النار عليهم، ومن هناك يعرفون من أين يأتى الأعداء. فلهم دائمًا مراقب فى الليل وفى النهار يمارسون عملهم عن طريق القمم الجبلية – اعتلاء الأماكن العليا – يسمون الرقيب الأول قاضى مساعد للحرس، وتتلخص مهام وظيفته فى أنه يوزع الخفر ويستدعيهم، وينظم الناس،

ويسكنها، ويقيم العدل بين أفراد الحراسة. ويقيم داخل البيت عشرون من الجنود المسلحين بالبنادق، يسمونهم البوابين. رويدًا رويدًا أخذ (ابن عبو) يشترى الأسلحة بكميات كبيرة ووزعها بأسعار زهيدة بين الناس. فوصل بهذه الطريقة عدد الجنود المسلحين بالبنادق لديه إلى ثمانية آلاف، وكان راتب الأتراك ثمانى عملات معدنية فى الشهر، وكان أجر الموريسكيين هو الطعام. بهذه البدايات للحكم وبهذا الاحتياج إلى زعيم، وبهذه السمعة التى عرف بها كرجل شجاع وبسيط، كما عرف بالبشاشة، والمهابة ، ولأنه عانى فى شخصه من الظلم والعذاب عندما كان أسيرًا، أصبح محبوبًا، ومحترمًا، ومطاعًا، وتعامل معه الجميع بوجه عام على أنه ملكٌ للجميع.

أمر السيد خوان فى هذا الوقت بدرو دى ميندوثا أن يذهب لزيارة معقل أورخيبا (Orgiba) وأمره بأن يحل محل فرانثيسكو دى مولينا (Francisco de Molina) فى الخدمة، لأنه أدرك أنه كان متوعكًا صحيًا، وكان على علم أن ابن عبو، وهو الملك الجديد كان يجمع الناس للمجىء للميدان. ولكن وقع حادث جديد وغريب جدًا على بعد سبعة فراسخ من غرناطة كتلك الأحداث التى تقع عادة فى بلاد العالم الجديد، والتى تبعد ثلاثة آلاف فرسخ عن إسبانيا؛ ان من خمسة ألوية ظل واحد فقط بقائده، السيد غارثيا دى مونتالبو (García de Montalvo)، حرًا دون تمرد، وباتهام فرانثيسكو دى مولينا، علنًا بأنه مجنون، طالبوا بأن يكون بدرو دى ميندوثا قائدًا، فالأدلة التى قدموها على جنونه، أنه كان يضغط عليهم ويضمهم بشدة للحراسة، ولأنه كان مريضًا فقد كان يستدعيهم، لأنه لم يكن ينام الليل، وهو رجل ثرى وحذر، ولأنه كان يفتقر للبطانة الخاصة، فقد كان يساعد بالأموال من كان يرسلهم بتصريح لكسب ثقتهم لكى يأتى آخرون، وكان يوزع الطعام والزاد بنسب كمن كان يشك فى وقوع الحصار. ولكن عندما أدرك أن الوضع يسير نحو التمرد أراد أن يوقف القادة، وحاول تهدئتهم وسعى إلى أن يخرج بدرو دى مندوثا من أورخيبا، ولكن من أجل أن يرضى الناس التى كانت عاطلة وغاضبة، وأن

يتزود بالمؤن والطعام، أرسل فرقة أنطونيو مورينو (Antonio Moreno) بصحبة الضابط بيليتشس (Vilches) لكى يقوم بالتجول بالساحل، ولكن المسلمين قطعوا عليهم الطريق فى تاراسكون (Tarascón)، فقتلوا جميعًا دون أن ينجو من الموت إلا ثلاثة جنود.

وبهذه المناسبة زود ابن عبو بلدة كاستيل دى فييرّو (Castil de Ferro) بالسلاح، والمدفعية، والمؤن والزاد، ووضع بالداخل خمسين من الأتراك ومعهم قائد يدعى لياندرو (Leandro)، لكى يستطيع استلام المساعدة التى سيجلبها كاراباخى مع الأسطول الجزائرى، وجاء هو بنفسه إلى أورخيبا، حيث حركته شكاوى البلاد المجاورة، والأذى الذى كان يقع عليهم باستمرار من الحامية التى كانت تقيم بها. كان القادة المسلمون، وهم: بيربوث (Berbuz)، ورينداتى (Rendati)، وماكوس (Macox)، وكان قائد الأتراك هو دالى (Dali)، الذى عهد إليه بقيادة المهمة والناس. فشددوا الحصار حول المكان، وأظهروا رغبتهم فى تجويعه، وبدءوا فى حفر الخنادق حتى وصلوا إلى البيوت، وجاءهم أفراد، ودخلوا فيها، وانتشروا بطريقة جعلتهم يكتشفون الميدان، ولم تعبر قواتنا، ولم تكن موجودة فى مواقع الحماية إلا وتعرضت للاختراق والخسارة، كانوا يتناولون المياه لعدة أيام بالصراع والمشاجرات، فقد كان الجوع والعطش أكبر من الخوف من الأعداء. نبه فرانثيسكو دى مولينا عن الوضع، وتصور السيد خوان أن دوق سيسا سيمدهم بالمساعدة، وبالخبرة، وبالسيطرة على الناس، لكونه عضوا فى المجلس ولكون المكان تابعًا له، فتوقف عدة أيام فى انتظار الزاد والمؤن فى مماطلة مبالغ فيها، فرحل مع ستة آلاف من جنود المشاة وثلاثمائة من الجياد، وكان الجزء الأعظم من القوات من أهل القرى، ولكن فى الساقية (Acequia) أصابه النقرس، وهو مرض عادى بالنسبة له؛ ولكنه كان شديدًا جدًا لدرجة أنه أفقده القدرة على الحركة، مع أنه احتفظ بإدراكه وعقله حرًا. حاول السيد خوان إرسال لويس كيخادا مكانه، ولم يكن هذا الرجل بلا مآرب، ولكن الدوق كان قد تحسن، وفى بداية نوفمبر أرسل من

الساقية إلى بيلتشس – الذى كانوا يسمونه باسم آخر وهو "القدم الخشبية" – وهو رجل بارع فى ساحة المعركة، وخبير بطبيعة الأرض، على رأس أربع فرق من المشاة وتضم ثمانمائة رجل، ترك من الجهة اليمنى لانخارون (Lanjaron)، واتخذ الطريق من أصعب مكان فى الجبل وأكثره وعورة، وهو طريق غير مستخدم منذ سنوات طويلة، ولكن يمكن للخيالة اجتيازه؛ وعندما تعرف على الشعب الذى يعبر طريق أورخيبا، اتخذ أعلى مكان فى الجبل وظل هناك هادئا، إلى حيث يلف طريق لانخارون بالقرب من أورخيبا، ومن هناك أعطى تنبيهًا لفرانثيسكو دى مولينا؛ ولكى يؤمّن بيلتشس Vilches أرسل خلف ظهره ثمانمائة رجل آخرين، يتابعونه مع باقى الناس والفرسان، وهو يشك فى أن هؤلاء وأولئك سيحتاجون للمساعدة. ولكن المسلمين الذين لم يتلقوا فقط إنذارًا بالخروج من الساقية، بل كان لهم عدد من المراقب المنتشرة فى كل مكان، والتى بالإشارات كانت تعد خطوات قواتنا، وهم يسلمون هذه الإشارات من مرقب إلى آخر حتى أورخيبا، قسموا أنفسهم إلى قسمين: واحد يظل فى أورخيبا، والآخر ومعه باقى الناس يخرج بألويته لانتظار الدوق. وكان هذان القائدان هما حسينى ودالى، واللذان كانا يخفيان جزءًا من الناس. بدأ دالى يظهر متأخرًا وكانت تشغله المناوشات. وفى أثناء ذلك تباعد ستمائة رجل، أربعمائة مع رينداتى الذى تربص خلف ظهر بيلتشس وماركوس إلى الأمام عند دخول الجزء السهل لأخذ طريق الثلاث صخرات للساقية (يسمى المسلمون ذلك المكان بلغتهم قلعة الحجر).

كان شيئا نادر الحدوث، حتى بالنسبة للرجال الذين لديهم خبرة كبيرة ومعرفة بالأرض، أن يخرج الكثير من الناس عن الصفوف للاشتباكِ مع العدوّ، وأن يتم عمل كمائن دون أن يشعر بذلك من كانوا فى المقدمة أو من كانوا فى المؤخرة. وجاء المساء، وهجم دالى، وشدد هذا القائد الاشتباك بالقرب من المياه بطريقة جعلت قواتنا تقرر الانسحاب إلى حيث كانوا يظنون أن الدوق سيأتى، ولكن بنظام. اكتُشف أول كمين، وهوجموا هجومًا شرسًا، ولما كانوا بعيدًا عن

المساعدة وقد اقترب الليل، انسحبوا وهم منهكون تقريبًا إلى مرتفع قريب من الشعب، بقصد الانتظار، حيث يستطيعون أن يكونوا بمأمن ولو حدث لهم الأذى، إذا تعرض القائد بيريا (Perea) لبعض المشاكل، ولكنه عندما رأى الإمدادات والمساعدة، اندفع من ناحية الشعب واندفع الناس وراءه، حيث تبعه المسلمون، ومات أثناء المعركة وكان يحارب معه جزءٌ من الذين تابعوه، وتقدموا إلى الأمام وواصلوا هجومهم حتى وصلوا إلى الدوق وكان ذلك عند المساء، وقد أعان الدوق قواتنا وسحبها، ولكن نظرًا للهجوم الذى وقع عند الكمين الثانى لماكوكس، والضغط عليه من جانب الأعداء، ثم لعدم معرفته بالطريق وبطبيعة الأرض بسبب الظلام الدامس، والارتباك بسبب الخوف المسيطر على الناس، الذين بدءوا يتساقطون من حوله، احتاج إلى مواجهة الأعداء بنفسه، وظل معه السيد غابرييل وعمه السيد لويس دى كوردوبا (Luis de Cordoba)، والسيد لويس دى كاردونا (Luis de Cardona)، والسيد خوان دى ميندوثا، وبعض الفرسان وبعض النبلاء، الكثيرون منهم مدعمون بالمشاة كانوا يسددون بعض الضربات، ولأنهم كانوا منهكين حتى مكان قريب من المعسكر، قالوا إذا هاجمهم المسلمون مثلما هجموا فى البداية فإنهم سيكونون عرضة للخطر. ولكن الخطر كان فى أن يرحل "القدم الخشبية" فى الوقت المناسب، لأن النهار لم يكف لكى يصل الدوق إلى أورخيبا مع ضوء الشمس، ولا لكى ينقذه. فى مملكة غرناطة يخدع الزمن الكثير من الرجال الذين لا يقيسونه عبر وعورة الأرض، وعمق الشعاب والوهاد وضيق الطرق. مات من قواتنا أربعمائة رجل، وفقدنا الكثير من السلاح طبقًا للمسلمين، وهم أناس تافهون يبالغون فى تقدير انتصاراتهم، أما بالنسبة لنا (ونحن فى هذه الحرب نظهر التجاهل وإخفاء الخسارة)، فقد كان قتلانا ستين فقط. وسواء كان هذا أو ذاك فإن الأذى قد لحق بنا من الأعداء كما لحق بسمعة الدوق؛ الذى كان يرتاب من الناس فى الليل، وكان تحت ضغط الأعداء والظروف، وكانت عنده حرية لتموين كل جانب وتزويده، والقدرة على إبعاد الأعداء، وسلطة إيقاف رجالنا، الذين بدءوا فى الهرب، ثم جمع قواته وبات فى الساقية عند منتصف الليل تقريبًا.

إن أمة متحمسة جدًا ومستعدة لتحمل العمل الشاق، وموضوعه فى بؤرة الإخلاص، ومعتزة بشرفها (وهذا فى الحرب عنصر مهم)، لا تتصرف فى هذه المعركة على عكس شجاعتها وقوتها. وضعت فى اعتبارى هذا فتذكرت الكثير والكثير من الجيوش المنظمة التى كانت لها شهرة واسعة، والتى وجدت نفسى فيها، والتى كان يقودها الإمبراطور السيد كارلوس، وهو أحد أكبر القادة الذين وجدوا على مدى العديد من القرون، وكان يقود جيوشًا غيرها، نظيره، الملك فرانثيسكو ملك فرنسا، وهو رجل لا يقل شجاعة أو خبرة. لم أر جيشًا أكثر تسلحًا، أو أكثر تنظيمًا، أو أكثر اكتمالاً لكل أجزائه، أو أكثر خبرة، أو أكثر مالاً، ومؤنًا، وطعامًا، ومدفعية، وتموينًا، واستعدادًا، وجنودًا خاصة، ورجال بلاط مغامرين، ورؤساء، وقادة وضباطًا، يبدو لى أننى لم أر أو أسمع، أكثر من جيش السيد فيليبى الثانى ملك إسبانيا، الذى حارب به ضد إنريكى الثانى ملك فرنسا، وهو ابن فرانثيسكو، حول دورلان (Durlan)، أثناء دفاعه عن فلاندس، عندما صنع عملية السلام المشهورة جدًا التى تحدث عنها العالم، والتى انبثق عنها عودة الدوق فيليبيرتو دى سابويا (Filiberto de Saboya). وعلى العكس من ذلك، لم أر مثله جيشًا مهلهلاً جدًا، وفى منتهى الفوضى وغير منظم، بالإضافة إلى القصور التام فى إعداده وتجهيزه، وبه الكثير من التبديد والضياع للوقت والمال؛ والجنود متساوون فى الإحساس بالخوف والطمع وقلة الامتثال للأوامر وعدم النظام. وأعتقد أن الأسباب كانت تعود إلى بداية الحرب فى زمن ماركيز مونديخار حيث اشترك فيها المغامرون من أهالى القرى، والذين حركهم الطمع، والسرقة، والضعف وقلة السلاح التى أقنعت جنود العدو فى البداية، بالخروج من منازلهم بغير نظام تقريبًا ودون ترتيب القادة أو الألوية، وكانت أماكنهم قريبة، ولذا فقد كانوا يعودون إليها بأى غنيمة. فخرجوا إلى الحرب وهم حديثو عهدٍ، وعادوا وهم مستجدون. ولكن فى الوقت الذى كان فيه ماركيز مونديخار، وهو رجل متحمس ومجتهد يعرف ظروف الأصدقاء والأعداء، كان يسير بجوارهم، ويده فى أيديهم فى كل وقت، وفى كل مكان من خلال خاصته الذين تابعوه كانت هذه الأخطاء مخفية. لكن بعدما

انتشر الأعداء؛ وقعت بعض النكبات حيث ظلت قواتنا بلا سلاح بينما تسلح الأعداء، وانتقل الخوف من بعضهم إلى البعض الآخر. وكما أنه كان العيب الأكثر ضررًا فى الحرب، كان أيضًا الأكثر عدوى: لم يقسموا الغنائم فيما بينهم ، بل كان لكل واحد ما كان يستولى عليه وبالطريقة نفسها كان يحتفظ به، فكانوا يهربون بالغنائم بغير تفاهم ودون اتفاق، فكانوا يتعرضون للموت وهم يحتضنون الغنائم أو يحملون المسروقات، فكانوا يتعرضون لذلك من حيث لم يتوقعوا، إما إذا لم يخرجوا، أو فى حالة خروجهم، وعند رجوعهم للبيت، فهى حرب جبلية، قليلة المؤن والتجهيز والاستعداد، وكان النوم على الأرض، ولا يوجد نبيذ للشرب، وكانت الرواتب عبارة عن طعام وزاد، والنقود كانت قليلة أو منعدمة. فلما توقف نهم المصلحة، توقف عناء العمل، فأصبحوا فقراء، مساكين، جائعين، غير صبورين، فمرضوا، وماتوا، أو قتلوهم أثناء الهرب. أما عن القادة، فكان بعضهم قد تعب وأجهد من إصدار الأوامر، ومن التوبيخ، ومن المعاقبة، ومن المعاناة من الجنود، فقلدوا العامة فى أفعالهم، وكان نفس الوضع مسيطرًا فى المعسكرات التى كانوا يجتمعون فيها. ولكن كان هناك أيضًا بعض الرجال من بين الذين أتوا من المجموعات التى أرسلتها المدن، كان شعورهم بالخجل والنبل أو الحياء يقف حائلاً أمام الآخرين، وأيضًا الناس التى أرسلها السادة، وهى منتقاة، ومتساوية، ومنظمة، وأتت على وجه الخصوص للخدمة، بدافع من الفضيلة والرغبة فى إثبات الذات وتأكيد شخصيتها وهى متحمسة، ومطيعة، وحاضرة أمام أى خطر. وكشخصيات كان منهم الكثير من القادة أو الجنود، فى النهاية هم صناع وأصحاب النصر. فقد تعاهد جنود وشخصيات غرناطة على أن يكونوا أهلاً للمدح والإطراء. هذا هو رأيى الحقيقى، ولن يبدو فلسفة بلا فائدة بالنسبة للمستقبل، بل هو خلاصة التجربة التى تعرضنا فيها للأذى والخسارة.

أرسل الدوق رسالة يخبر فيها فرانثيسكو دى مولينا بما حدث، ويأمره، بأنه فى حالة عدم استطاعته التوقف بأن يهجر الميدان وأن ينسحب عبر طريق موتريل

Motril، لأن طريق لانخارون Lanjaron قد احتله الأعداء، ولن يستطيع مساعدته. ولكنهم لم يعالجوا الموقف بالعودة إلى أورخيبا، لأنهم فقدوا فيها أثناء المناوشة التى تعرضوا لها بعض الناس وأصيب الكثيرون بجروح؛ لأنهم ظنوا أنه كان يكفى وجود فرانثيسكو دى مولينا عاجزًا ومعه القليل من الناس، وهم يواجهون قوات الدوق، ويوقفون الضرر الذى يمكن أن يفعله فى قرى الوادى، التى كانوا يعتبرونها قراهم. فرانثيسكو دى مولينا، بأمر الدوق، والذى يتفق مع الأمر الذى أصدر إليه السيد خوان، عند تيقنه من أنهم إذا عاد الأعداء إليه فإنه سيضيع بغير ماء وغير طعام وغير زاد، دفن بعض القطع التى لم يستطع حملها، وأخذ المرضى والأحمال فى الوسط، وأخذ طريق موتريل، الذى كان خاليًا من الأعداء، حيث وصل بكل الناس التى خرجت معه، وبخسائر قليلة فى الحصن، معطيًا دليلاً معاكسًا تمامًا لما حدث فى الحصار والانسحاب، حيث إن وقاحة الجنود كانت معلومة، فبسبب قلة التموين من الطعام هجر المكان الذى كلفهم الكثير من الوقت والكثير من الناس والكثير من الجهد. فكان المكان الأول والوحيد الذى حاصره الأعداء، فهدموا الخنادق، وحرقوا الأرض ودمروها وأخذوا قطعتين، مع أنها كانت مثبتة بمسامير. تم أسروا اثنين من المسلمين يحملان خطابات كتبها القادة إلى سكان لاس البونيويلاس والوادى، وإلى مناطق أخرى، يؤكدون فيها قدوم الدوق لنجدة أورخيبا، ويحمسون الناس على أن يستمروا فى مؤخرة الجيش لأنهم سيظهرون بالأفراد الذين معهم فى جبهة القتال إما لعرقلة النجدة أو لمحاربتهم وهم أكثر استعدادًا. ولم يتعطلوا هم فى الوقت الذى توقف هو فيه فى الساقية Acequia لأنهم نزلوا عن طريق غويخار والبونتال Puntal إلى الغوطة، فأخذوا معهم ماشية وأحرقوا مايرينا (Mairena) على مسافة نصف فرسخ من غرناطة، وانسحبوا بلا خسارة ومعهم الغنيمة، إما من أجل المتعة، أو لأن الحرب كانت تبدو متكافئة. انتظر فى الساقية لكى يفهم خطة الأعداء ولكى يشغلهم حتى لا يعرقلوا انسحاب فرانثيسكو دى مولينا، وبسبب أنه لم يكن مستعدًا، بالإضافة إلى نقص الطعام والزاد وغضب الناس: بسبب هذا وبسبب العطلة، وبسبب حلول شهر

نوفمبر وحلول موسم الزراعة، بدأ المعسكر يتفكك. ولكن السيد خوان استدعاه، فخرج عبر لاس البونيويلاس مع عدد قليل من الناس، وكان هؤلاء الناس خائفين بسبب ما حدث (حاول الأتراك كحامية أن يمكثوا فى ذلك المكان)، وكانوا يسيرون نهارًا، وكان الأعداء عند الساحل، فوصل مبكرًا دون أن يقترب أى منهما من الآخر، مما جعله يلوم المرشدين على ذلك، وأحرق هو أحد الأحياء، وبعدما أرسل السيد لويس دى كوردوبا لحرق ريستابال (Restaval)، وميليخيكس (Melejix)، وكونتشا (Concha)، وأماكن أخرى من الوادى كان السيد أنطونيو دى لونا قد تركها بالكامل، وترك بدرو دى ميندوثا مع ستمائة رجل يبيتون فى حى آخر، عاد إلى غرناطة، حيث وجد السيد خوان مشغولاً بإعادة تشكيل المشاة والإمداد بالزاد والطعام وأشياء أخرى بواسطة ومهارة فرانثيسكو غوتيريث دى كويار (Francisco Gutiérrez de Cuéllar)، وهو من المجلس وقد أرسله الملك على وجه الخصوص لتولى الشئون المالية، وهو سيد عاقل وله خبرة فى إدارة الأموال، وهو صالح لكل شىء.

وقد وصلت الفوضى إلى مدى بعيد، حتى أصبح من الضرورى لعلاجها تقديم برهان لم ير ولم يقرأ عنه فى الأزمنة الماضية فى الحرب: إيقاف اثنين وثلاثين قائدًا من واحد وأربعين كانوا موجودين، باسم الإصلاح؛ ولكن الفوضى لم يتم علاجها بهذه الطريقة، حيث احتفظت الفرق بضباطها أنفسهم، الذين يتسببون فى الأذى عادةً ؛ لأنه عندما يعينون قادة بلا سمعة وبلا دعم من الناس ودون نقود، فإن القادة يعهدون بألويتهم إلى الضباط الملازمين، والضباط الذين يساعدوهم على تكوين الفرق، مغدقين المال على الجنود، ولا يمكن استعادته منهم بأخذه من رواتب الجنود، لأنهم سيفككون الفرق، وسيسعون إلى إعادة تشكيلها ولكن بخدعة فى العدد، ولكن القادة والضباط يخدعون كلهم تقريبًا فى الرواتب؛ مع أن البعض يضعها فى تقدير بعض الجنود وتسليتهم بدفع بعض المميزات أو إعطائهم مواد غذائية، وهؤلاء يمكن التسامح معهم وآخرون مفسدون وينظر إليهم على اعتبار

أنهم خائنون لأنهم يخدعون سيدهم في شيء يجعله يفقد الشرف، والوضع والحياة، لأنه يثق بهم، وهم الذين يعملون من أجل أنفسهم للحصول على المغانم من الفرق، حيث يكون معهم أقل عدد من الجنود، أو يسرقون الضيوف، وقد تم هذا الإصلاح فيما يتعلق بالوكلاء، والأحزاب، وتوزيع الزاد والطعام، والسلاح والتموين والمؤن.

في الوقت الذي رحل فيه دوق سيسا لنجدة أورخيبا، وكلّف السيد خوان بإصلاح الفوضى، ثارت منطقة غاليرا (Galera)، على بعد فرسخ من غويسكار (Güéscar)، الواقعة في أرض باثا، وهو مكان حصين يمكن منه إثارة القلق وإيقاع الأذى بالإقليم عند الطريق من كارتخينا إلى مملكة غرناطة، وليس بعيدًا عن طريق فالنسيا.

ولكن أهالي غويسكار، أدركوا الانقلاب، فذهبوا إلى المكان بألف ومائتي رجل وبعض الفرسان، وظلوا هناك حتى اليوم الثالث، ولم يفعلوا شيئًا إلا إنقاذ أربعين مسيحيًا قديمًا كانوا يحتمون بالكنيسة، ثم عادوا. ودخل في غاليرا بأمر من ابن عبو مائة جندي من الأتراك والبربر المسلحين بالبنادق مع المالح (Maleh)، وهو زعيم الحزب، وكان قائدهم كارباخال، وهو تركي، فقفز خارجًا للهجوم على مؤخرة الجيش، حتى وضعهم في حالة فوضى وانتزع منهم الغنائم من الماشية وقتل عددًا قليلاً من الرجال، مما أثار غضب أهالي غويسكار، ولذلك قاموا بقتل بعض الموريسكيين في المدينة وفي بيت الحاكم، حيث كانوا يحتمون به، وأحرقوا جزءًا من البيت، ونهبوا بيوتًا أخرى في غويسكار، وهي مدينة تقع على حدود مملكة مرسيّة وغرناطة، التي كانت إرثًا للملك الكاثوليكي السيد فيرناندو، ثم أُعطيت لإرضاء السيد فادريكي دي توليدو (Fadrique de Toledo)، دوق ألبا، نظير خدماته. هو بلد غني، وشعبه من قساة القلوب وفي بعض الأحيان يكون من الصعب قيادته، ويغضب إذا خضع لأحد إلا لملكه، وهو بهذه الحالة التي هو عليها من الثورة والاضطراب، سعى لاستبداله بملك غيره من البلاد، لكن الوضع يزداد اضطرابًا في بعض الأحيان.

بعد أيام قليلة ثارت أورثى (Orce)، وهى على بعد فرسخ من غاليرا، والتى كان القدماء يطلقون عليها أُورثى بضم أولها. ولما كان أهالى غويسكار يستعدون للذهاب لإخضاعها أو لتحطيمها، فإن المسيحيين الجدد الذين ظلوا فى المكان، غضبوا فأدخلوا المالح ومعه ثلاثمائة رجل فى المساء – دون أن يشعروا بهم – ووضعوهم فى منازلهم، ووضع هو فى المغاسل التى حولها حوالى ألفين فى كمائن، منهم نحو ثلاثمائة تركى وبربرى؛ لكن سكان المدينة الذين علموا بذلك أداروا الأسلحة ضدهم وتصارعوا وطردوهم خارج المدينة بعدها أوقعوا بهم الضرر والخسارة وهاجموا بهذا الاندفاع نفسه والحماس الكمين وحطّموه وقتلوا ستمائة رجل. ولو لم يقم الأتراك والبربر بالمقاومة وإعادة تهيئة الناس وسحب جزء منهم بشىء من النظام لكان الانتصار كاملاً.

وقد قام ابن عبو بتحريض الأماكن الواقعة على نهر المنصورة، وبورتشينا (Purchena) (كان القدماء يطلقون عليها قديمًا إيوبولا الكبيرة، على عكس (ايوبولا الصغيرة الواقعة فى ضفة نهر غوادالكبير)، وجبال فيلا بريس وقرى من أرض باثا. بقيت سيرون وتيخولا التابعتين لدوق اسكالونا: كانت تيخولا حصينة ولكن كانت تنقصها المياه. فأرسل حملة إلى سيرون ومع خروج الحراسة، اعتقل القائد (يقول البعض إن ذلك تم بناء على رغبة القائد)، استولى على الأسلحة والمؤن والطعام والزاد واثنى عشرة قطعة من البرونز. وتابعت تيخولا سيرون، وبهذه الطريقة ثار كل الموريسكيين فى المملكة، فيما عدا الذين يعيشون فى منخفض مالقة والمنطقة الجبلية التابعة لروندة.

هذه الأسباب بالإضافة إلى الاستعجال الذى كان الملك يسعى من خلاله إلى تقوية معسكر ماركيز بيليث الذى كان فى باثا، وإرساله كبار السادة والفرسان من عائلته إلى المدن فى طلب المزيد من الناس، لكى يخرجوا قبل أن يسترد الأعداء قواهم، عجلت ذهاب الماركيز إلى غايرا بالناس الذين أحضرهم من بيثا (Peza) والناس الذين تركهم السيد أنطونيو دى لونا فى باثا، والذين انضموا من غويسكار

ومن أماكن أخرى، فأصبح العدد أربعة آلاف من جنود المشاة وثلاثمائة وخمسين من الفرسان، فهجر المالح وأخوه المكان لعدم ثقتهم فى إمكانية الاحتفاظ به.

بعد يومين من وصول الماركيز، جمع كارباخال، وهو تركى، الشعب، وأقنع الأهالى بأن تنقذ الجنود والملابس والأمتعة وأن ينقذوا أنفسهم، إذ إن لديهم عُدَّة وتجهيزات بالإضافة إلى أن الجبال قريبة منهم، فقالوا له إنهم يريدون الموت داخل منازلهم، فأجابهم بأن الوقت لم يحن بعد، وليست مهمتهم أن يموتوا، بل عليهم أن ينقذوا أنفسهم وأن يتركوا هذا لآخرين سيأتون لاحقًا لكى يموتوا من أجلهم. ولكنه عندما رأى أنهم مصرون على العناد خرج ومعه مائة وثلاثون من الأتراك والبربر فهاجم قواتنا فى الليل، وبهذا تمكن من الخروج بقواته وأمواله دون أن يصيبه أذى؛ وجاء بأمر من ابن عبو ليستقر فى غويخار مع القادة الآخرين.

دخل الأعداء فيها (كما قلنا)، وأقاموا حدًا، يقطعه خندق من الحجر الصلب، وكان الطريق المسمى لاسيّا la Silla يمر من الجبل إلى الجبل الآخر، وظلوا بالقرب من غرناطة، واستولوا على بعض الغنائم، وطلبوا من بعض البلاد أن تقوم بانقلاب، وكانوا يقدمون الهدايا للبلاد التى تثور. فى بعض الأحيان يكون بها أربعة آلاف، وأحيانًا أقل، وعادة ستمائة رجل، طبقًا للظروف. وكان القادة هم جُعيبى (Joaibi)، وهو من أصل المكان، ويدعى باسم آخر هو بدرو دى ميندوثا (فهذا اللقب كان يحمله الكثيرون من نسل الماركيز السيد إنييغو لوبيث دى مندوثا Iňigo López de Mendoza، أول قائد عام)، فى هذه البلاد، وحسين، وكارباخال، التركى، وتشوكون (أى سيّاف أو جزار فى لغتهم)، وماكوكس، وموخاخار، وغيرهم. زاد اضطراب المدينة، وظهرت وكأنها قليلة الحماية، ولكن فى وقت وجيز تم تقوية الدفاعات. كان جانب المدينة الذى يسمّونه رياليخو Realejo مكشوفًا، وهو الحد المتاخم للأعداء، وحى أنتيكيرويلا (Antequeruela) الذى ظل معرّضًا للخطر لشهور كثيرة، وكانت الإنذارات متعددة وكثيرة، وكانت تنتقل من شخص لشخص وبسريّة، فكانوا فى كل ليلة يظهرون أن الأعداء يأتون للهجوم

على المدينة، وفى أغلب الأحيان من هذا الجانب. وفى النهاية تم تصغير البوابة التى يسمونها بوابة الطواحين، وتم تقوية حى أنتيكيرويلا، ووضعوا حراسة على حى الشهداء، وبينيّوس (Pinillos) وثينيس، وأرسلوا السيد خيرونيمو دى باديّا ليكون فى مدينة سانتافى مع فرقة من الفرسان لتأمين سهل لوخا (Loja)، بالإضافة إلى حراسة الغوطة. ووضع بعض الفرسان فى إثنايوث (Iznalloz)، ولكن كل ذلك لم يكن عائقًا أمام تحول منطقة بوابات غرناطة إلى غنيمة بشكل مستمر.

عندما وصلت الأمور إلى هذا الحدّ، بدأ ماركيز بيليث فى ضرب غاليرا بستة مدافع من البرونز ومدفعين من الحديد، ولكن النتائج كانت غير مثمرة وغير مرضية. كان المسلمون يقفزون للخارج بشكل متكرر، محدثين أضرارًا وخسارة بين صفوفنا ودون أن يلحق بهم أذى.

استاء السيد خوان من الملك كإنسان يشعر بالإهانة لأن الملك أمر أن يأتى إلى غرناطة فى زمن كان الجميع فيه مشغولاً لكى يكون هو مسترخيًا مع أن الراحة أقل ما يناسبه، فأظهر له الرغبة فى الاستعانة به، وهو ابن وأخ لأكبر الأمراء الذين حققوا الكثير من الانتصارات لبلادهم، وهو شاب غير معروف لدى الناس، ولكن المكان الذى يتعاملون فيه مع الحرب فى المنصورة، وجرأة الأعداء، ومنطقة البشرات التى تخلو من الحامية، والساحل المكشوف وبلا حماية، والمسلمين الموجودين فى غويخار، هو ما يستوجب تناول الموضوع بجدية أكبر وحماس أكثر.

رأى الملك أن يضغط على الأعداء بمهاجمتهم فى الوقت نفسه ومن خلال جبهتين، إحداهما عبر نهر المنصورة بقيادة السيد خوان، وبمساعدة وحضور ماركيز بيليث، والقائد الأعلى لمنطقة قشتالة ولويس كيخادا، والأخرى عبر البشرات بقيادة دوق سيسا، ولكى لا تكون هناك مشكلة تتمثل فى وجود الأعداء فى الخلف، أمره بأن يذهب أولاً إلى غويسكار قبل رحيله. وكان مبرر الخروج (حتى

لا يعتبر ماركيز بيليث ذلك إهانة له)، بأن يأمر بما يجب فعله فى غواديكس وباثا، وكذلك كان الوضع بالنسبة لماركيز مونديخار، الذى كان يأمر بما كان يراه فى غرناطة.

وكانت كل من غويخار وغاليرا تحت سيطرة الأعداء، ولذا فإن أية مغامرة ستكون صعبة، والخطر مؤكدًا: فى غويخار، بسبب ترك الأعداء خلف الظهر، وفى غاليرا، لأنه من الممكن اندلاع التمرد فى مملكة فالنسيا، وبالتأخير سيحتفظ المسلمون بحصونهم فى بورتشينا، وسيرون، وتيخولا، وخيرغال، وكانتوريا (Cantoria)، وكاستيل دى فيّرو (Castil de Ferro)، وغيرها. رحل القائد الأعلى من كارتاخينا، بأمر من السيد خوان ومعه ثمانى قطع، وثلاثمائة عربة محمّلة بالزاد والطعام والمؤن والسلاح. وقد أظهر الماركيز شعورًا بالأسف، وإن كان يفهم سبب مجيء السيد خوان، ولذا لم يظهر مع القائد الأعلى، الذى أمده بالتموين، والطعام والزاد والمؤن، ومضى لينتظر السيد خوان فى باثا.

يقولون، وباعتراف من القائد الأعلى، إن القائد كتب للملك كيف أن الماركيز لا يصلح لتولى حملة مملكة غرناطة، وإن الخطابات وصلت إلى يد الماركيز قبل أن تصل إلى يد الملك، ولكن الماركيز قرأها وأخفى معرفته بها، إما رغبة منه فى اختيار الوقت الذى يفصح فيه عن معرفته بذلك؛ وإما لأنه كان متعبًا من جعلهم يفهمون أن الحظ الأسوأ سيكون لمَنْ لم يستفد من خبراته.

وكان ذلك فى اليوم الخامس عشر من ديسمبر (١٥٦٩)، ولم تظهر بادرة أمل فى إحداث أى أثر ضد غاليرا. ولكن الملك استدعى على وجه السرعة سادة أندلوثيا ومدن إسبانيا، وطلب منهم جنودًا آخرين من أجل حملة السيد خوان، وقد أرسل الملك شخصيات مؤهلة من بيته للسعى لذلك.

وصل الأمر بأن يقوم السيد خوان بحملة عسكرية فى غويخار، وأن يرحل أولاً إلى غواديكس وباثا، ففى كثير من الأحيان كان قد أرسل شخصيات لديها

خبرة لاستكشاف المكان، وما كانوا يشيرون إليه هو، أنه يوجد بالداخل سبعة آلاف من الجنود المسلحين بالبنادق والقواسين مصرين على المجيء ذات ليلة إلى غرناطة (وهو عدد إذا توافر من النساء والرجال، ولم ينقصهم الذكاء والخبرة والقادة لكان كافيًا لإخضاع المدينة)، وكانوا محصنين، وقد مهدوا الطريق التى تمر عبر الجبال حتى البشرات لاستقبال الناس. إن الخوف له مفعول أكثر من مفعول الحقيقة، حتى على بعض الشخصيات ممن يتصفون برباطة الجأش. ولم يكن الذين يعطون الإنذارات مصدقين تمامًا، ولكن تم تشديد الحراسة بسرعة وحماس أكثر، وتأجل خروج السيد خوان إلى أن وصل عدد أكبر من الجنود والسادة. ولكى يقوم بالحملة العسكرية بتأمين أكثر أرسل كلاً من السيد غارثّيا مانريكى، وتيّو دى أغيلار ليستكشفا المكان فى الليل وحتى صباح اليوم التالى. المعلومات التى حصلوا عليها تُبيّن أنه كان يوجد بالداخل أكثر من أربعة آلاف من المشاة، ولم يروا نارًا على الخنادق ولا فى أى موقع للحراسة. ولم يكن يوجد دخان أيضًا لكى يشعلوا الحبال، فى قلب الشتاء وعلى الأرض الباردة جدًا وعلى حافة الجليد، لا يتناوبون الحراسة، ولا يتنقل الناس فى النهار من بيوتهم إلى الخندق أو من الخندق للبيوت، ولا يذهبون بالسلاح إلى الخندق، ونسبوا كل ذلك إلى توخى الحذر، ولكن، فى رأى بعض الشخصيات المحنكة، هذه ملامح مكان ضعيف الحماية. لاحظوا أنه خلال زمن طويل، وفى مكان قريب جدًا ومفتوح وصغير، ولا يمكن التأكد من عدد الناس، مع استطاعة العد بالرؤوس أو بناء على عدد الوجبات، والكل يؤكد أن العدد يزيد على ستة آلاف رجل، ويؤكد المستكشفون أن العدد يزيد على أربعة آلاف، وعند الاقتراب أكثر تبدو علامات تدل على وجود عدد قليل من الناس أو على عدم وجود أحد. بدا أنه من المناسب أن تتم الاستعانة بالقادة الذين كانوا موقوفين، لأن قيادة الناس ستكون أفضل بواسطتهم، وأغلبهم كانوا أناسا ذوى بخبرة. طلبوا منهم الانضمام للفرق، وجميعهم أحب الاشتراك فى العمل، وإتاحة الفرصة للاستفادة منهم بصفتهم الشخصية، دون العودة إلى المناصب التى طردوا منها ذات مرة.

كانت هناك عادة فى الحمراء هى خروج القيادات العامة والمسئولين عن حماية القلاع عندما تكون هناك ضرورة لذلك، تاركين لحماية القصر شخصيات من الأصل والكفاءة نفسها. أظهر كونت تنديًا بعض الألقاب التى تخصّه، وتخص والده، وجده وجد جده، وتخص بعض القيادات العامة فى المدينة، وسعى للخروج بالناس من المدينة. ولكن خوان رودريغيث دى بيّا فورتى Juan Rodríguez de Villafuerte، الذى كان مهابًا حينئذٍ لأنه كان عدوًا واضحًا بالنسبة له، سعى لأن يقوم هو بهذه المهمة لكونه مراجعًا، واستشهد بمثال من مالقة حيث إن المراجع كان مسئولا عن الناس، ومع أن العمدة كان لقبه قائد المدينة، ولكن، إما بسبب صدور أمر صريح أو بسبب الميل للآخرين، أو بسبب كراهية خاصة لعائلة أو لشخص الكونت، فإن وظيفة خوان رودريغيث كانت شيئًا آخر غير السلاح، فقام السيد خوان وقدم نوعًا من الدعاوى ضد ادعاء الكونت، ورفع هذا الأمر لمجلس الملك، الذى انتزع منه صلاحياته وأعطاها لخوان رودريغيث، حيث تولى بذلك مسئولية سكان المدينة والكثيرين من غيرهم. ورحل فى ٢٣ من ديسمبر ومعه تسعة آلاف من جنود المشاة، وستمائة من الجياد، وثمانى قطع حربية.

كان هناك طريقان من غرناطة إلى غويخار، أحدهما على اليسار وبجوار المرتفعات، فسلك هو هذا الطريق ومعه خمسة آلاف من جنود المشاة وأربعمائة من الفرسان: تولى قيادة الطليعة لويس كيخادا على رأس ألفين، وكلّف السيد غارثيا مانريكى بقيادة سلاح الفرسان، وعهد بشؤون مؤخرة الجيش والمدفعية والمؤن والطعام، لكل من بدرو لوبيث دى ميسا (Pedro López de Mesa) والسيد فرانثيسكو دى سوليس (Francisco de Solis)، وكلاهما من السادة العقلاء، ولكن بلا خبرة فى شؤون الحرب، وهذا ما سمح بالتفكير فى أن الحملة معرّضة للخطر وظن السيد خوان أن المكان بلا حماية، فكلف شخصيات مسالمة بحماية الأماكن المعرضة للخطر والتى يستلزم حمايتها وجود خبرة، وأعطى للدوق أقصر طريق للنهر ومعه أربعة آلاف من جنود المشاة وثلاثمائة من الجياد التى كانت

تحمل سكان المدينة. بات تلك الليلة فى بياس (Veas) التى تقع على مسافة فرسخين من غرناطة، وعدة فراسخ من غويخار، ومعهم أمر بأن يصلوا جميعًا، ومن أماكن مختلفة، فى وقت واحد، وأن يقاتلوا الأعداء، لكى يهرب الأعداء من مكان فتهاجم القوات مكانًا آخر، بحيث يترك لهم طريق الجبال مفتوحًا.

السيد دييغو دى كيسادا، الذى كان معهم على أنه خبير بطبيعة الأرض، كان مرشدًا فى معسكر السيد خوان، مع أنه كان يوجد فى الفرقة أفراد تربوا فى تلك البلاد وعلى معرفة وخبرة كبيرة بها، طبقًا لما أظهرته الأحداث. وكان يقوم على حماية المكان مائة وعشرون من الأتراك والبربر ومعهم كارباخال، الذى كان فى غاليرا، وأربعمائة وثلاثون من البلد، وجميعهم من حملة البنادق ، وكان الزعيم هو جُعيبى، وكان القادة هم تشولون (Cholón)، وماكوكس وريينداتى، وكان البارتال يعمل كرقيب أول. جاءوا، كما فُهِمَ، من أجل الحصول على الغنائم فقط، بتأمين الجبل، وكانوا يغيرون أماكنهم على مدى شهور، الكثيرات من النساء، والكثير من الشباب، والشيوخ الذين يعيشون فى المناطق المجاورة، والذين لم يرغبوا فى البعد عن بيوتهم، كانوا مزودين بالخبز واللحوم بكميات وفيرة.

قبل عدة أيام علموا بقدوم السيد خوان، وكان لديهم من الوقت ما يكفى لإنقاذ أفضل ما لديهم من الأمتعة والملابس، وإنقاذ أنفسهم وذويهم وماشيتهم. فى اليوم السابق على ذهاب السيد غارثيا، وتيو دى أغيلار (Tello de Aguilar) لاستطلاع المكان، رحل الأتراك إلى البشرات بناءً على تحذير الناس، أما عن المسلمين، فإنه فى اليوم السابق على وصول السيد خوان، خرج أربعمائة رجل مع جُعيبى لسحب وإزالة الناس قليلة الفائدة والملابس.

رحل فى الوقت نفسه من غرناطة الدوق والسيد خوان دى بياس عند طلوع النهار، كان يوجد عدد قليل من رجال المعسكر الذين يعرفون السير جيدًا فى الليل على الأرض التى شاهدوها فى النهار، اكتست الأرض بلون واحد، مع أنها وعرة، وتسبب هذا إما فى خداع المرشد تقريبًا عند الخروج من المكان، أو تسبب فى أن

يضيّع السيد خوان وقتًا أطول. فتوقف تمامًا، وانتظر الصباح، وهو غير متأكد وغير واثق من الطريق التى سلكها الدوق، فقامت نقاط مراقبه المسلمين بالتنبيه والتحذير للأهل والرفاق والأعوان باستخدام النار. لكن الدوق سلك الطريق اليمنى، وأرسل قبله السيد خوان دى ميندوثا، الذى وجد الخندق بدون حماية ولم يكن به إلا عشرة أو اثنى عشرة من العجائز الذين اختاروا من ثقلهم أن يبقوا ويموتوا فيه، وقد هوجم هؤلاء وذبحوا عندما دخلت طلائع جنود السيد خوان دى ميندوثا ونهبوا المكان، ورأوا صعود النساء والأطفال والأمتعة المحملة عبر الجبال، وكان يحمى ظهورهم ستون من الجنود المسلحين بالبنادق والأقواس، الذين قاموا بالهجوم على قواتنا فى محاولة للدفاع عن ملابسهم، وأمتعتهم، وأنقذوا أنفسهم ونجوا من المكان، مع أن قواتنا تابعتهم لمسافة قصيرة وبدقة، ولكن الذى أمكن فعله، مع إيقاع الضرر بين صفوفنا أكثر منهم هو: قتل ما بين النساء والرجال ستون، وتم أسر الكثيرين، وفر الباقون عبر الجبال وتوقفوا فى بالور وبوكيرا (Poqueira) وأماكن أخرى من البشرات، وكان يوجد الكثير من القمح والأبقار، وقتل من قواتنا أربعون جنديًا، لأن المسلمين فى الأماكن الوعرة من الأرض ومن بين الأحراش، كانوا يخفون وجوههم بأغطية الرأس التى تلبسها النساء، وكانوا فى انتظار جنودنا، الذين ظنوا أنهم من النساء، فوصلوا لأسرهم فأطلق المسلمون عليهم النيران وقتلوا القائد كيخادا، عند مواصلة المطاردة، وهو فاقد الوعى بسبب إصابة فى رأسه بحجر قذفته به امرأة.

كان السيد خوان، إما يبتعد عن المكان مسافة فرسخين، وإما يقترب لأقل من ربع فرسخ من طريق يمكن أن يحدث فيه كل شىء، وجد نفسه قد أمضى نصف يوم عند غويخار، داخل خندق الأعداء، فى الربوة التى يطلقون عليها سيّا (Silla)؛ فقاد الجنود النظاميين والذين يجدون أنفسهم مثلنا فى خدمة الإمبراطور، فكان من الظاهر أنهم يرون فى الابن صورةً من شجاعة واستعداد الأب، ورغبةً فى أن يجد نفسه مهيمنًا على كل شىء، وعلى وجه الخصوص مع الأعداء. استطلع من أعلى

مكان الناس الموجودة مع الدوق أمام المكان، وعلى غفلة أرسل لويس كيخادا مع السيد غوميس دى قزمان (Gómez de Guzmán) من يد ليد ليطلب مدفعية، لأنه كان يظن أنهم أعداء، أو حاول إفهام الآخرين أنه كان يظن ذلك. وتواصل هذا الصوت بسرعة كبيرة جدًا، وسار ومعه قطعتان، حتى وصل السيد لويس دى كوردوبا، يحمل رسالة من الدوق، يقول فيها إن الأعداء أصبحوا محطمين وأن قواتنا أصبحت داخل المكان. ظللنا مفزوعين من أنه كيف لم يعرف لويس كيخادا ألويتنا وأعلامنا ونظام السريّة من مكان قريب جدًا، وهو رجل ذو خبرة فى الحرب، وله رؤية جيدة، وكيف أن الدوق يرسل قائلاً إن الأعداء أصبحوا محطمين، ولم يكن يوجد هناك أعداء فأظهر السيد خوان سعادته بالحدث السعيد، واشتكى من الضرر لأنهم قادوه عبر طرق ملتوية، ولم يستطع رؤية ومواجهة الأعداء. لكن السيد دييغو دى كيسادا (Diego de Quesada) اعتذر، بأن المجلس أمر بأن يسير من الجانب المأمون، وقال له لويس كيخادا من الجانب الذى لا يتعرض فيه السيد خوان للخطر، لأنه لا يعرف كيف ينجز مهمته حرفيًا أكثر من أن يسير دائمًا محميًا وعلى مسافة فرسخين من الأعداء.

كان للاستيلاء على غويخار دوى كبير فى الأماكن البعيدة أكثر من الأماكن القريبة، وكان عدد منْ قدموا التهانى أكثر من الأعداء. وعاد فى الليلة نفسها كل من السيد خوان ودوق سيسا إلى غرناطة، وأمر أن يظل السيد خوان دى ميندوثا فى غويخار ومعه حراسة مشددة لعدة أيام، كما عهد بعد ذلك للسيد خوان دى ألاركون بتولى مسؤولية الألوية، وبعد أيام قليلة كلّف السيد فرانثيسكو دى ميندوثا، تولى مسئولية أحد الحصون بعد ترميمه، ولكن مع عدد قليل من الناس.

يقولون إنه عندما هجر المسلمون المكان وذهب السيد خوان ليستكشفه، لو تم إعداد الحصن (وكان يمكن ذلك فى ليلة واحدة)، ووضعت بداخله حراسة صغيرة، كما فعلوا فى تابلاتى لتمكّنوا من إنقاذ ما يزيد على ثلاثة آلاف شخص، لقوا حتفهم

على أيدى الأعداء، ولأمكن تجنب ضياع الكثير من الماشية، وفقدان السمعة والوقت، ووقوع الاضطرابات والقلق ليلاً ونهارًا؛ فقد تم كل ذلك على أيدى عدد قليل من الناس.

ظهر منذ ذلك اليوم أن السيد خوان وضحت أمامه الرؤية فبدأ يفكر فى الانتصار السهل جدًا وأخذ يبحث عن أسباب الحصول عليه. فأخذ يعد ويجهز ويقوم بما يمكن من مناوشات، لها فائدة كبيرة ونهاية سريعة، وذاعت شهرة ذهابه إلى غاليرا فى كل أنحاء إسبانيا، وتحركت طبقة النبلاء بها بكل حماس، فكان من الضرورى أن يوضح الملك أن رحيل بعض الفرسان للاشتراك فى تلك المغامرة دون إذن لم يكن بإرادته. فأرسلت المدن أفرادًا جديدة، منهم من كان يمشى على الأقدام ومنهم من كان يمتطى ظهور الخيل، وزاد العدد حتى لم يكن هناك طعام ومؤن تكفى، وفى بعض المدن كان الناس من بين خمسة أرباب أسر يعولون جنديًا واحدًا. دخلوا فى الوقت الذى استمر فيه حشد المجموعات التى زادت على مائة وعشرين لواء ومعهم قادة من أهالى بلادهم الأصليين، وهم أشخاص مؤهلون، بالإضافة إلى الأفراد الذين أتوا بالمرتب الذى يدفعه الملك، وهم الذين كانوا يشكّلون الثلث، أحدثت الرغبة فى الانتقام أثرًا كبيرًا فى الأعداء. أمر السيد خوان، الذى كان آنذاك سيدًا على نفسه وعلى الجميع، أن يظل جزء من المجموعة فى معسكر ماركيز بيليث، على أن يمر الناس بغواديكس، وأن يمر عدد آخر من الأفراد بغرناطة وأن يمكثوا فى البانيويلاس، حيث كان السيد خوان دى ميندوثا هناك لجمعهم وتزويدهم بالطعام والزاد.

وقرر أن يظل دوق سيسا فى غرناطة، وأن يأخذ قسطًا من الراحة فى الغرفة التى كانت له فى دار المستشار، وبعد تشكيل معسكره، يرحل عن أورخيبا فى اتجاه معاكس للبشرات، فى الوقت الذى يرحل هو فيه إلى غاليرا، لتشتيت قوى الأعداء.

لكن عبد الله ابن عبو، الذى كان غاضبًا من أحداث غويخار، أراد أن يعاود الكَرة من جديد ويسترد الشهرة، فسعى لاحتلال مكان مهم على الساحل، فاختار ثلاثة آلاف رجل وفى الوقت نفسه أخذوا معهم سلالم، وهاجموا المونييكار ليلاً، كما هاجموا سالوبرينيا، التى كانوا يسمونها سيلامبينا، ولكن قائد المونيكار قاوم بعزة نفس لأن القتال كان ليلاً، وألحق بعض الخسائر فى صفوف الأعداء الذين تركوا السلالم ولاذوا بالفرار إلى الجبال، حيث استمر هروبهم بطول الإقليم، والشيء نفسه فعله الذين اتجهوا إلى سالوبرينيا، حيث ردعهم السيد دييغو راميريث، وهو القائد المسؤول عن حمايتها بصعوبة بسبب أنه كان معه مع عدد قليل من الناس، فانسحبوا، وانضموا إلى الفرقة. وعندما رأى ابن عبو أن نتائج المغامرات التى قامت بها قواته كانت خاطئة، وأن قوى إسبانيا اجتمعت ضده، أرسل مرة أخرى القائد حسينى إلى الجزائر يطلب أفرادًا كثيرة للمساعدة والدعم، أو سفنًا لهجر المكان وتركه، وأرسل معه رجلاً مسلمًا من خاصته إلى القسطنطينية. يقولون إنه لدى وصولهما إلى الجزائر وجدا رسالة مكتوبة من سلطان الأتراك يطلب فيها تقديم المساعدة لهم.

فى الوقت نفسه كان الماركيز يضرب غاليرا ولكن التأثير كان ضعيفًا، فدافع الناس عن أنفسهم، واستطاعوا أن يعالجوا الضرر الذى لحق بهم بكل سهولة، وكانوا يقفزون فى بعض الأحيان للخارج. التحموا مع العدو فى اشتباك عنيف، فهجموا على قواتنا بطريقة شرسة، وقتلوا القائد ليون وعشرين من الجنود، وهزموا المعسكر تقريبًا وانسحبوا دون أن يتعرضوا لأذى، وعلّقوا على السور رأس القائد ورؤوسًا أخرى، وذات يوم رحل الماركيز إلى غويسكار من أجل أن يسترد قواه بضم عدد كبير من الأفراد، وعند عودته أحضر معه عددًا قليلاً من الجنود. لكن السيد خوان رحل من غرناطة ومعه ثلاثة آلاف من جنود المشاة وأربعمائة من الفرسان لكى ينضمّ إلى الماركيز، فأتى إلى غواديكس، التى كان يطلق عليها

القدماء اسم أكثى (Acci)، وهو بلد كبير فى إسبانيا ومركز ولاية كما هو الآن. وكـــان السكان القاطـــنون فيها يعبدون الشمس فى شكل حجر مســتدير وأسود، وما زلنا حتى يومنا هذا نجد فى الأرض بعضًا منها مع وجود أشعة حول القرص. وقد قامت طبقة النبلاء وسكان المدينة بصيانة المكان والمحافظة عليه، حيث يتقابلون بشكل دائم ومتكرر مع المسلمين ويرحلون عنهم بعد أن يحصلوا منهم على بعض المنافع.

ومن غواديكس ذهب على مهل إلى باثا، التى كان القدماء يسمونها مثل المسلمين باستا، وهى رأس كبير لأندلوثيا، فعن اسم المدينة كانوا يقولون باستيتانيا (Bastetania)، التى كان بها الكثير من الولايات، ومن هناك إلى غويسكار، حيث كان الماركيز ينتظر مع قواته، فانضم هؤلاء الأفراد إلى جانب أهالى المدينة والقرى فكان لهم استقبال كبير ونجدة، وأظهروا سعادة كبيرة بمجىء السيد خوان. ولم يخرج لاستقباله إلا الماركيز الذى فعل ذلك غاضبًا، من باب المجاملة، فقط لأنه كان قبل ذلك ذا مهابة وكلمة مسموعة. ولكن السيد خوان استقبله بترحاب كبير وهو سعيد ولطيف، مع أنه شعر بضيقه، فحياه وعانقه بهدوء شديد، وقال له:

"أيها الماركيز الشريف، إن شهرتكم بحق تعظم من مكانتكم كثيرًا، وأن حظى السعيد قد منحنى الفرصة لمعرفتكم. تأكدوا من أن سلطتى لن تقلل من سلطتكم، إذ إننى أود أن تتسلّون معى وأن يكون رجالى كلهم فى طاعتكم، وسأفعل ذلك أنا أيضًا لكونى ابنًا لكم، أحترم قدركم وشيبكم، وأحفظ نفسى فى كل المناسبات بنصائحكم".

على هذه الكلمات أجاب الماركيز بكلمات غريبة كان يستخدمها دائمًا، ولو أنه كان معتدلاً مع عظمة الأمير، فقال:

"أنا الذى كان يتمنى أكثر معرفة أخ مثلك لمولاى الملك، وأنا الذى يكسب أكثر لكونه جنديًا لأمير عظيم جدًا، لكن إذا تصرفت طبقا لما كنت أمارسه دائمًا، فإننى أريد أن أذهب لبيتى، إذ إنه لا يناسب كبر سنى أن أكون قائدًا على فصيلة".

وقد لوحظ فى الرد جيدًا أنه كان حافلاً بالحِكم والمواعظ وكان أيضًا خطيرًا من حيث الحِدة، وهكذا كان الماركيز موجزًا. عقد السيد خوان مجلس شورى للحديث عن غاليرا، وبعد استطلاعها والتعرف عليها، قرر الذهاب إليها وحصارها.

الكتاب الرابع

بعد خروج السيد خوان من غرناطة، ذهب الدوق ليستريح فى بيت الرئيس، طبقًا للأمر الذى صدر إليه من السيد خوان. بدأ يختص بتموين الطعام والزاد فى غواديكس، وباثا وكارتاخينا، وأماكن فى أندلوثيًا وفى الإقليم، لتزويد معسكر السيد خوان، وقوات الدوق فى بلده غرناطة، ولكن ببطء وبشىء من الارتباك والفوضى، بسبب قلة الخبرة وفوضى الوكلاء وكتّاب الحسابات، فكلهم يسعون إلى تحقيق أرباح ومكاسب وامتيازات من الملك ومن الشخصيات المهمة، ومع أن فرانثيسكو غوتيريث كان سببًا فى منع الفساد، فلم يكن هو ولا غيره يكفيان لعلاج الأمر تمامًا. خرج الدوق من غرناطة فى يوم ٢١ من فبراير عام ١٥٧٠، وظل رئيس المحكمة أو المستشارية زعيما ومسئولا عن حكومة السلام والحرب، ولأن السيد غابرييل دى كوردوبا كان ينتمى للكنيسة، فقد ظل من أجل شئون الحرب ومن أجل تنفيذ ما يأمر به الرئيس. وقد قام بمهمة القائد العام مجلس مكوّن من ثلاثة قضاة ومستشار قانونى عام، وهو فرانثيسكو غوتييريث دى كويار، المراجع فى غرناطة، ومكث من أجل حماية المدينة أربعة آلاف من جنود المشاة، وتم ذلك بالسرعة نفسها والنشاط فى البيازين المهجورة، وغويخار التى كانت معقلا لنا، وتمت حماية الغوطة بالحراسة نفسها، وكذلك محطات البريد، ونقاط الحراسة والمعاقل فى ثينيس Cenes وبينيّوس Pinillos، فعندما كانت الغوطة موضع شك، كانت البيازين مملوءة بالأعداء، وكانت غويخار تحت قبضتهم؛ استمرت هذه التكلفة وهذا التخطيط حتى عودة السيد خوان، إما بسبب النسيان، أو لأسباب أخرى على سبيل الاحتراس ممن بالداخل وممن بالخارج.

كم كانت دهشة الفضوليين عندما رأوا أن السيد أنطونيو دى ليبيا وهو يواجه قوات الحلف – الذى يضم أربعين ألفًا من جنود المشاة، وتسعة آلاف من

الفرسان والمدينة المعادي– ومعه سبعة آلاف من جنود المشاة وحدهم قاموا بمهاجمتها، فقاوم الأعداء، فقامت قواته بمحاصرة الحصن، وفى النهاية أسقطوه، وطردوا الأعداء وتابعوهم، وكانوا أقوياء، ومسلّحين، ومتحدين، فكانوا بحق زهرة إيطاليا من الجنود والقادة. أتى (الدوق) إلى البادول فى اليوم نفسه الذى خرج فيه من غرناطة، حيث توقف فى الساقية عدة أيام فى انتظار الناس والزاد، فعمل استحكامًا فى الساقية وأقام المتاريس فى لاس البونيويلاس لتأمين الظهر وتأمين غرناطة فى حالة الظروف المعاكسة أو فى حالة هجوم الأعداء، وتأمين مرور مواكب الحرس التى ترحل من المدينة إلى معسكراتها؛ وإقامة حصن آخر فى لاس غواخاراس,Guájaras لتأمين تلك الأرض والجبال، حيث طردهم للمرة الثانية ماركيز مونديخار، ولإعطاء مزيد من الوقت للسيد خوان لكى يدخلوا جميعًا حوض نهر المنصورة والبشرات.

وهناك ذهب الرئيس لزيارته وليستعجله بالخروج، فسلك طريق أورخيبا ومعه ثمانية آلاف من جنود المشاة وثلاثمائة وخمسون من الجياد. ذهبوا ومعهم الكثيرون من فرسان أندلوثيا، والكثيرون من غرناطة، ذهب جزء منهم بتكليف، وذهب البعض الآخر بإرادته. وصل دون أن يقوم الأعداء بعرقلته، مع أنهم بدوا قليلين وغير منظمين عند عبورهم لانخارون وكانيارCañar .

بينما انشغل الدوق بهذا، خرج السيد خوان دى أوستريا من باثا Baza بقواته إلى غاليرا، حيث فرض حصاره وأرسل البعض من أجل استطلاع المكان، وأخذ فى اعتباره أولاً الضرر الذى من الممكن أن يلحق بهم من قلعة كانت فى مكان عال، فعمل على إحاطتها بالألغام، وعندما وضع بعض الألغام، أشعلوا فيها النار، وبانفجارها سقط جزء كبير من السور مما أسفر عن موت بعض المسلمين المحاصرين.

اندفع بعض جنودنا، المتحمسين، بعد ذلك وسط الدخان والالتباس، دون أن ينتظروا الوقت أو اتباع النظام المناسب، وتابع هؤلاء الجنود جنود آخرون كثيرون

وفى النهاية جزء كبير من الجيش، فى محاولة للهجوم على القلعة من خلال الجانب المحطم الذى هدمته الألغام، كل ذلك دون إحداث أثر بسبب وجود أحد الجبال فى الأمام.

كان الأعداء مستعدين بالسلاح ولكى ينقذوا أنفسهم ألحقوا بالمسيحيين الكثير من الضرر بوابل من الطلقات النارية والسهام، دون حاجة للتصويب، لأنهم لم يطلقوا النار على مكان فارغ، ودون أن يؤدى ذلك إلى انسحاب الجنود الصامدين، ولا إلى حذر ولا اهتمام من جانب الضباط والقادة؛ مما جعل السيد خوان دى أستورياس يحتاج إلى أن يذهب بنفسه لمعالجة الموقف، وكان الخطر على حياته كبيرًا، لأنه ذهب بحرص بالغ وشجاعة تامة لإقناع الجنود بالانسحاب، دون أن ينسى الأسلحة، وقد جُرِحَ فى صدر الدرع بطلقة نارية، ومع أنها لم تلحق به شخصيًا أى أذى، فإن المعسكر كله انزعج وخصوصًا مؤدبه لويس كيخادا، الذى لم يتخل أبدًا عن حمايته، والذى استطاع إقناعه بالانسحاب، محذرًا من الأضرار التى قد تلحق بجيشٍ عندما يكون قائده فى خطر. ولكنه أمر القائد السيد بدرو دى ريّوس إى سوتومايور أن يقوم بحذر بسحب الجنود لكى لا يلحق بهم مزيد من الضرر، ودخل هذا بين قواتنا وهو يحمل سيفًا ودرعًا، وفى الوقت الذى عُلِمَ فيه تحسُّن وضع قواتنا، قال: "إلى الخارج، أيها الجنود، لتنسحبوا إلى الخارج، فإن أميرنا يأمر بهذا".

وقد توقف الصياح والضجة والأصوات إلى حدٍ ما، بحيث إنه كان يُسمع بوضوح صوت جمع الصناديق، وكل ذلك مجتمعًا كان إشارة إلى انتهاء هذا الهجوم المتهور جدًا. وهنا اتضح أن السيد غاسبار دى سامانو كينيونيس فارس عظيم، بسبب مجهوده الكبير وشجاعته النادرة فقد كان من أوائل الذين صعدوا إلى أعلى مكان فى السور ولأنه كان يسند جسده بيده لكى يقفز إلى الداخل، قطع أحد الأتراك الذى كان على مقربة منه أصابعه، لكن ذلك لم يقلل من إقدامه، فقد حاول

بيده الأخرى وأصرّ على تنفيذ محاولته والقفز داخل السور، لكن الأعداء لم يسمحوا له بذلك، فقد قاوموه بطريقة شديدة لدرجة أنهم أسقطوه أسفل السور.

لم تكن هذه الخسارة سببًا فى إثناء قواتنا عن مواصلة المحاولة للمرة الثانية فى يوم آخر، وهكذا طلبوا ذلك من السيد خوان، الذى رأى أنه من غير المناسب أن يعرّض قواته لمزيد من الخطر من أجل مكسب ضعيف، ثم تناول هذا الموضوع فى المجلس، ثم أمر بإعداد لغمين لكى يتلهى الجنود ويستريحوا فى هذا الوقت. أرسل الأعداء –الذين يعتبرون أن الخطر الذى يحدق بهم قريب وأن النجدة ستتأخر– إلى ابن عبو يطلبون منه مزيدًا من الخدمات، وقد ردّ عليها ابن عبو بوعود فقط، لأنه كان على علم بنية الدوق واهتمامه بما يخص البشرات، فكان خائفًا، ومستعدًا بالسلاح.

وبعد الانتهاء من إعداد الألغام أمر السيد خوان بإشعال واحد منها قبل إشعال الآخر بساعة. فانفجر اللغم الأول، وحطم جزءًا من السور بطول أربع عشرة ذراعًا. مع أنه لم يُلحق ضررًا كبيرًا بالمحاصرين، بسبب أنهم كانوا محتاطين لهذا الحدث، وأيضًا كانوا متأكدين من وقوع الهجوم فقاوموا من أجل الدفاع عما كان مفتوحًا، فكان البعض يجلب ترابًا، وخشبًا وحزمًا من الحطب لإقامته وإصلاحه وكان البعض الآخر يعمل على إلحاق الضرر بقواتنا بسرعة كبيرة من خلال الطلقات المستمرة، وبينما كانوا فى هذا وقع الانفجار الثانى للغم الآخر، الذى أسفر عن سقوط كل ذلك الجانب الذى أحدث دمارًا كبيرًا فى الأعداء، وبعد ذلك، هجمت المدفعية من جانبنا، فبدأ الهجوم فى منتهى الشدة، لأن المسلمين لم يكن لديهم دفاع يغطيهم ويحميهم، فأجبروا على ترك السور مع وقوع خسائر كبيرة فى الأرواح، حيث ظهرت بسالة وشجاعة السيد سانشو دى أبيانيدا، الذى جرح فى اليوم السابق، والذى برهن على شجاعته بين الأعداء، إلى أن أصيب بضربة سهم وطلقة نارية معًا أودتا بحياته. واستمر الانتصار من جانبنا إلى أن استسلمت غاليرا بالكامل.

وتم توزيع الأشياء التى تم الاستيلاء عليها والغنائم التى كانت موجودة، ثم أشعل جنودنا النار فى المكان، لكى لا يتركوا وكرًا للمتمردين، ولكى لا يصدر عن الجثث أى تعّفن، وعند انتهاء كل شىء، أمر السيد خوان بذهاب الجيش إلى باثا، حيث استقبل هناك بكثير من الفرح.

كان ابن عبو فى أنداراكس، عازمًا على ترك المجال مفتوحًا للدوق للوصول إلى البشرات، ومحاربته فى الثكنات، وقطع الطريق على موكب الحراسة، وكان متأكدًا من أن الجنود كانوا جائعين ومرهقين ولم يظفروا بمغانم، ولهذا سوف يتخلون عن الدوق. يقولون إن هذا كان فى تصور الأتراك، إما لأنهم كانوا متأكدين من ذلك، أو لأنهم بدءوا فى التفاوض مع السيد خوان حول عودتهم إلى بلاد البربر، كما فعلوا ذلك، ولم يرغبوا فى إثارة أحداث تعطل الاتفاق.

لكن الذى يتأمل الطريقة التى اتبعوها فى الحرب من البداية إلى النهاية، يرى أنهم رجال يسعون للتوقف، دون القيام بمهمتهم العسكرية، بسبب نقص القادة ونقص الأفراد المهرة المدربة، أو على أمل أن يتم إنقاذهم حتى يبقوا على الأرض، أو ينضموا للأسطول لكى يرحلوا إلى بلاد البربر مع نسائهم، وأولادهم وأموالهم؛ وكان لديهم الكثير من الفرص لتحقيق ذلك، لكن هذه الفرص ضاعت بسبب ترددهم وعدم خبرتهم. رحل الدوق من أورخيبا، بعدما توقف فيها لحمايتها وتعزيزها وانتظار دخول السيد خوان لمدة ثلاثين يومًا، فى العودة من بوكييرا؛ لكن ابن عبو، الذى علم برحيل الدوق، وبمرور موكب حراسة ضخم بغرناطة تحت مسئولية القائد أندريس دى ميسا، ومعه أربعمائة من جنود الحراسة وبعض الجياد، وضع نفسه فى المقدمة على الطريق التى تؤدى إلى خوبيليس، وهى الطريق التى يجب أن يمر بها الدوق، فأظهر أن لديه الكثير من الأفراد وأنه يحتل القمم، فدخل فى اشتباك عنيف مع الجنود المسلحين بالبنادق المرافقين للدوق.

وشدد الدوق الهجوم وأبعد الأعداء باستخدام المدفعية، وسلك طريق بوكييرا من الخلف، فاعتقد الأعداء أن الدوق يحاول مهاجمتهم من الخلف، فهجروا المكان،

ولكن في الوقت الذى استمر فيه الاشتباك هاجموا موكب الحراسة الذى يقوده أندريس دى ميسا عند الطريق الصاعدة للانخارون، فقام دالى، وهو قائد تركى، والماكوكس، ومعهما ألف رجل، وهاجموه دون أن يقتلوا أو يأسروا إلا خمسة عشر، فقد انشغلوا بسكب الزاد وقتل الدواب، وأخذ دواب أخرى محملة بالأمتعة. تصارعوا فى البداية، ولكن قليلاً؛ وقتلوا جواد السيد بدرو دى بيلاسكو، الذى كان فى ذلك اليوم فارسًا عظيمًا وتم إنقاذ حياته على ظهر جواد آخر.

أرسل إليه الملك يستعجله فى خروج الدوق، وطلب أن يحمل معه تقريرًا عن القوات وأن يشير بما يجب فعله. وعُلم من أحد المسلمين كان قد أسره ثلاثة جنود كانوا يتابعون معسكر ابن عبو أن نيته كانت إلهاء الدوق، لكنه فهم بعد ذلك وضع أندريس دى ميسا لمجرد التخمين لا بسبب معلومات لديه، فأرسل بعض الفرسان لمساندته، فوصلوا فى الوقت المناسب وحققوا فائدة وهى إنقاذ الأفراد الذين كانوا قد انهزموا، وجزءٌ من موكب الحراسة. وبعد هذا واصل طريق الصهاريج الواقع بين فيرّيرا ونهر كاديار من خلال طريق خوبيليس Jubiles، وفى تلك الليلة تأخروا فى المبيت. كان جُعيبى فى الحراسة ومعه خمسمائة من الجنود المسلحين بالبنادق، وعندما رأى أن قواتنا تبيت فى وقت متأخر وهى متعبة– وبسبب هذا تعمها الفوضى – ضرب المعسكر، واستمر الضرب بالسلاح على مدى جزء كبير من الليلة، حتى وصل إلى جسم الحراسة وقتل بعض الأفراد الذين لم يلتزموا بالأوامر، ولكن دون أن تطارده المقاومة، لكى لا يكون هناك فرصة للأفراد ليختل نظامها ليلاً. يقولون لو أن الأعداء هاجموا فى تلك الليلة، لكان هناك خطر كبير، لأن البلبلة كانت كبيرة، ولأن كلام عامة الناس كان يظهر الخوف، ولكن حماس وعزم طبقة النبلاء وقرار الدوق القائم على التخلص من الأعداء دون المغامرة فى يوم المعركة أصلح الموقف، وفى هذا يبدو أنه يتفق مع ابن عبو، لأن كل واحد منهما كان يفكر فى القضاء على الآخر والتخلص منه وتحطيمه مع الوقت ونقص الزاد، فخرج كل منهما بادعائه. أمر ابن عبو جعيبيا

بالانسحاب، متبعًا رأى الأتراك، وبعد ذلك من خلال أمر عام، بألا يدخلوا فى مناوشة، وألا يثيروا القلق فى معسكرنا دون أمر منه.

أتى الدوق إلى خوبيليس عن طريق فيرّيرا، حيث وجد القلعة مهجورة، فبدأ يستعيد قواه، فأرسل كلاً من السيد لويس دى كوردوبا والسيد لويس دى كاردونا، مع كل واحد منهما ألف من جنود المشاة ومائة وخمسون من الجياد، على أن يمشطوا الأرض من جانب إلى آخر، فلم يجدوا إلا بعض النساء والأطفال؛ ثم وصل الدوق إلى أوخيخار، دون أن يكف المسلمون عن التعرض لمؤخرة الجيش، ومن هناك وصلوا إلى بالور، حيث قضوا ليلتهم.

خرج السيد خوان من باثا خلف سيرون بنية محاربتها، وعند وصوله بجنوده على مشارف كانيلس Caniles، استلم خطابات من الدوق يطلب منه بالتماس كبير الإسراع بالمجىء، ويوضح له أهمية أن تكون هناك نهاية للحرب فى البشرات، مقدمًا كعلاج أخير اقتراحًا بضم المعسكرين وأن ينقضا فى المنتصف على ابن عبو. فبدا للسيد خوان أن هذه وسيلة جيدة، دون مزيد من التوقف، فسار بقواته من خلف قوات الدوق، فوصلوا على مشارف سيرون، حيث رأى عدد من الجنود المخالفين للأوامر أن المسلمين يتخذون موقف الدفاع، فلم يرغبوا فى المعاناة، فتحركوا صوبهم برغبة فى محاربتهم- وكان هذا ضد رأى السيد خوان- قائلين بصوت عال: "أميرنا يفكر تفكيرًا خاطئًا، إذا أراد المرور من هنا دون معاقبة هذه الوقاحة"، وقالوا: "سانتياغو! هيا بنا لنقاتلهم"، وتابعهم كثيرون آخرون، وسار خلفهم باقى الناس دون أن تجدى أية مقاومة، ودون سلطة ودون أمر هاجموا المكان باندفاع شديد، وعلى الرغم من أن المسلمين خرجوا من تيخولا Tíjola، فلم يكن هذا سببًا لكى يتركوا المكان، وعند دخولهم نهبوه، ومع أن معركة هذا اليوم كانت مجدية بالنسبة للبعض، فإنها على الرغم من قِصر مدة استمرارها كانت شرسة، حيث أصيب من بين آخرين لويس كيخادا بطلقة نارية خطيرة انتزعت حياته وسط حزن السيد خوان، طبقًا للحب الكبير الذى كان يحمله له. ولم يكن لدى

السيد خوان وقت ولا فرصة أيضًا للانتباه لهذا الشعور، حيث أثاره دخول ألف من المسلمين فى سيرون، وكان ذلك سببًا لمزيد من الصراع، فلم يتجنبه، وعاد إليهم وكله رغبة فى إنهاء الأمر فى هذه الفرصة من أجل أن يلبى احتياجات البشرات، ولهذا بعد التعرض لبعض الصعوبات الخفيفة قام بهجوم كان هو الحد الفاصل لهذا الانتصار. فى هذا اليوم برز السيد لوبى دى أكوينا، الذى أظهر عظمة شخصيته التى تلازمه دائمًا فى كثير من المناسبات.

وعندما رأى ابن عبو أن دوق سيسا كان فى قلب البشرات، وزّع قواته والناس الذين أحضرهم معه، فوضع ثمانمائة رجل بين الدوق وأورخيبا، من أجل أن يعوق حراسة غرناطة، وأرسل ألفًا مع موخاخار إلى سلسلة جبال غادور Gador، وإلى أنداراكس، وأدرا وإلى أراضى المرية، وستمائة رجل مع غارّال إلى سلسلة جبال بنتوميث، من حيث خرج السيد أنطونيو دى لونا، تاركًا حصن كومبيتا مزودًا بالمؤن، لكى يتجول فى أرض بيليث. أرسل جزءًا من رجاله إلى سيرّا نيفادا والبونتال لكى تحارب بالقرب من غرناطة، وبقى هو مع أربعة آلاف من الجنود المسلحين بالبنادق والقواسين، ومن بين هؤلاء خصص ألفين لمواجهة قوات الدوق، الذى كان يحتاج للأطعمة بسبب ضياع الحراسة، لكنه يعوض نقص الغذاء بتناول البقول، والسمك، والزيت وبمشروب مرطب أرسله له بدرو بيردوغو من مالقة، إلى أن رأى أن الطرق محتلة من كل جانب، فأرسل إلى ماركيز لافابارا، الذى عبر بألف رجل ومائة من الجياد وبعدد كبير من المعدات العسكرية ميناء الرباحة (Ravaha)، وحمل الزاد والمؤن إلى كالاأورّا Calahorra (لأنها ذكرت مرتين وهى فى حالة مجاعة وهذا يضر مصالحنا)، إلى حيث قام بالتموين، عبر طريق قصير جدًا، يمكن قطعه ذهابًا وإيابًا فى يوم واحد. يقولون إن الماركيز رفض الناس التى أرسلت إليه، بسبب أنها أتت من إشبيلية، ولما تأكد من تنفيذ المتفق عليه، رحل قبل طلوع النهار ومعه فرق إشبيلية وستون من الجياد لمؤخرة الجيش، ومعه ثلاثمائة من جنود المشاة وأربعون من الجياد لطليعة الجيش؛ أما

الأمتعة وسائقو عربات التموين والإمدادات، والمرضى، والعبيد فكانوا فى الوسط، وكل هؤلاء كان يحميهم موكب من الحراسة بالبنادق من كل جانب.

ولكن لأنه يبدو أن أناس إشبيلية متميزون، لأنها من أهم وأشهر المدن الموجودة فى العالم، لابد من فهم أن بها ثلاثة أنواع من الشخصيات: بعضها طبيعية وهؤلاء تقريبًا يكونون من طبقة النبلاء كما يكونون من أبناء الشعب وهى عادة شخصيات عاقلة، متحمّسة، غنية، يعيشون الحياة اعتمادًا على أموالهم أو على كسب أيديهم، والقليلون يخرجون للبحث عن لقمة العيش فى الخارج، من أجل أن يوفّروا وسائل الراحة الجيدة لبيوتهم، ويوجد أيضًا أجانب، وهم الذين حوّلتهم التجارة مع بلاد العالم الجديد، وعظمة المدينة، وفرصة الربح إلى سكان أصليين، مشغولين تمامًا بأعمالهم التجارية، دون الخروج لغيرها، ولكن الرجال الأجانب الذين ينضمون من مناطق أخرى إلى الأسطول، وإلى البحث عن الثروات، هم أفراد عاطلون، ثرثارون، معربدون، مقامرون غشاشون، فهم يستخدمون العاهرات لتحقيق مكاسب خاصة، ويحركهم دخان الطعام؛ هؤلاء، كما أنهم يتحركون من أجل المال الذى يعطى من يد ليد، ومن أجل أصوات الخزائن، وقوائم الألوية، فإنهم يهجرون المدينة بسهولة، عند أى ضرورة مُلِحّة، وأحيانًا يكون ذلك بناء على رغبتهم، فهكذا كانت الأفراد التى خرجت فى حراسة ذلك الموكب.

لكن الماركيز – بلا أية معلومات عن الأعداء وبلا دراية بالأرض، ودون احتلال مواقع متميزة، وواثقًا من أن مؤخرة الجيش ستفعل الشيء نفسه، الذى يفعله منْ يرى ضعف القوات، وبناءً على اعتقاده أن التردد لفترة طويلة مضرّ– أخذ يمشى بسرعة ومعه طليعة الجيش، ولكن المؤخرة معتادة من تلقاء نفسها على التوقُّف وعمل طابور حتى لو لم تكن هناك موانع، ولأن المتقدم لا ينتظر، والأخير معرقل وينتظر، حدثت فجوة كبيرة بينهم، وقام أفراد الحراسة بفعل الشيء نفسه فيما بينها وبين طليعة الجيش. لكن ابن عبو لم يكن متأكدًا إلى أين يسير هذا العدد الكبير من الناس، فأمر "العربى" قائد الحراسة، الذى كان مسئولاً عن أرض ثينيتى،

أن يواصل السير بخمسمائة رجل (يسمون تلك الولاية ثينيتى نسبة إلى الزناتى، وهو واحد من خمس سلالات عربية فتحت إفريقيا ومرت إلى إسبانيا، وهذا هو الشىء الأكيد). قسّم العربى رجاله إلى ثلاثة أقسام: هو ومعه مائة رجل أراد ضرب موكب الحراسة، وأمر البيثينى Piceni، وهو من غويخار، ومعه مائتان بالهجوم على مؤخرة الجيش من الأمام، وأمر المارتيل، ومعه مائتان آخرون، بالهجوم على مؤخرة الطليعة، وهذا بالدخول ما بين موكب الحراسة والطليعة، فى الوقت الذى يضرب هو فيه الحراسة، وأمرهم بأنه فى حالة عدم رؤيتهم له وهو يهجم على كل الناس، أن يلتزموا الهدوء وأن يظلوا فى مواقعهم فى الأكمنة، وأن يتركوا القوات تمر. توقف جنودنا لسرقة الأبقار وسبى النساء، اللاتى أطلقهن الأعداء لكى يشتتوا ويشيعوا الفوضى بين صفوفنا، ومن هنا هاجمهم العربى ومعه أربعة جنود فقط مسلحين بالبنادق من خلال الحراسة، وزاد الهجوم عليهم من ثلاثين آخرين من الجنود كانوا يحمون ظهورهم، فأثاروا الفوضى والبلبلة بين قواتنا، وبعد ذلك هاجمت بقية الأفراد المرافقة للعربى، فحطمت بالكامل فرقة الحراسة، دون إبداء أية مقاومة من جانب الذين كان يجب أن يقوموا بالدفاع. هاجم البيثينى سلاح الفرسان، الذى كان فى مؤخرة الجيش، وخلخل صفوفها فتسببت فى خلخلة صفوف قوات المشاة؛ والشىء نفسه فعله مارتيل مع مؤخرة طليعة جنود الماركيز عند نُهير بايارثال Vayárzal. حدث كل ذلك فى صمت، فلم يشعر أحد لا بصوت ولا بكلمة.

وأخذ البيثينى فى الفتك بمؤخرة الجيش بطريقة بدا معها بالنسبة لجنودنا أنه يهجم على قوات المارتيل. استمر الهجوم دون أن يعود سلاح الفرسان لتنظيم صفوفه، ولم يستعد جنود المشاة نظامهم إلا بالقرب من كالاأورّا، حيث قتل العربى المرضى وحاملى المؤن والأمتعة، وبعثر الأمتعة والمهمات، وسط صمت وخوف جنودنا وخوفهم. علم الماركيز بذلك فى وقت متأخر جدًا، فلم يستطع إصلاح الضرر، رغم أنه حاول الوصول ومعه عشرون من الفرسان وبعض الجنود

المسلحين بالبنادق، فمات الكثيرون من المرضى الذين كانوا فى موكب الحراسة، والكثيرون من المسلمين (الأسرى) وحاملو الأمتعة والمهمّات، ومن بين هؤلاء والجنود مات حوالى ألف شخص تقريبًا، استردوا سبعين من النساء الموريسكيات السبايا، وحملوا معهم أكثر من ثلاثمائة من رؤوس الماشية، هذا غير رؤوس الماشية التى قتلوها، وأسروا خمسة عشر رجلاً، ولم يفقدوا واحدًا منهم، وقعت هذه الكارثة فى يوم ١٦ من أبريل عام (١٥٧٠). وأخذ الماركيز منْ تبقى من الرجال محطمين، وباقى ما استطاع إنقاذه حمله معه إلى كالاأورّا، وأخذ يسترد قواه ويصلح صفوفه بمزيد من الناس فى غواديكس. وخرج إلى حيث كان السيد خوان. وقد وضع الأعداء الغنائم فى مأمن، وظلوا ستة أيام فى الطريق وبين الجبال.

لكن الدوق، الذى فهم الكارثة، وقلة التجهيزات والمعدات الواردة من جانب غواديكس، وقلة ثقته فى الناس، أراد أن يقترب أكثر نحو البحر بسبب وجود زاد وطعام فى مالقة، وبسبب حلول شهر أبريل، ولكى يحصل على الخبز، ولقطع الطريق المؤدية إلى بلاد البربر على الأعداء، فأتى إلى بيرخا بعدما قطع ثمار الفواكه فى البشرات، وفعل الشىء نفسه فى حقول دالياس **Dalias**، حيث كان المسلمون ينتظرون حصاد الشعير والحبوب. وعند المبيت فى بيرخا وقعت مناوشة صغيرة، مات فيها بعض جنودنا، ومات من المسلمين أربعون طبقًا لما يقولون. لكن الجوع وقلة المغانم، وأعمال الحرب، وتعود الجنود على الخدمة وفقًا لإرادتهم هم وليس وفقًا لإرادة من يأمرهم، تمكّنت جدًا من الجنود الذين لم يحترموا حسن التعامل معهم بالكلمات، ولم يحترموا المساعدات التى قدمت لهم فى العمل، بالمال، والطعام، منتزعين هذا وذاك من بيوت الناس، وأحيانًا منهم هم أنفسهم، ولم يشتركوا فى الإنفاق على غذائهم، مثلما فعلوا مع ماركيز بيليث؛ ولكن الدوق كان معتادًا على رؤية مثل تلك التقلّبات من الجنود، فأتى من بيرخا إلى أدرا، حيث كان يوجد الكثير من الغذاء، وإن لم يوجد الكثير من الهدوء مع الناس، فبدا لهم عدم احترام تأنيبه، فانقلبوا ضد السيد خوان دى ميندوثا، وتفوهوا بكلمات بلا سبب،

واتّهموه بقتل جندى حكم هو عليه بالإعدام كقاض؛ فهددوا، واحتجّوا ورفضوا أن يظلوا تحت إمرته؛ وكانوا يتفادون السيد خوان الذى كان يسير بينهم حينذاك بحرص: فلم يتخلوا عن وضع البطاقات (يطلقون هم "بطاقات" على الرقاع التى ينثرونها ليلاً بالشكاوى ضد رؤسائهم عندما يتحمسون للتمرد، والتى يصرحون فيها عما فى نفوسهم ونيتهم، ويحركون المترددين بالشكاوى والمطالب ضد رؤسائهم)، خرج من أدرا ثلاثمائة من الجنود المسلحين بالبنادق، أو حدث – طبقًا لما أشاعوه – أنهم كانوا يقومون بحراسة البريد؛ ولما اشتبكوا مع الأعداء قُتل منهم مائتان وثلاثون على يد القائد "العربى" والموخاخار، وأُسِرَ سبعون: ولم يعرف المزيد عما أعلنه المسلمون، وقد فهم من أحد الأسرى كيف أن معسكرنا فى أوخيخار تم إخلاؤه بخسائر وفوضى، وبترك مؤن مخبئه، وأخرجوا من أحد الجباب كمية من الرصاص، والمؤن والأحمال.

وفى الوقت نفسه، قتل المسلمون الذين أرسلهم ابن عبو إلى بنتوميث أفرادًا خرجوا من منازلهم إلى سالوبرينيا، وكان من بينهم تجار إيطاليون وإسبان، بعد أن استولوا على أموالهم، أما الذين أرسلهم إلى غرناطة فقد أسروا السيد دييغو أوسوريو، الذى كان قادمًا من مقابلة مع الملك يحمل رسائل إلى كل من السيد خوان والدوق، والتى تتضمن قرارات تخص الحرب والاتفاق الذى أبرمه مع المسلمين والأتراك بوساطة الحبقى. فحاول عشرون من جنود الحراسة المسلحين بالبنادق قتله، ولكنه استعمل الحيلة للخلاص من ذلك، واستطاع – رغم جراحه – أن يصل إلى أدرا لكن بدون الرسائل التى كان يحملها.

كان السيد خوان يتفق على استسلام وخضوع المسلمين، وذهاب الأتراك إلى بلاد البربر بحماس، ولكن بعض المسئولين – إما لأنهم تصوروا أنه يؤدى دورهم، وإما لأنهم تصوروا أنه يمكن إنهاء الاتفاق بطريقة أيسر من خلال تفاوض جهات أكثر معهم – دخلوا فى حديث عن اتفاقيات (يقولون إن البعض صالح ظاهريًا)، وتركوا إدانة الطريقة التى كان يتعامل بها السيد خوان، متعللين بأن الشروط التى

طلبها الأعداء ستتم الموافقة عليها، مع أنها مبالغ فيها. من جانب آخر بينما كانت حكومة الرئيس تتولى شئون الحرب فى غرناطة، كانت هناك عملية سلام تجرى، وكانت تناقش الأسلوب الذى يتعاملون به مع الموريسكيين الخاضعين، والذين سيأتون للإذعان والخضوع، أرسلوا موريسكيين إلى كل أنحاء قشتالة، وأخرج المسئولون الكثيرين للتجديف فى السفن، وأهانوا الذين كانوا سيستسلمون، ولأسباب ضعيفة كانوا يقومون بأسرهم، تحدثوا عن الاعتصام بوصفه شيئًا مُضرًا، وكانوا يستعينون بطرق غير مباشرة بمجلس المدينة الذى كان واقعًا تحت ضغط وإرادة القلة، وكل ذلك من دواعى العرقلة، ولم ينبهوا السيد خوان لكى يقوم هو بلفت نظر الملك لهذا الشأن، فجعلوا من أنفسهم رؤساء، فكتبوا أولاً كلمات ظاهرها المدح، ولكنهم كانوا يستهدفون سلطته، إما (طبقًا لما يقوله الناس) لكى لا تخرج الأسلحة من أيديهم، وإما لرغبتهم فى إظهار رأيهم، من أجل استبعاد كل طريقة للحل، ما لم تكن عن طريق الدم، ويشعرون بالإهانة إذا حدث شىء ولمْ يتم إبلاغهم بشكل خاص.

والآثار الظاهرة أدت إلى إصدار أحكام مختلفة، وكل ذلك كان يضر بالاتفاق؛ كما أضافوا أيضًا أنه عند وجود الملك فى قرطبة، لم تنقصهم الجرأة لكى يتبادلوا الرسائل، ولكى يقوموا بالتفاوض من أجل العرقلة، فشك هو فى شىء ما. فهذه الجرأة عادة ما تحدث من الذين يعيشون فى بلاد العالم الجديد، مع الذين يحكمونهم من إسبانيا، وكان من المثير للدهشة التظاهر بالكتمان الذى يتحلى به الملوك عندما يتعرضون للمشاكل، دون أن يتركوا مجالاً يُفهم منه أنهم غاضبون. كان الدوق علىّ علم وكانت لديه معلوْمات عن طريق الجواسيس وعن طريق الخطابات التى كان يحصل عليها، بأن الأتراك يتسلحون لنجدة ومساعدة ابن عبو، ناحية كاستيل دى فيرّو، مع أنها منطقة صغيرة، وكان هذا عمدًا لكى ينزل الناس من المراكب، وبسبب استعداد لا رامبلا للانضمام إلى الأعداء. فتصور أنه إذا تم هذا وكان قد تخلص من قواته، فإنه من الممكن أن يتعرض للأذى، أو على الأقل

سيكون محاصرًا مع ضياع سمعة قواتنا، وتمتع الأعداء بشهرة كبيرة. فعزم على محاربة ذلك المكان، ومحاربة الأعداء إذا أتوا لمساعدته، فجلب عن طريق بحر المرية قطعا للضرب، ووزّع القوات، ووصلت السفن بالمساعدات ولمنع وصول مساعدة الجزائر، عهد إلى ماركيز لافابارا بالمدفعية، الذى اجتهد فى تثبيتها. وصل وحارب عن طريق البحر مع السفن، وعبر الأرض بسرعة كبيرة جدًا، حيث فتح ثغرة للمعركة.

فى الداخل قُتل البعض من قصف المدفعية، ومن بين الشخصيات الرئيسية التى سقطت فى هذا القصف لياندرو، الذى كان مسئولا عن القلعة، ولم تقع خسائر أخرى بين صفوفنا إلا ما أحدثته قطعهم فى إحدى السفن. لم يكن الجنود الأتراك والمسلمون الذين كانوا فى حالة دفاع، وعددهم اثنان وخمسون، واثقين من المساعدة القادمة من بلاد البربر، فخرجوا وأسلحتهم فى أيديهم ومعهم امرأة للهجوم على المدفعية وعلى أفراد الحراسة التابعة لنا، وسط ظلمة الليل وصوت الأسلحة، وكان يقودهم ميبايبال Mevaebal، قائدهم الذى كان قد دخل قبل يومين. وقد أشيع بين صفوفنا، أن اثنى عشر من الأعداء قتلوا، ولكنهم لم يروا فى معسكرنا، وأشار المسلمون إلى أنهم وصلوا جميعًا إلى معسكر ابن عبو، وكان بعضهم جرحى. أصبح ميدان كاستيل دى فيرّو مهجورًا فصدر أمر فى الصباح إلى كل من السيد خوان دى ميندوثا وماركيز لافابارا وغيرهما بالاستيلاء عليه. فوجدوا بالداخل بعض العجائز والبربر، وبعض التجار الأتراك، الذين بلغ عددهم نحو عشرين رجلاً، وست عشرة امرأة من الموريسكيين، الذين كانوا يستعدون لركوب السفن، ووجدوا بعض الملابس، وعشرين قنطارًا من الخبز، والمدفعية التى كانت موجودة من قبل فى القلعة، كانت قليلة ومعطلة وعلموا من خلال واحد من هؤلاء المسلمين أنه بينما كانوا يضربون القلعة وصلت أربع عشرة سفينة تركية بالمساعدات، ثم رجعت عند سماع صوت المدفعية. وذاع خبر الاستيلاء على كاستيل دى فيرّو، بسبب التجهيزات والمعدات وأهمية المكان، وبسبب أنه قد فُقِدَ ثم استُعيد، وبسبب

أن هذا قد تم فى الوقت الذى أتى فيه الأعداء لمساعدته ونجدته، وبسبب قيمة وعظمة الحدث.

فى الوقت نفسه أرسل السيد خوان السيد أنطونيو دى لونا على رأس ألف وخمسمائة من مشاة، وفرق دوق سيسا والقلعة، ومدفعية دوق ميدينا سيدونيا ودوق أركوس لكى يحموا أراضى بيليث مالقة ضد الذين اجتمعوا فى فريخيليانا. خرج من أنتيكيرا **Antequera** مع هؤلاء الناس، وقام ببعض الأعمال الخفيفة، ودخل أحيانًا فى بعض المناوشات، فكانوا ينتصرون فى بعضها، والبعض الآخر ينتصر فيه المسلمون، وبدأ بحصن فى كومبيتا، على بعد فرسخ ونصف من فريخيليانا، مكان كانوا يجتمعون فيه قديمًا فى هذا الإقليم للتسوق، ولهذا السبب يسمونه الرومان "كومبيتا" ***Compita***، وهو الآن عبارة عن مجموعة أحجار وأساسات قديمة، كما بقى الكثير منها فى مملكة غرناطة، ثم دخل حصنًا آخر فى ساليار **Saliar**؛ أرسل ألف رجل لتفتيش منطقة نهر تشيّار **Chíllar**، عادوا بقليل من الغنائم وبخسارة مماثلة، وترك فى الحصون فرقتين فى كل حصن، فعاد الناس إلى أنتيكيرا، وعاد هو إلى بيته. بقى الدوق بقواته فى أدرا، وكان فى انتظار ما ستسفر عنه المفاوضات وعند ماذا سيتوقف الحوار الذى يجرونه مع الحبقى، حيث زوده بالمؤن فى مالقة بدرو بيردوغو. قدم له بعض الهدايا. مرت مواكب الحراسة من معسكره إلى معسكر السيد خوان آمنة، ولكن الجنود - وهم أفراد غير منضبطين وفاسدون، أعطت لهم قلة دفع الرواتب وقلة الطعام مزيدًا من الجرأة، وبانتزاع صلاحيات معاقبتهم من المسئولين - كانوا كذلك غاضبين سواء فى حالة وفرة الطعام أو فى حالة الجوع، فكانوا يهربون من أى مكان يستطيعون الهروب من خلاله؛ فمن بين الكثير من الفرق بقى فقط ألف وخمسمائة رجل، كان أغلبهم من طبقة النبلاء والشخصيات المهمة والفرسان الذين كانوا يتابعون الدوق بسبب الصداقة، واستطاع بهم حفظ وتأمين البر والبحر. وعاد الملك إلى قرطبة عن طريق خائين وأوبيدا وبايثا. ثم وصل إلى مدريد.

لم يكن التفاوض بشأن سلسلة جبال روندة بأقل أهمية وخطورة، لأنه كان على وشك الانتهاء، وكان الموريسكيون غاضبين سكان البشرات، ونهر المرية والمنصورة، فالجبل وعر وصعب، وطرقاته ضيقة، ومقطوعة فى أجزاء كثيرة، أو مقطوعة بأحجار سيئة الوضع والمكان، وبأشجار مقطوعة ومخترقة المكان، وهى أدوات ومعدات أناس على حذر.كان الرأى الذى استقر عليه الملك هو تأمينهم قبل إعلان استسلامهم وإخراجهم من البلاد مع عائلاتهم، كما يتم ذلك مع الباقين. ولهذا السبب أمر السيد خوان بأن يرسل السيد أنطونيو دى لونا مع الناس التى يراها ضرورية، وبواسطة المجاملات والتملق وبكلمات رقيقة ناعمة، ودون أن يستعملوا معهم القوة أو الشر، أو دون أن يعطوهم الفرصة لاستخدام السلاح، أن يرحلوا الموريسكيين إلى الداخل فى أرض قشتالة، وأن يرسلوا معهم الحراسة الكافية. عندما تسلم الأمر من السيد خوان رحل السيد أنطونيو من أنتيكيرا فى يوم ٢٠ من مايو (١٥٧٠)، وأخذ معه ألفين وخمسمائة من الجياد. بلغ عدد كل الناس التى أخرجها السيد أنطونيو من روندة أربعة آلاف وخمسمائة من المشاة، ومائة وعشرة من الجياد.

فى اليوم الذى رحل فيه أرسل إلى بدرو بيرموديث، الذى كان الملك قد أرسله لحراسة تلك المدينة، لكى يدعم ويساند بخمسمائة من المشاة فى خوبريكى **Jubrique**، وهو بلد له أهميته ومكان مناسب، لإخراج الموريسكيين، وفى الوقت نفسه وزع الفرق على أماكن أخرى من البلد، وأعطاهم أمرًا أنهم جميعًا وفى ساعة وزمن محدد يبدءون فى إخراج المسلمين من بيوتهم. رحلوا عند ارتفاع الشمس فى الساعة الثامنة صباحًا. لكن المسلمين الذين كانوا فى شك وحذر، عندما اكتشفوا قواتنا، صعدوا بأسلحتهم إلى الجبل، وهجروا المنازل، والنساء، والأبناء، والماشية، وبدأ الجنود فى السرقة، كما هى العادة، وأخذوا يحملون الملابس، وأخذوا يأسرون الناس بكل الوسائل، وأخذوا يجرحون ويقتلون دون فرق كل مَنْ كان يحاول عرقلتهم. وعندما رأى المسلمون الفوضى، نزلوا عبر سلسلة الجبال، وقتلوا

الجنود، الذين -بسبب الطمع وانشغالهم بحمل الأشياء التى نهبوها- تخلوا عن الدفاع عن أنفسهم وعن ألويتهم: وأخذت هذه الفوضى تزداد مع ظلام الليل، لكن بدرو بيرموديث، وهو رجل له دراية فى فنون القتال، ترك بعض الناس فى كنيسة خوبريكى لحراسة النساء، والأطفال والعجائز، حيث جمعهم هناك، واختار مكاناً حصيناً خارج الموقع ينزوون فيه؛ دخل المسلمون القرية، وهاجموا الكنيسة، وأخرجوا مَنْ كان معتصمًا فيها، وأحرقوها بالجنود دون أن يتمكن أحد من نجدتهم، وبعدها هاجموا بدرو بيرموديث، الذى فقد أربعين رجلاً فى المعركة، وقد أصيب البعض من الطرفين بجراح، ثم لجأ الأعداء للجبال ليحتموا بها.

وعندما رأى السيد أنطونيو الفوضى والقليل الذى فعلوه، سحب الألوية وألفًا ومائتى شخص، وكان معهم الكثيرون من العبيد والإماء، والملابس، والماشية تحت سيطرة الجنود، دون أن يؤدى ذلك إلى عرقلتهم، نزل بروندة، حيث يبيع الناس فى الإقليم الغنيمة علانية، كما لو كانت مكتسبة من الأعداء. فتفككت كل تلك القوة الصغيرة، كما يعتاد الرجال الذين حصلوا على مغانم ويخشون العقاب بسببها، فأرسل الناس التى أخرجها من أنتيكيرا إلى غرفهم، وأرسل الألف ومائتى شخص تقريبًا إلى قشتالة دون أن يتخذ مزيدًا من الإجراءات، ورحل إلى إشبيلية ليقدم إلى الملك معلومات عن الحدث. تعرض السيد أنطونيو لغضب سكان روندة والمسلمين معًا، فسكان روندة (غضبوا لأنهم) كان عليهم أن يصبحوا فى المواقع، لكنه أخرج الناس فى الساعة الثامنة صباحًا وقسّمها إلى أجزاء كثيرة؛ وأصدر أمرًا غير واضح ومشوشًا وأعطى حرية للقادة؛ والمسلمون (غضبوا لأن قواتنا) نقضت معهم عهد الأمان ولم تحترم كلمة الملك التى كانوا يعتبرونها من العقيدة أو كرابطة لا تنتهك حرمتها. لقد حرصوا على طاعة أوامر سيدهم الطبيعى، لكن جنودنا - بسبب هذا الاحترام والتضحية ببيوتهم، ونسائهم، وأبنائهم، وبأنفسهم- سرقوهم وأخذوا أموالهم والسلاح الذى كان فى أيديهم. تحمل المسلمون خشونة ووعورة وجفاف الجبل، حيث لجأوا إليه من أجل إنقاذ حياتهم، وهم مستعدون لترك كل

شيء، إذا أعادوا إليهم النساء والأبناء والعجائز الأسرى، والملابس ويمكن استعادة كل هذا بقليل من الاجتهاد.

كان هناك الكثيرون من أصحاب المصالح، الذين بسبب هذه الصفة فحسب أصبح يتم التعامل معهم على أنهم أعداء؛ وعلى الرغم من ذلك فقد وجدوا أنفسهم يتحركون ثائرين وفى دفاع عن حياتهم. قال السيد أنطونيو إنه وزع الناس بالطريقة المألوفة على الأرض الوعرة وغير المعروفة، وإن السير ليلاً أمر سيئ؛ فتوزيع الأفراد على غير هدى وتفككهم يؤدى إلى الهجوم عليهم بسهولة من قِبل الأعداء وهم خبراء بالأرض وتحميهم ظلمة الليل. كان الجنود لا يطيعون الأوامر، ولا يحترمون النظام، ويعيشون فى حالة فوضى لأنهم لا يعرفون قادة ولا ضباطًا، ولا يفهمون أيضًا معنى صوت الموسيقى، ولا يهتمون إلا بإحضار الهدايا إلى منازلهم وسرقة بيوت الآخرين. تم قبول أعذار السيد أنطونيو لأنه فارس وسيد حقيقى وله مصداقيته، وعزى سبب الهزيمة إلى فوضى الأفراد، والتى أكدتها أحداث كثيرة أسفرت عن خسارة وأضرار لحقت بهم.

بعد رحيل السيد أنطونيو خرج الناس من الإقليم، وهم المسيحيون القدامى، للسرقة فى القرى: سرقة النساء والأطفال والماشية وما تركته قوات السيد أنطونيو الذى رحل، كما قلت، وهو موثوق به بسبب ما له من مصداقية فى شخصه؛ وبسبب أن الجنود بوجه عام حينذاك كانوا يرون انه ليس طيبًا. لكن الأعداء، مصدقين الذين هربوا من البشرات، وهم متحررون من العوائق، ومجردين من الأشياء التى يحبونها ويرغبونها ويحرصون عليها جيدًا، بدءوا فى إشعال نيران الحرب بشكل واضح، وأخذوا يجمعون النساء، والأبناء، والطعام الذى بقى لديهم، وأخذوا يتحصنون فى سيرا بيرميخا **Sierra Bermeja** وفى سيرا دى إستان **Sierra de Istán**، وجعلوا البحر فى ظهورهم لاستقبال المساعدة من بلاد البربر، ونزلوا حتى أبواب روندة، وبدءوا فى إثارة الاضطرابات فى البلاد، وسرقة الماشية، والأسر، وقتل المزارعين، ليس كقاطعى طريق، بل كأعداء.

معلنين. وكان إذ ذاك، كما قلت، الملك فيليبى فى إشبيلية، وكانت المدينة ترجوه، أن يأتى إليها ليقدموا إليه واجب الطاعة.

إشبيلية فى زمننا هذا واحدة من أشهر وأغنى، وأقدم مدن العالم، يحضر إليها تجار من كل مكان، وخصوصًا من العالم الجديد الذى نطلق عليه إسبانيا الجديدة، ومعهم ذهب، وفضة، وأحجار كريمة، وزمرد، أقل قليلاً من تلك الأشياء التى أبهرت العالم القديم فى زمن ملوك مصر، ولكن بكميات كبيرة، وجلود وسكر، والأعشاب التى تحل محل الأرجوان، والشائع، قرمزى (يطلق عليه سكان العالم الجديد، حيث تزرع، لفظ قرمز).

كانت إشبيلية ثانى محطة للمستعمرين الإسبان، عندما أتوا مع الملك العظيم والقائد باكو (والذى كانوا يسمونه باسم آخر هو ليبيرو **Líbero**)، لغزو العالم. فالمناسبة تدعونا – ونحن نتحدث عن مدينة عظيمة جدًا – للتعبير عن آرائنا، فى أمر مشكوك فيه بسبب قدمه، حول تأسيسها واسم كل إسبانيا. ابتداءً من الوثائق حتى التخمين، ومرورًا بالكتاب ذوى المصداقية. ماركو بارون، وهو مؤلف مهم جدًا، ومجتهد فى البحث عن أساس وبدايات الشعوب، يقول، طبقًا لما يشير به بلينيو، إنه أتى إلى إسبانيا الفرس، والإيبيريون والفينيقيون، وكل أمم الشرق، مع باكو. ولهذا السبب يُفهم أيضًا القيام بمغامرة العالم الجديد، طبقًا لكتابات نونو، وهو شاعر يونانى، ألف أشعارًا عن أعمال باكو، بعنوان "ديونيسياكا" **Dionisiaca**، لأنه كان يسمى – علاوة على اسم باكو وليبيرو– ديونيسيو. يقول سالوستيو فى حكاياته إنه هو نفسه قد مر على بلاد البربر، وأسس الكثير من الأمم. مع باكو هذا أتى قادة من أشهر الرجال، ونساء شهيرات. أحد الرجال كان يسمى لوسو، وإحدى النساء كانت تدعى ليسا، يقول ماركو نفسه بارون إنها هى أساس اسم جزء من البرتغال، والذى كان يسمونه قديمًا لوسيتانيا **Lusitania** .

كان لباكو نائب يسمى بان(*) **Pan**، وكان رجلاً غليظًا وفظًا وريفيًا، وكرَّمه العصر القديم على أنه إله الرعاة، ربما يكون شخصا آخر يحمل الاسم نفسه، لكن بسبب الاشتراك فى المواكب الدينية أو أعياد "باكو إلبان"، يمكن الاعتقاد أن يكون هو نفسه، يقول بارون، إن بان هذا هو الذى اشتق منه اسم إسبانيا، والشىء نفسه يقوله أبيانو أليخاندرينو فى حكايته.

"*بانيوس*" يعنى الشىء المنسوب إلى البان(*)؛ وحرف *إى*، الموجود أمامه، هو أداة التعريف، وبضمه للبانيوس، فيعنى الأرض أو إقليم الخبز، احتفظ الإسبان باللفظ الإغريقى، كما ينطقه اليونانيون، وننطقه نحن إسبانيا، ومن هنا جاء القول بأن إيسبان أو إلبان الذى يسميه اليونانيون النائب، كان ابن أخت هيركوليس (هرقل) وأعطى الاسم لإسبانيا. والحقيقة أن باكو ترك فى تلك المنطقة أماكن بأسماء الذين كانوا يتبعونه، وجاء من كانوا يسمونه هيركوليس مرتين، أو كان هناك شخصان اسمهما هيركوليس فى ذلك الجانب من إسبانيا. ربما سميت إشبيلية بهذا الاسم لأنها كانت معمورة، عندما أتى فى المرة الثانية هيركوليس أو باكو، أو عندما أتى إلى إسبانيا هيركوليس الطيبى، وإذا كان الأمر هكذا، بافتراض أنه فى اللغة اليونانية *بالين* **Palin** تعنى "مرة أخرى"، و *إى* **hi** تعنى أداة التعريف "ال": فإن اسم إسباليس **Hispalis** يعنى "فى المرة الثانية"، لأن اليونانيين لديهم سهولة فى إنهاء الكلمات بحرف السين.

بالإضافة إلى تجمع التجار والأجانب، فإنه يسكن فى إشبيلية كذلك سادة وأشراف مهمين، كما هى العادة فى مملكة كبيرة، يوجد بينهم بيتان كبيران أتى كلاهما من مملكة ليون، وكلاهما له نفوذ ونبل كبيران، ولم ينقصهما فى هذه الأزمة أو فى غيرها القادة العظماء، واحد منهما ينتمى لعائلة قزمان، وهم من تولوا منصب الدوق فى مدينا سيدونيا، التى كانت فى الزمن القديم بلدة أهل تيرو

(*) الـ "بان" باللغة الإسبانية تعنى (الخبز). (المراجع)

Tiro، بعد قليل من تعمير قادش، والتى حطمها اليونانيون وبعض أهل البلد، وقد أعاد المسلمون ترميمها طبقًا لما يظهره الاسم، لأنه فى لغتهم كلمة ***مدينة*** Medina تعنى فى لغتنا بلدة، كما لو قلنا بلدة سيدونيا، أقامت هذه السلالة لزمن طويل فى جبال ليون، وأتوا مع الملك ألونسو السادس لغزو طليطلة، ومن هناك جاءوا مع الملك فيرناندو الثالث إلى إشبيلية، وقد أطلق اسمهم على قرية، وكان اسمهم قد أطلق على ثمان وثلاثين قرية غيرها كانوا سادةً عليها. وكان مؤسس البيت – فى أثناء الدفاع عن طريفة (Tarifa) – هو مَنْ ألقى السكين، التى ذبحوا بها ابنه الذى كان رهينة لديهم، لأنه لم يسلم الأرض للمسلمين. والبيت الثانى هو بيت عائلة بونثى دى ليون، وهم من سلالة الكونت إيرنان بونثى الذى مات فى بوابة ليون، عندما استولى عليها المنصور، ملك قرطبة، يقولون إن أصلهم يرجع إلى الرومان الذين عمّروا ليون، وإن اسمهم مأخوذ من المدينة نفسها؛ تولوا منصب الدوق فى زمن آخر فى قادش إلى أن استولى أحدهم على الحامة (Alhama)، وكان ذلك بداية لحرب غرناطة، وبعد ذلك تجرد أحفاده من الولاية التى منحها للعائلة كل من الملك السيد فيرناندو والملكة السيدة إيسابيل، وأصبح لقبهم "دوق أركوس"، التى كان الإسبان القدماء يسمونها ***أركوبريكا***، وكانت من أولى البلاد فى إسبانيا، قبل مجيء تيرو لتعمير قادش. كان سادة هذين البيتين متماثلين فى تلك المدينة، وكانوا أيضًا زعماء لسادة من مدن أخرى كثيرة فى أندلوثيا؛ فكان سيد عائلة المدينة السيد ألونسو دى قزمان، وهو شاب تعقد عليه آمال كبيرة، ومن عائلة "أركوس" السيد لويس بونثى دى ليون، وقد اشترك هذا الرجل فى حملة دورلان دون راتب تحت راية الملك فيليبى، بكل اهتمام. كلف الملك هذين العظيمين بتهدئة وإصلاح الوضع فى جبال روندة، لأنها مجاورة لمناطق سيادتهما.

الوجهاء فى إسبانيا هم هؤلاء السادة الذين يأمرهم الملك بتغطية الرأس، ويسمح لهم بالجلوس معه فى الاحتفالات والأماكن العامة، وتنهض الملكة فى قاعة

الاستقبال لاستقبالهم واستقبال نسائهم، وتأمر بإعطائهم وسادة يجلسون عليها كنوع من التكريم، فهى شعائر تذهب وتأتى على مر الزمن وبإرادة الأمراء، ولكنها ثابتة فى إسبانيا فى اثنى عشر بيتًا فقط، من بينهم هذان البيتان اللذان كانا لا يزالان يتمتعان بسلطة كبيرة. بعد زيادة الإكرام والحظوة والغنى بفضل ملوك إسبانيا فقد ازدادا كثيرا جدًا. أعطى الملك توكيلاً لهذين الأميرين لكى يتفقا ويجمعا باسمه الموريسكيين وأن يعيدا إليهم النساء، والأبناء والأثاث، وأن يقوما بإرسالهم إلى داخل الأراضى الإسبانية، فهم لم يشتركوا فى التمرد، وما حدث كان بسبب أخطاء المسئولين أكثر من أن يكون بسببهم. كان لدوق أركوس جزء من منطقة سيادته واقع فى جبال روندة، فرأى أن يتوجه إلى كاساريس **Casares** ، وهو مكان تابع له، حيث يكون قريبًا جدًا للتعامل مع المسلمين، فأرسل ترجمانًا ذهب وعاد بمخاطرة؛ وكان ما جاء به هو، أنه يحزنهم ويثقل عليهم ما حدث؛ وأنهم سيرسلون شخصيات منهم للتفاوض مع الدوق، حيثما وكيفما يأمر، وسيمتثلون ويفعلون ما يأمرهم به بشروط معينة. أكد هذا باسم الجميع كل من العربيكى (Alarabique) والعطيفر (Ataifar)، وهما رجلان يتمتعان بسلطة كبيرة يحكمان الجميع، ونزل كل من العربيكى والعطيفر إلى صومعة خارج كاساريس، ومعهما شخص ينوب عن كل بلدة من البلاد الثائرة. لكن الدوق من أجل عدم إحراجهما وإظهار الثقة، جاء مع عدد قليل؛ وهى جرأة تؤدى عادة إلى إلحاق الضرر بشخصيات لها قدر كبير.

تحدث إليهم، وأقنعهم بفاعلية كبيرة، وأجابوه بالشىء نفسه، وانتهت المحادثات بأن أخبرهم أنه سيطلع الملك بما حدث، ولكن قبل وصول رد الملك جاءه أمر بأن يجمع الأفراد من مدن أندلوثيًا المجاورة لروندة، وأن يستعد لشن الحرب، فى حالة رفض المسلمين الخضوع، فأمر بتحضير الأفراد من أندلوثيًا ومن سادتها، من المشاة والفرسان ومعهم طعام يكفى لخمسة عشر يومًا، وكانت هذه المدة تبدو كافية لإنهاء هذه الحرب. فى أثناء تجمع الأفراد، رغب فى رؤية

واستكشاف حصن كالالوى **Calalui**، الواقع فى سلسلة جبال بيرميخا، والذى يسميه المسلمون الجبل الأحمر (***Gebalhamar***)، حيث مات فى الأزمان الماضية السيد ألونسو دى أغيلار، وكونت أورينيا؛ وكان السيد ألونسو قائدًا مشهورًا وكلاهما من كبار الأمراء بين الأندلوثيين، وكان كونت أورينيا جده من ناحية أبيه، والسيد ألونسو جد زوجته. خرج من كاساريس يستطلع ويؤمّن الخطوات إلى الجبل؛ ويقوم بالتدبير اللازم بسبب عدم الأمان أيام الحرب وعدم ثبات الحظ. بدءوا يصعدون الجبل، حيث كان يقال إن الجثث ظلت هناك دون دفن، فكانت رؤية وذكرى حزينة وبغيضة؛ إذ كان من بين الذين ينظرون أحفادُ الموتى، أو شخصيات كانت تعرف عن طريق السمع الأماكن المنكوبة.

وصلوا أولاً إلى الجزء الذى توقفت فيه الطليعة مع قائدها بسبب ظلمة الليل، وهو مكان ممتد جدًا ودون تحصينات إلا التحصينات الطبيعية، بين سفح الجبل ومساكن المسلمين، كانت جماجم الرجال قد ابيضت، وكانت عظام الجياد مكومة، ومبعثرة ؛ كما أنهم رأوا قطعًا من الأسلحة، وبقايا حُلىّ الخيل، وإلى الأمام رأوا حصن الأعداء، وكانت علاماته تبدو قليلة ومنخفضة ومحطّمة، وأخذ الخبراء والعارفون بالمكان يشيرون إلى الأماكن التى سقط فيها الضباط، والقادة والنبلاء، وأشاروا إلى الكيفية والطريقة والمكان الذى استطاع أن ينجوا بها الذين ظلوا على قيد الحياة، وكان من بينهم كونت أورينيا، والسيد بدرو دى أغيلار، الابن الأكبر للسيد ألونسو، وفى أى مكان وأين تقهقر السيد ألونسو حيث كان يدافع عن نفسه بين صخرتين، والجرح الذى أصابه به الفيرى (Feri)، زعيم المسلمين، أولاً فى رأسه وبعد ذلك فى الصدر، وقد سقط على إثر إصابته، والكلمات التى قالها له وهو يحبو على ذراعيه: "أنا السيد ألونسو!"، والكلمات التى ردّ عليه بها الفيرى عندما أصابه: "أنت السيد ألونسو، لكن أنا الفيرى دى بن أستيبار (Feri de Benastepar)"، ولم تكن الإصابات التى أحدثها السيد ألونسو سيئة جدًا مثل تلك التى تلقاها، فبكاه أصدقاء وأعداء، وفى ذلك المكان جدّد الجنود مشاعرهم، أناس

جاحدة، إلا فى سكب الدموع. أمر الجنرال بعمل شاهد للموتى، وصلى الجنود الذين كانوا حاضرين من أجل أن يستريح الموتى فى سلام، غير متأكدين إذا كانوا يصلّون من أجل أقارب أو من أجل أغراب، وزاد هذا من غضبهم ومن الرغبة فى أن يجدوا أناسًا ينتقمون منهم.

بعد أن تأكد من أهمية هذا المكان إذا احتله الأعداء، أمر الدوق لواءً من المشاة أن يدخل الحصن وأن يحميه. فى هذا الوقت جاء قرار الملك الذى يمنح المسلمين كل ما طالبو به تقريبًا والذى كان يمس مصالحهم، وبدأ بعضهم فى الخضوع، ولكن بأسلحة قليلة، قائلين إن الذين ظلوا فى معسكرهم لم يتركوهم يجلبونها. وكان من بين المسلمين واحد، يسمى المالكى (Melqui)، وهو رجل شجاع، ومتهم بالإلحاد، وخرج من سجون محاكم التفتيش، يذهب ويعود من تطوان؛ هذا، إما أنه تصور أنه فقد السمعة التى كان يتمتع بها حتى ذلك الحين، أو أنه كان خاضعًا لأمير تطوان، جمع الشعب، الذى قرر الإذعان، وعمل على إقناعه مؤكدًا أن ما كان العربيكى يحاول إقناعهم به خداع وزيف، وأنه – العربيكى– تسلم من الدوق تسعة آلاف من العملات المعدنية، فباع بهذا السعر أرضه، وأصله وأولاده، ونساء وأشخاصا من أبناء عقيدته، وأن السفن وصلت إلى جبل طارق، تحمل الحبال فى الأيدى التى سيشنقون الزعماء بها ويربطون العامة ويحملونهم إلى السفن للعمل فى التجديف دائمًا حيث يعانون من الجوع والبرد والضرب بالسياط، ويتبعون مقهورين إرادة أعدائهم، دون أمل آخر سوى الموت.

كانت لهذه الكلمات والشخص قوة كبيرة حيث أقنع الشعب الجاهل، فأخذوا السلاح وقطّعوا العربيكى وبربريًا آخر كان رفيقًا له إربًا، وكان له الرأى نفسه؛ وبهذا غيّروا رأيهم وأصبحوا أكثر تمردًا عن ذى قبل، فبعضهم كانوا يريدون الاستسلام، منعهم المالكى بحراس فأصبحوا خائفين من التهديدات، فتخلوا عن فكرة الخضوع، أما أهالى بن أهابيث (Benahabiz)، وهى قرية مهمة فى ذلك الجبل، فقد أرسلوا فى طلب العفو من الملك بهدف الخضوع، وحمل طلبهم رجل مسلم،

يدعى البرقوقى، ومعه فى الوقت نفسه خطاب من الدوق لماربيّا، وخطاب إلى الذين كانوا يحرسون حصن مونتى مايور (Montemayor)، حتى ينتبهوا له ولزملائه، وأن يرافقوهم حتى يتركوهم فى مكان آمن؛ لكن الناس إما بسبب الطمع فى شىء، إذا حملوه، أو بسبب إعاقة الخضوع والذى ستتوقف الحرب على إثره، فعلوا ما كان على العكس تمامًا مما يجب فعله فقتلوا البرقوقى. أثارت هذه الفوضى أهالى بن أهابيث، وأكدت صحة وجهة نظر المالكى بحيث لم يكن العقاب الذى نفذه الدوق من شنق وإلقاء المذنبين للتجديف فى السفن كافيًا للقضاء على التمرد العام.

استعد الناس، وجاء الدوق إلى روندة، حيث جمع قواته، وخرج بأربعة آلاف من المشاة ومائة وخمسين من الفرسان ليصبحوا على مقربة أكثر من فرسخين من سلسلة جبال إستان، حيث كان الأعداء ينتظرون وهم محصنون، وهو مكان شديد الوعورة وصعب الصعود، وجعل البحر خلفه، تاركًا فى روندة لوبى ثاباتا، وهو ابن السيد لويس بونثى، لكى يجمع ويقود المسلمين الذين جاءوا للاستسلام. جاء قليلون أو ربما لم يأتِ أحد بسبب شعورهم بالغضب والفزع من حادثة البرقوقى، ولأن الشعب فى روندة وفى ماربيّا خالفوا الدوق ولم يحترموا عهد الملك، فقتلوا حوالى مائة من المسلمين تقريبًا عند خروجهم من الأماكن. ولم ير الدوق أن يتوقف لينزل العقاب بمن يستحق، لكنه جعل الملك قاضيًا، فعاقب الملك المذنبين بما يستحقون، وسار هو إلى فوينفريّا **Fuenfría**، حيث أُشعِلَت النار فى المعسكر، إما لأن هذه النيران قذفها الأعداء أو بسبب إهمال البعض؛ وقد تم إخماد النار بمهارة وعناية الدوق.

فى اليوم التالى استكشف حصن الأعداء ومعه ألف من جنود المشاة وبعض من الفرسان، من ناحية سلسلة جبال أربوتو **Arboto** الواقعة أمامه، وفيها وضع مكان المبيت ومكان المياه معًا؛ ومع أن الأعداء ظهروا خارج حصنهم، فإنه لم يهاجمهم، بسبب قرب حلول الليل، وبسبب انتظار مجىء أريبالو دى سواثو مع الناس القادمة من مالقة. وفى أثناء ذلك وضع حراسته فى سلسلة جبال أربوتو فى

مواجهة الأعداء، الذين هاجموا مبيت الدوق ودخلوا فى مناوشة طويلة جدًا، استمرت ثلاث ساعات. لم تكن سريعة، ولكن متواصلة وواسعة المدى.

فقد كانوا حوالى ثمانمائة رجل مسلحين بالبنادق وقواسين، والبعض منهم كان يحمل أسلحة مشرعة، ولكنهم عندما رأوا لواءين من الجنود المسلحة بالبنادق سيستولون على القمة منهم، انسحبوا إلى حصنهم بعد أن ألحقوا بعض الخسائر بين صفوفنا ولحقت بهم بعض الخسائر بين رجالهم. شدد الدوق حراسة ذلك المكان بسبب أهميته، بلواءين آخرين، وقد وصل أريبالو دى سواثو ومعه ألفان من المشاة من مالقة ومائة من الجياد وعليه اتخذ الدوق قرارًا بمهاجمة الأعداء فى حصنهم فى اليوم التالى. وإلى الجانب الشمالى، الذى كان فيه الصعود أشدّ صعوبة، أرسل الدوق إلى بدرو بيرموديث بمائة وخمسين من المشاة، ليحتل القمتين اللتين توصلان إلى الحصن، ومعهم لواءان من الجنود المسلحين بالبنادق، يدعمون ظهورهم، ووجوههم متجهة نحو اليد اليمنى لبدرو دى ميندوثا الذى كان معه الكثير من الناس وبالأمر نفسه، تاركين بينهم وبين بدرو بيرموديث جزءًا من الجبل الذى أحرقه المسلمون، حتى لا تصيب الحجارة التى تقذف من أعلى إلا الأماكن المكشوفة وتسبب عرقلة. واصل أريبالو دى سواثو السير مع الأفراد التابعين له من ناحية اليمين، وأمامه لواءان من الجنود المسلحين بالبنادق؛ وكان على يمين أريبالو دى سواثو، لويس بونثى دى ليون ومعه ستمائة من الجنود المسلحين بالبنادق سلكوا طريقًا عبر غابة من أشجار الصنوبر، وهى طريق أقل صعوبة من الطرق الأخرى. واختار الدوق لنفسه ومعه المدفعية وسلاح الفرسان وألف وخمسمائة من المشاة، المكان الواقع بين بدرو دى ميندوثا وأريبالو دى سواثو، كمكان أكثر سهولة، وكذلك أكثر وضوحًا؛ وأمر بدرو دى ميندوثا ومعه ألف من جنود المشاة وعدد من الجنود ممهدى الطريق أن يذهبوا إلى الأمام لتمهيد الطريق أمام الفرسان وأن يحتمى الجميع عند العبور بسفح الجبل، وأن يبدءوا فى الوقت نفسه بالصعود أيضًا وبخطوات بطيئة، وأن يدخروا حماسهم للوقت المناسب؛ فظل

الجبل بهذا الأمر محاصرًا، إلا من جانب إستان **Istán** ، حيث لم يمكن استقبال الناس بسبب الوعورة.

كان المتحاربون يرى بعضهم بعضًا وكان الجميع يستطيعون تقريبًا المصافحة بالأيدى. فعزموا على محاربة الأعداء فى صباح يوم آخر، لكن المسلمين عندما رأوا أن بدرو دى ميندوثا كان أكثر ابتعادًا وكان يقع فى جزء يكون من الصعب فيه رغم الجهد والاهتمام الكبير أن تصله المساعدة، هاجموه عند الغروب بعدد قليل من الناس، وحدث اشتباك بطلقات فى الهواء. بدا بدرو دى ميندوثا واثقًا من نفسه، هو جندى لم يمر عليه زمن طويل فى الجندية وليست له خبرة كبيرة، كان بمقدوره الاحتفاظ بالأمر، وأن يرضى بأن يظل هادئًا وبدون أن يتعرض للخطر، لكنه اندفع فى الاشتباك بحماس كبير. فتشتت الناس عبر الجبل إلى أعلى ودون نظام، ودون أن ينتظر بعضهم البعض. وكان المسلمون ينسحبون أحيانا، وأحيانًا أخرى يتمالكون أنفسهم، وبدوا كأنهم يحاصرون قواتنا. وعندما شعر بدرو دى مندوثا بالخطر، ولم يتمكن من منعه، (إما بسبب الخوف أو عدم الثقة من قلة سيطرته وتأثيره على الأفراد، مع أنه كان لديه سلطة قيادتهم)، أرسل إلى الدوق يخبره، ولكن فى الوقت نفسه الذى أرسل ثلاثة من القادة لسحب الجنود، كان يحتاج إلى الوصول إلى أعلى قمة بهدف استطلاع المكان. عبر الدوق بمن كانوا معه والذين تمكن من سحبهم، إلى حيث كان من صعدوا هناك، واستطاع بأوامره أن يوقف الجنود غير المنضبطين. كان المسلمون الذين بدأوا حينذاك فى الخروج من المكامن وظهروا للأعداء، ولما رأوا عزم الدوق، انسحبوا إلى حصنهم، بسبب قرب حلول الليل، وكان الناس الذين أتوا مع بدرو دى ميندوثا متعبين وغير منظّمين، وكانوا يخشون من أية كارثة، وخصوصًا الذين كانوا يتذكرون ما حدث للسيد ألونسو دى أغيلار فى المواقع نفسها.

وجد الدوق نفسه متقدمًا جدًا، فلما رأى الخنادق مكشوفة والمسلمين مستعدين لضرب الأفراد الذين يصعدون، وكان من الصعب سحبهم جميعًا، أراد أن يستغل

الفوضى، وبالأفراد الذين أحضرهم معه والذين تم جمعهم، هجموا جميعهم فى الوقت نفسه على الأعداء، والتصق بالحصن بطريقة جعلته يكون من أوائل الذين دخلوه. ولكن المسلمين الذين لم يجرءوا على توقع اندفاع وحماسة قواتنا، أخذوا ينزلون عبر أماكن من الجبل، كانت طويلة ومستمرة؛ ومن هناك توزعوا، ذهب بعضهم إلى ريوبردى (Rīoverde)، وبعضهم إلى منعطف إستان، وبعضهم إلى منعطف موندا **Monda** ، وغيرهم إلى منعرج سييّرا بلانكيّا **Sierra Blanquilla**؛ تاركين من نسائهم وأولادهم حوالى أربعمائة من النساء والأطفال. كانت الحرب وعرة، والناس عديمى النفع، كانوا يأكلون التموين المُدّخر لشنّ الحرب عبر تلك الجبال، ومازال يستمر فى مواصلة الهجوم مع إحراز نتائج ضعيفة، بسبب حلول الليل، ومرّ هو فى حصن الأعداء دون ثياب، ودون طعام؛ ولما رأى أن الجميع قد تفرقوا، وأن الجبل أصبح مهجورًا، ترك الحصن، وأعطى إذنًا وأمر الأفراد القادمين من مالقة أن يجولوا الأرض من جانب إلى آخر، ومضى بما تبقى من قواته إلى إستان، وأرسل أربع فرق دون ألوية. الأثر الذى أحدثته الفرق الثلاث هو حرق سفينتين كبيرتين جهزهما الأعداء للعبور إلى تطوان. الفرقة الرابعة بقائدها موريّو، الذى أمره الدوق بالتجوال فى ريوبردى، لم تحترم الأمر، وضربت الأعداء بالقرب من موندا، فى ربوة يسميها سكان هذه الأرض ألبورنو **Alborno**، تُرى من إستان؛ ومع انهزام الناس، انسحبت هذه الفرقة، وكان المكان قريبًا جدًا من المعسكر، فكان يُسمَع دوى البنادق، وتحسبًا للظروف، صدر أمر إلى القائد بدرو دى ميندوثا بنجدة وسحب الأفراد؛ ولكن عندما كان الأعداء على مرمى البصر اكتفى بجمع بعض الذين كانوا يهربون فقط. لم يستمر فى المضى إلى الأمام، إما أنه كان يخشى وجود كمين ما، مع أن الموقع كان يمتد على مسافة كبيرة مكشوفة، وإما أنه شعر بالندم بسبب الاهتمام الزائد الذى أبداه فى اليوم السابق فى سلسلة جبال إستان، فقُتل معظم أفراد الفرقة وقائدها يتقاتل. فى اليوم نفسه، الذى سار فيه المسلمون متفرقين اشتبكوا مع قائد روندة والقائد أسكانيو، الذى كان قد خرج دون أمر أو علم الدوق بمائة وخمسين من الجنود

وغيرهم من الناس، لأنهم كانوا غير خاضعين له، فقتلوهم بأكبر جزء من الفرقة. وهذا نفسه فعلوه ضد حامل البريد، الذى رحل من المعسكر إلى غرناطة ومعه موكب حراسة يتكون من مائة جندى، ومع أنه فقد بعضهم فقد تجمعوا فى موندا. فهم الدوق أنه عبر سلسلة الجبال يسير عدد من المسلمين، فأصدر أمرًا إلى أريبالو دى سوانثو بأن يعود إلى موندا ومعه الأفراد القادمون من مالقة، وأمر السيد سانشو دى ليبيا قائد الأسطول الإسبانى، أن يرسل ثمانمائة من المشاة من الأفراد الذين كانوا تحت قيادته، وأمر بدرو بيرموديث بأن يحضر مع الأفراد الوافدة من روندة، وجاء هو نفسه مع الذين ظلوا معه لانتظارهم فى موندا، بعد أن جمع الأفراد رحل بدون عراقيل عند منعطف أوخين Hojen، وهناك قابله السيد ألونسو دى ليبيا، ابن السيد سانشو، ومعه ثمانمائة جندى من غاليرا. وكان يعرف أن المسلمين ينتظرون على مسافة فرسخ، وبهذا الافتراض أمر الدوق بدرو بيرموديث، أن يسير ومعه ألف من الجنود المسلحين بالبنادق من جهة اليسار، وأن يسير السيد ألونسو بالأفراد التى كانت معه مستقيمًا إلى أوخين عبر جبل يسمونه النيغرال Negral؛ ووصل هو مع من تبقى من معسكره، واصل السير مستقيمًا إلى الكورباتشين Corvachín، وهى أرض شديدة الوعورة.

وبهذا النظام وصل فى الوقت المناسب إلى المكان الذى كان فيه الأعداء، ومن هناك نزل حتى وصل إلى مشارف فوينخيرولا، دون أن يجد شيئًا آخر سوى آثار الناس، وبقايا طعام (لأن المسلمين، شكّوا فى أنهم سيكتشفون، فتبعثروا، كما هى عادتهم وانتشروا فى كل الجبال). أعطى الدوق إذنًا للسيد ألونسو بالعودة للإبحار بالسفن، وسمح لأريبالو دى سوانثو بالرجوع إلى مالقة، على أن يمسح الأرض أولاً، وعاد هو إلى موندا، ومن هناك إلى ماربيّا. هذا المكان يسميه القدماء باربيسولا Barbesola، لكن الذى نسميه الآن موندا، أعتقد أنه كان يقيم به سكان موندا القديمة، على بعد ثلاثة فراسخ من هنا، حيث توجد مؤشرات ودلائل واضحة تدل على أنها كانت موندا القديمة، وتابع المسلمون الذين فتحوا إسبانيا عادتهم

القديمة، بنقل السكان من أماكن إلى أماكن أخرى باسم المكان الذى تركوه. ففى روندة وغيرها من الأماكن تشاهد تماثيل، ولافتات جلبت من موندا القديمة، وحولها، البطحاء، والعوائق، والمستنقعات فى النهير الذى يذكره إيرتيو (Hirtio) فى حكاياته.

وقد أتم أهالى المدن والسادة المدة التى كانوا مجبرين فيها على الخدمة بسبب الاستدعاء، وأغرقت الأرض بالمياه لنثر البذور، كان ينقص الجنود الاستفادة من الحرب، بسبب الرقابة التى وضعها المسلمون فى نقاط الحراسة فى كل مكان، وفى رفع وإخفاء الملابس والنساء والأطفال وفى التفرق رويدًا رويدًا فى الجبال، والغالبية العظمى منهم تنجح فى العبور إلى بلاد البربر، حيث يستطيعون بأى تجهيزات أن يجدوا معبرًا قصيرًا وأكثر أمنًا، ولا يمكن أن يتبعهم جيش منظم، والجيش الذى كان مكونًا ومعدًا أخذ رويدًا رويدًا فى التفكك. فبدا الرأى الصائب إرسال الأفراد إلى بيوتهم، وأن يعود الدوق إلى روندة، وإنزال الحاميات إلى الأماكن التى تمكنها من متابعة الأعداء وطردهم من البلاد بكل بسهولة، وتعقّب آثارهم فى شكل فصائل، دون أن يتركوهم ليستردوا قواهم أو ليعيدوا تشكيلهم فى أى مكان؛ لكنه استبقى الأفراد الذين كانوا تحت إمرته بعدما أصبحوا مهرة ومدربين، وكانوا يخدمون على نفقته، دون رواتب، ودون حصص من الطعام، فترك أناسًا فى أوخين، وإيستان، وموندا، وتويوكسTollox، وغوارو **Guaro,**، وكارتاخيما **Cartagima**، وخوبريكى Jubrique، وجعل فى روندة قيادة كل السلسلة الجبلية. وكان الملك قد نبه الدوق إلى أنه عازم على إخراج المسلمين من غرناطة وإسكانهم قشتالة فى الوقت نفسه، وأن على الدوق أن يكون جاهزًا ومستعدًا للوقت الذى يصل فيه الأمر من السيد خوان دى أوستريا. عندما حدث هذا، وصلت الخطابات من السيد خوان وكان يشرح فيها كيفية خروج المسلمين من كل المملكة فى اليوم الأخير من أكتوبر، وعهد إليه بهذا السر حتى اليوم الذى

سينشر فيه الإعلان، ونبهه للتنفيذ فى أرض روندة، وأرسل له التصريح "على بياض" يضع فى خانة الاسم الشخص الذى يرى أنه الأنسب.

بعد نشر القرار، أمر بجمع المسلمين المسالمين فى قلعة روندة بأمتعتهم وملابسهم، وأبنائهم ونسائهم، ووضع فى التصريح اسم فلوريس دى بينابيدس، مراجع جبل طارق، وأمره ومعه ستمائة رجل من رجال الحراسة أن يأخذ حوالى ألف ومائتى شخص من الخاضعين، ليتركهم فى إيورا **Íllora**، لكى يذهبوا معًا إلى قشتالة مع غيرهم من مرج غرناطة.

كان ذلك عند حلول شهر نوفمبر، مع البرد والمياه الغزيرة. وكان الأعداء يعتقدون أنه مع فيضان الأنهار الكبرى وضياع الطرقات فى الجبال فإن ذلك سيعوق الإجراءات، ويستطيعون هم الانتشار فى الأرض، وأن أتباعنا سيكونون مشغولين بزراعة أرضهم وأنهم سينضمّون بصعوبة؛ فكان المسلمون يثيرون الاضطرابات والقلق فى كل مكان وفى كل الأوقات فى أراضى روندة وماربيّا، وقاموا بأسر الفلاحين وأخذ الماشية، ومداهمة الطرقات حتى أبواب روندة تقريبًا، فكانوا يلجأون للمنحدرات فى ريوبيردى، الذى كان يسميه القدماء باربيسولا **Barbésola**، من اسم المدينة التى نسميها الآن ماربيا، ومن هناك إلى القمم وإلى محيط سييرا بلانكيّا. ونظرًا لكثرة الإنذارات وللاعتذار عن الأضرار التى –رغم عدم الإشارة إليها– كانت مستمرة، ومن أجل معاقبة الأعداء الذين كانوا فى ريوبيردى وفى سلسلة جبال الألبورونو **Alborno** ، وبسبب مقتل الأفراد التابعين لنا، وحتى لا يتكوّن فى ذلك الجبل –فى منطقة البشرات، والمجاورة لبلاد البربر– مأوى للموريسكيين، فقد قرر الدوق إتمام المشروع، ومحاربة الأعداء، وانتزاع جذورهم أو القضاء عليهم تمامًا. فخرج من روندة ومعه ألف وخمسمائة من الجنود المسلحين بالبنادق من أفراد الحراسة، وبعض النبلاء والسادة وبألف من الرعايا، وبسلاح الفرسان الذى استطاع ضمه بشكل مرتجل؛ ولكن قبل وصوله فهم من خلال تحذيرات الجواسيس ومن بعض الذين مروا بالأعداء، بأن عددهم كان ثلاثة

آلاف تقريبًا، ألفان منهم هم الجنود المسلحون بالبنادق والذين يقودهم المالكى، وهو رجل نشيط بينهم، ومتحمس، وكثير الذهاب والإياب إلى تطوان؛ وكان المسلمون قد قطعوا الطرقات بوضع الحجارة الضخمة والأشجار، وكانوا عازمين على الموت دفاعًا عن سلسلة الجبال. فأمر بدرو دى ميندوثا بالسير ومعه ستمائة من الجنود المسلحين بالبنادق مباشرة إلى مصب نهر ريو بردى، عبر سفح الجبل، وأمر لوبى ثاباتا بالذهاب ومعه ستمائة آخرون إلى غايمون Gaimon، إلى جانب كروم موندا، ذهب كل من القائدين بين الواحد منهما والآخر نصف فرسخ، وبينهما كان يسير الدوق مع باقى المشاة والفرسان.

وأمر كلاً من بدرو بيرموديث وكارلوس دى بييغاس -الذى كان فى حراسة إيستان وأوخين، ومعه فرقتان وخمسون من الجياد- أن يخرجا فى الوقت نفسه، وبمائتين من الجنود المسلحين بالبنادق كى يستولوا على أعلى مكان فى سلسلة الجبال وخلف الأعداء، وأن يرحل أريبالو دى سواثو من مالقة، وأن يذهب إلى موندا ومعه ألف ومائتان من الجنود وخمسون من الجياد. رحلوا جميعًا فى الوقت نفسه فى المساء ليجدوا أنفسهم فى الصباح مع الأعداء، لكن طلقة من بندقية سمعوها من الأفراد القادمين من سيتنيل Setenil، نبهتهم فغيروا المكان، وزادوا من تحصين الجزء الأخير الخاص ببدرو دى ميندوثا، من أجل أن يجدوا المخرج مفتوحًا جدًا، بدأ الدوق فى الصعود، وبدأ بدرو دى ميندوثا، الذى كان أقرب، فى القتال.

سمع الدوق مع أنه كان بعيدًا نوعًا ما طلقات البنادق، ورأى أن المعركة تدور فى ذلك الموقع الذى يوجد فيه بدرو دى ميندوثا، وأنها تشتد، ومن جانب السفح أخذ الاشتباك فى الظهور، مع سلاح الفرسان ومع من تمكّن من الجنود المسلحين بالبنادق، وهاجم الأعداء، وكان بالقرب منه ابنه، وهو فتى يبلغ من العمر ثلاثة عشر عامًا تقريبًا، والسيد لويس بونثى دى ليون، وكان من المعتاد فى عصر آخر فى عائلة بونثى دى ليون، تدريب الأولاد على محاربة المسلمين، ويكون

آباؤهم هم المدربون، وأظهر الأعداء العناد والإصرار نوعًا ما، ولكنهم لم يستطيعوا المقاومة فاستولوا على سلسلة الجبال، ومن هناك انتشروا وتفرقوا من جانب إلى آخر. وقتل أكثر من مائة رجل وكان من بينهم قائدهم المالكى؛ ولو خرج كل من بدرو بيرموديث وبيبغاس فى الوقت نفسه الذى أُمروا بالخروج فيه، لكان لذلك تأثير أكبر، وبوقوع هذا الحدث الطيب، وزع الدوق الجنود الذين استطاع توزيعهم فى فرق لمواصلة الهجوم، فأسروا النساء والأطفال واستولوا على الملابس والأمتعة التى كانت معهم، وقتلوا فى هذه المطاردة ثمانين. وهكذا نكل بالمسلمين تمامًا ولم يجتمعوا معًا فى أى مكان فى الجبل لا بالحيلة ولا بالقوة، وبحثوا أيضًا فى سلسلة الجبال التى يسمونها دايدين (Daidín)، ووزع الدوق قواته إلى فرق، ولكنهم لم يجدوا أيضًا مسلمين مجتمعين، وبهذا عاد هو إلى روندة، وأصبحت تلك الحرب منتهية، وظلت الأرض خالية من الأعداء، فجزء منهم لقى مصرعه وجزء تفرق وتشتت أو ذهب إلى بلاد البربر.

أردت أن استعرض بشكل خاص جدًا هذه الحرب فى روندة، لأن أحد الأسباب أنها كانت متنوعة ومختلفة فى أسلوبها، وجرت أحداثها وسط معاناة كبيرة للقائد الأعلى، بقوات مشكلة من أهالى القرى، والناس الذين أرسلهم السادة، وأكبر جزء منهم أرسله دوق أركوس نفسه؛ وبالرغم من أنه فى هذه الحرب لم تحدث مواجهات كبيرة، أو بلدان أخذت بالقوة، فلم تكن طريقتنا فى الحرب من حيث الاهتمام والحزم أقل من حروب وقعت فى أماكن أخرى من هذه المملكة، ولم توجد فوضى أقل يجب إصلاحها وعلاجها عندما تولى الدوق إدارتها ومسئوليتها؛ فإنما هى حرب قد بدأت وتوقفت بسبب قلة الأفراد، والأموال، والطعام، وعادت لتتجدد دون أموال ودون طعام، ولكنها وحدها انتهت تمامًا، وبعيدًا عن الادعاءات والمنافسات أو الأحقاد. والسبب الآخر لأنه فى أزمات بعيدة وقديمة كانت تجمع فى تلك الجهات قوى العالم، وحارب قيصر وأبناء بومبى، وهم قادته، حول من سيستولى على سيادة كل شيء إلى أن شاء القدر أن ينتصر قيصر على بعد

فرسخين من المكان الذى هو الآن روندة، وثلاثة فراسخ من الذى نسميه موندا، فى المعركة الكبيرة بالقرب من موندا القديمة حيث ترى اليوم، كما قلت، علامات مطبوعة وآثار تدل على السلب والنهب وبقايا أسلحة، وجياد، ويرى السكان المقيمون بها التقاء السرايا فى الهواء، ويسمعون أصواتًا كأصوات أشخاص تهاجم، تسميها العامة من الإسبان (أشباح) وهى تتشابه مع الظواهر والأطياف، ويشكّلها بخار الأرض عندما تشرق الشمس أو تغرب فى طبقات الهواء السفلى، كما تُرى فى أعالى السماء السحب مكوّنة صور مختلفة ومتشابهة(*).

كان السيد خوان مع الدوق فى غرناطة، وقد جاء القائد الأعلى إلى المكان لمتابعة ما قد يقع من أحداث، ومن أجل إنهاء المهمة، ومن أجل القضاء على الأعداء الذين بقوا، أمر السيد خوان بأن يتقدم القائد الأعلى مع الأفراد الذين يمكنه جمعهم -جزء من المدينة نفسها وجزء من الذين جاءوا من معسكره ومن معسكر الدوق، والذين سيصل عددهم مجتمعين إلى سبعة آلاف شخص- وأن يحملوا مؤنًا تكفى لمدة شهرين، على أن تحفظ فى أورخيبا، وبهذا رحلت القوات من خلف البشرات. وصلوا إلى لانخارون، وبأمر من الجنرال تم القيام بهجوم صورى مباغت، لكى لا يفقد الأفراد حرصهم، وفى يوم آخر وصلوا إلى أورخيبا، وفيها استراح الجنود ثلاثة أيام، وتلقوا الأمر الذى يجب أن يكون لديهم للبحث عن الأعداء لأن الأعداء كانوا يسيرون متفرقين ومنتشرين فى الأرض.

وفى اليوم الرابع خرجت القوات فى فئتين كل فئة تضم ألف رجل، وأمر أن تبتعد كل فئة عن الأخرى بمسافة أربعة فراسخ، بحيث تسير فئة من الجهة اليمنى وفئة أخرى تسير من الجهة اليسرى، وباقى القوات فى الوسط. وبهذه الطريقة يمسحون الأرض حتى يصلوا إلى بيتريس دى فيّريرا **Pitres de Ferreira**، ويتركون هناك حامية تتألف من خمسمائة رجل، ويمضون إلى الأمام حتى يصلوا

(*) (يعود المؤلف إلى الأساطير الخاصة بغرناطة وقصر الحمراء والتى انتشرت فى الأوساط الشعبية وجمعها واشنطن إيرفنغ فى كتابه "حكايات الحمراء". (المراجع)

إلى بورتوغوس Portugos، وهناك يتركون مائة رجل وفى كاديار Cadiar يتركون ثلاثمائة مع القائد بيريّو. وهنا حصل القائد الأعلى على معلومات جديدة تفيد بأن المسلمين قد انسحبوا إلى ساحل البحر، لأنها أرض وعرة وبها الكثير من النباتات الشائكة، فأمر السيد ميغيل دى مونكادا بأن يتجول فى تلك الأرض بألف ومائتين من الرجال، فوجد جزءًا به بعض المسلمين، وقتل سبعة منهم، وأسر مائتى شخص من بينهم نساء وفتيان، واستولى على ملابس، وأمتعة وغنائم وأسلاب، فقد جندى واحد فقط خدعته امرأة مسلمة جعلته يفهم أن لديها ثروة كبيرة فى كوخ، وعندما دخله طعنته بخنجر من تحت إبطه، وقتلته.

عاد السيد ميغيل مع الكتيبة المغيرة إلى كاديار حيث مكثت القوات؛ من هنا أرسل القائد الأعلى ألف رجل من البشرات إلى أوخيخار، لكى يقيموا فيها معتقلاً، وتركوا فى هذا المكان ثلاثمائة جندى ذهبوا إلى دوندورون Donduron وتركوا هناك فرقة من مائة رجل ومعهم قائدهم، وفى أياتور (Ayator) تركوا مائة آخرين، وفى بيرخا مائة آخرين، ومعهم أمر أن يمسحوا الأرض كل يوم، على أن يتركوا حراسة فى المعاقل. وأمر السيد لوبى دى فيغيروا أن يتجول بألف وخمسمائة من جنود المشاة وبعض الفرسان نهر المرية وكل تلك السلسلة الجبلية ومعها البولودوى **Boloduí** وأرض غينيخا **Gueneja** ، وأن يضم إليه الأفراد التى تخرج من ألمرية، وأن يمسح الأرض من خيريث إلى فينيانا **Fiñana** ونهر المنصورة. عاد إلى غرناطة، تاركًا معقلاً فى لاس غواخاراس العليا والسفلى وفى بيليث دى ابن عبد الله **Vélez de Benaudalla**، وفى كل المعاقل ترك مؤنًا تكفى لعدة أيام.

بعد أن وصل السيد خوان إلى غرناطة، أرسل قادة فصائل آخرين، وكانوا خوان كاريّو بانياغوا، وكامانتشو، ورينالدوس، وغيرهم، وبعدما فعل هذا، رحل السيد خوان مع الدوق والقائد الأعلى، إلى مدريد، ومن هناك رحل إلى أسطول الحلف، حيث منح السيد بدرو دى ديثا، وهو رئيس غرناطة، لقب القائد الأعلى،

وفى المرية عين السيد فرانثيسكو دى كوردوبا، قائدًا للمشاة، وهو سليل الكونت السيد مارتين. وكانت الفصائل تجول الأرض كثيرًا، كانت تجلب إلى غرناطة مسلمين ومسلمات، ولم يكن يمر أسبوع إلا وتحدث فيه غارة. وعند عبور بوابة لاس مانوس، قاموا بإطلاق البنادق دفعة واحدة عند صعودهم إلى أعلى عبر الثاكاتين (Zacatin)، إلى أن وصلوا إلى مقر المحكمة، وأبلغوا الرئيس لكى يرى ما أحضروه، وضعوا المسلمين فى السجن، وأعطوهم عشرين دوقية عن كل واحد، كما ذكرنا. عذبوا القادة والمسلمين المشهورين وأعدموهم، وحملوا الباقين للعمل بالتجديف في السفن، لكي يخدموا على المجداف كعبيد للملك.

من بين هؤلاء أحضروا رجلاً مسلمًا أصله من غرناطة اسمه فرج (Farax). وكان هذا يعلم برغبة غونثالو الشنيث (Gonzalo el Xeniz)، قائد القواد المسئولين عن حماية القلاع، ومنهم أبناء أخيه ألونسو وأندريس الشنيث، وغيرهم الكثيرون، وهي الاستسلام والخضوع، إذا صدر عفو عنهم، فاستدعى فرانثيسكو باريّدو، وأفصح له عن نية الكثير من المسلمين، وأيضًا عن الرغبة فى قتل ملكه إذا لم يرغب فى الخضوع معهم، ولهذا الغرض كان من المناسب أن يسعى لمقابلة غونثالو الشنيث، الذى كان واحدًا ممن يرغبون في هذا.

وبمعرفة ذلك، ذهب فرانثيسكو باريّدو إلى البشرات، وعند وصوله إلى سجن كاديار، أخرج رجلاً مسلمًا كان سجينًا عندهم، وأعطاه خطابًا إلى غونثالو الشنيث، يبلغهُ فيه عن سبب مجيئه، وأن يرى الأمر الذى يلزمه لكى يتقابل معه: وباستلام الخطاب، أجاب أنه فى يوم آخر عند شروق الشمس سيأتى إلى ربوة تبعد عن كاديار مسافة نصف فرسخ، وحيث يرى صليبًا فى أعلى مكان ينتظره، على أن يطلق البندقية ثلاث مرات كإشارة. ذهب وأعطى الإشارة فوصل الشنيث، وأبناء أخيه، وأظهر الكثيرون من المسلمين فرحة كبيرة لرؤيته، وما تم الاتفاق عليه كان إذا أحضر له عفوًا من الملك من أجله، ولمن يرغبون فى الخضوع، فإنه سيسلم لهم ملكه ابن عبو حيًا أو ميتًا، وبهذا انصرف، ووعدهم بأن يفعل ذلك وأن

يضعه فى حيز التنفيذ، وأن يبلغهم برغبة الملك. وجاء إلى غرناطة فرانثيسكو بارّيدو، ولفت انتباه الرئيس لما حدث مع غونثالو الشنيث وما وعده به؛ فأبلغ الرئيس الملك، وبرؤية ما وعد به الشنيث منحه الملك العفو له ولكل الذين سيأتون معه؛ وصدر الأمر الملكى للرئيس الذى رأى أنه لا يوجد من يستطيع أن يفعل ذلك بصدق، فاستدعى بارّيدو، وسلمه الأمر الملكى، وطلب منه بكل الصدق والحرص أن يفعل كل ما يتناسب مع هذا الشأن.

وعند استلامه الأمر الملكى، رحل ووصل إلى كاديار مع الرجل المسلم الذى كان قد حمل الرسالة من قبل. أعلمه أنه حصل على ما كان يطلبه، وأن يقابله فى الموضع والمكان الذى تقابلا فيه من قبل. وعندما وصل الشنيث، اطلع على الأمر الملكى والعفو قبّل الورقة ووضعها فوق رأسه، والذين أتوا معه فعلوا الشىء نفسه عند وداعهم ثم ذهبوا لتنفيذ ما اتفقوا عليه، وعاد فرانثيسكو بارّيدو إلى قلعة بيرتشول (Berchul)، لأن الشنيث قال له أن ينتظره هناك. اتفق غونثالو الشنيث والباقون على القيام بالمهمة بما يحفظ سلامتهم، إذ يكون من الأفضل أن يذهب واحد منهم إلى عبد الله ابن عبو، يقول له أن يتقابل مع غونثالو فى الليلة التالية فى كهوف بيرتشول، لأنه يجب أن يتحدث معه فى أشياء تناسب الجميع. وبعد علم ابن عبو، أتى فى تلك الليلة إلى الكهوف ومعه رجل مسلم، كان يثق به أكثر من أى شخص آخر، وقبل أن يصل إلى الكهوف ودع عشرين من الرماة كانوا يصطحبونه فى العادة، وكل ذلك بهدف ألا يعرفوا إلى أين يمضى فى تلك الليلة. فحياه غونثالو الشنيث قائلاً له: "يا عبد الله بن عبو، أحب أن أقول لك أن تنظر إلى هذه الكهوف، فهى مليئة بالناس البائسين، من المرضى، والأرامل والأيتام، وبما أن الأمور وصلت إلى هذا الحدّ، فإذا لم يستسلموا جميعًا للملك، فسيموتون ويهلكون، وباستسلامهم فإنهم سيتخلصون من بؤس كبير".

عندما سمع ابن عبو كلمات الشنيث، أطلق صرخة كانت تبدو وكأن روحه انتزعت منه، وبينما كان الشرر يتطاير من عينيه قال: "ما هذا ياشنيث! أمن أجل

هذا استدعيتنى؟ أكنت تضمر فى صدرك خيانة كهذه؟ لا تكلمنى منذ الآن ولا أريد رؤيتك أبدًا". وبقوله هذا توجه إلى مدخل الكهف: لكن رجلاً مسلمًا كان يدعى كوباياس، كتّف ذراعى ابن عبو من الخلف، وضربه أحد أبناء أخى الشنيث بمؤخرة البندقية على رأسه فأصيب بدوار أفقده الوعى، وضربه الشنيث بحجر وقتله. أخذوا الجثة، ولفُّوها ببعض عيدان القصب وألقوها أسفل الكهف، وحملوها فى تلك الليلة فوق بغل إلى بيرتشول، إلى حيث وجدوا فرانثيسكو بارّيدو وأخيه أندريس بارّيدو، وهناك فتحوا بطن الجثة وأخرجوا أحشاءها، وملأوا الجثة بالتبن. وبعد القيام بهذا، طلب فرانثيسكو بارّيدو من حراس السجن ومن قائدهم أن يقدموا له المساعدة والعون ليحملوا الجثة إلى غرناطة. وبناءً على طلبه، اصطحبوه، وفى الطريق تقابلوا مع مائتين وخمسين من المسلمين المسالمين. هؤلاء بعد معرفتهم بمقتل ابن عبو والعفو الجديد الذى أصدره الملك – جاءوا للاستسلام. فأتوا إلى أرميّا Armilla، وهو مكان فى الغوطة، وهناك وضعوا الجثة فوق ظهر أحد البغال، ووضعوا لوحة تحتها لتسندها، لكى يراها الجميع، فسار المسلمون المسالمون فى المقدمة، والجنود وفرانثيسكو بارّيدو فى الخلف. وعند وصولهم إلى غرناطة، والدخول إلى ميدان بيبارّمبلا، قاموا بإطلاق عدة أعيرة نارية دفعة واحدة، وهذا ما فعلوه أيضًا عند وصولهم إلى مقر المحكمة؛ وهناك وعلى مرأى ومسمع من الرئيس قطعوا رأس الجثة، وسلّموها للفتيان، وبعدما جرّوها عبر شوارع المدينة، أحرقوها؛ علقوا الرأس بخطاف فوق بوابة المدينة، التى يسمونها بوابة الراسترو، وفوقها قفص من سعف النخيل، ولافتة تقول:

هذه هى رأس

الخائن ابن عبو

لا يحركها أحد،

وإلا كانت عقوبته الإعدام

هكذا كانت نهاية هذا المسلم الذى كان ملكًا عليهم بعد ابن أمية. المسلمون الذين بقوا، بعضهم استسلم والبعض الآخر رحل إلى بلاد البربر، والباقون قضت عليهم فرق المطاردة وبرودة الجبال وسوء الطقس والأحوال المعيشية، وانتهت الحرب والثورة.

وبقيت الأرض مهجورة وخربة، فجاء الناس من كل أنحاء إسبانيا ليقيموا فيها، فأعطوهم أموال الموريسكيين على أن يدفعوا ضريبة صغيرة كل عام. وتفضل الملك بمنح فرانثيسكو بارّيدو ستة آلاف دوقية، وببيتٍ فى شارع أغيلا، وكان هذا البيت من ممتلكات رجل مسلم طُرد من المملكة، إلى بلاد البربر ثم جاء عدة مرات لافتداء الأسرى(*)، وفى إحدى الولائم قتلوه.

(*) ليس من العادة أن يُقتل منْ يذهب لافتداء أسرى؛ بل كان يتمتع بالأمان. أما ما كان يقوم به المسلمون المنفيون بالفعل فهو اختطاف أسرى مسيحيين لمبادلتهم أو لبيعهم. (المراجع)

المؤلف فى سطور:

كان دييغو أورتادو دى مندوثا أديبا بارزا، وهو يعتبر بالفعل -فى إنتاجه الشعرى والنثرى- من أكثر المؤلفين الإسبان تأثرا بعصر النهضة الإيطالى. نسبت إليه رواية الصعاليك الأولى "لاثاريو دى تورميس" وإن كانت الدراسات الموثقة لم تثبت ذلك. من ناحية أخرى فقد جمع مندوثا -على غرار مؤلفى عصر النهضة- بين الأدب وحمل السلاح، وفى مقدمة المراجع مزيد من المعلومات.

المترجمتان فى سطور:

١- إيمان عبد الحليم:

- ليسانس اللغة الإسبانية بامتياز مع مرتبة الشرف (كلية الآداب-جامعة القاهرة، ١٩٩٧).

- حاصلة على الدكتوراه من جامعة مدريد المركزية بامتياز مع مرتبة الشرف (٢٠٠٤).

- مدرس الأدب الإسبانى بكلية الآداب جامعة القاهرة.

٢- سلوى محمود:

- ليسانس اللغة الإسبانية بامتياز (كلية الألسن-جامعة عين شمس).

- حاصلة على الدكتوراه من جامعة الأوتونوما بمدريد بامتياز مع مرتبة الشرف.

- مدرس الأدب الإسبانى بكلية الآداب جامعة حلوان.

المراجع فى سطور:

- جمال أحمد عبد الرحمن

- من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط)

- حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٩) من كلية اللغات والترجمة (جامعة الأزهر).

- الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلمنكا ومدريد.

- حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف من جامعة مدريد المركزية (١٩٨٩).

- فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة (جامعة الأزهر).

- له الكثير من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإسبانى والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية.

التصحيح اللغوى: **خالد منصور**
الإشراف الفنى: **حسن كامل**



يتناول هذا الكتاب تـطورات الحرب التى خاضها الثوار المسلمون فى إسبانيا بين عامى 1568-1570 دفاعا عن هُويتهم.

كان هناك اتجاه رسمى يؤيد الحرب ضد من يعترض على التنصير بالداخل، وكان على المؤرخين أن يساندوا ذلك الاتجاه الرسمى و يمتدحوا القوات المسيحية و يصبوا اللعنات على الأعداء وألا يتحدثوا عن هزائم. لكن مؤلف هذا الكتاب خرج عن الإجماع وكتب -وهو شاهد عيان تقريبًا- ما أملاه عليه ضميره، فتحدث عن أخطاء ارتكبها الجيش الرسمى، وعن انتصارات حققتها الأقلية المسلمة. لهذا ظل الكتاب حبيس الأدراج حتى تغيرت الظروف فتمكن ورثته من نشره.

يعيب بعض النقاد على مندوثا أسلوبه الغامض أحيانًا ،والجمل غير المكتملة، والتكرار وقلة عدد المفردات المستخدمة، وعدم مراعاة الترتيب الزمنى فى رواية بعض الأحداث

كل هـذه الانتقادات لا تقلل مـن أهمية الكتاب، فقد كان منـدوثا من أبرز المؤلفين حيث الموضوعية، وكان على دراية بالأسباب الحقيقية التى أدت إلى الثورة.
نضع بين يدى القارئ إذن كتابًا موضوعيًا عن حرب غرناطة التى أشعلها مسلمو الأندل
دفاعا عن هُويتهم، كتبه نبيل إسبانى معاصر للأحداث ومتمرد بطبعه، ولا يتردد
توجيه النقد للأعداء وللأصدقاء إن لزم الأمر، نتمنى أن يعين الباحث العربى على قر
أخرى لتاريخ الأندلس.

تصميم الغلاف : نسرين كشك